



الأمّة كتّاب

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

السنة الثلاثون

رمضان ١٤٣١ هـ

د: ١٣٩

قيم الإسلام الحضارية نحو إنسانية جديدة

د. محمد عبد الفتاح الخطيب

محمد عبد الفتاح الخطيب

- * من مواليد جمهورية مصر العربية.
- * يحمل درجة العالمية (الدكتوراه) في اللغويات، من جامعة الأزهر الشريف.
- * يعمل مدرساً للغويات والفكر الإسلامي، بجامعة الأزهر الشريف والإمارات.
- * حضر عدداً من المؤتمرات، التي تُعنى بقضايا اللغة العربية، والفكر الإسلامي، والوعي الحضاري، والإصلاح والتجديد الفكري للأمة الإسلامية.
- * له عدد من الكتب والبحوث المنشورة، منها:
 - بين الصناعة النحوية والمعنى عند السمين الحلبي في كتابه الدر المصون في علوم الكتاب المكنون.
 - ضوابط الفكر النحوي.
 - حرية الرأي في الإسلام، مقارنة في التصور والمنهجية.
 - البغي بالكلمات، دراسة في تحليل الخطاب الغربي تجاه الإسلام.
 - البعد النفسي للعنف وأثره في تأويل النص الديني.
 - تعليم العربية للناطقين بغيرها تعليماً حضارياً.
 - التوظيف التقني للقرآن الكريم في تعليم العربية للناطقين بغيرها.



الأمّكتاب

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

ص.ب: ٨٩٣ الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يوثق علمياً، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. محاولة لاستدعاء القيم الحضارية في الإسلام، ومعايرة الواقع الإسلامي بها، وتقديم قراءة جديدة لهذه القيم وكيفية إعادة تفعيلها وفاعليتها، وبيان دورها في التغيير والتجديد للواقع المتخلف، والإفادة من فشل قيم (الآخر) في تغيير واقع الأمة وانتشالها من التخلف، الذي تعاني منه، حتى ولو عايشت من حيث الشكل مظاهر حضارية من خلال استعمالها لأشياء (الآخر) والتي تبقى مظاهر حضارية مغشوشة؛ وكيف أن النجاح الحضاري والتغيير الثقافي منوط بالقدرة على التوليد والتجديد من خلال القيم الحضارية لعقيدة الأمة، والبناء على أصولها الحضارية؛ وأن هذه القيم إذا أحسننا استرداد فاعليتها، قادرة على التجديد والتحديث، أو بناء حداثة إسلامية لا تقتصر على الداخل الإسلامي وإنما يمكن أن تشكل أنموذجاً جديداً لحضارة إنسانية على مستوى العالم.

فالكتاب يقدم رؤية ومشروعاً لتفعيل القيم الحضارية في حياة الناس يمكن أن يشكل سبيلاً للخروج من الواقع الحزين، كما يمكن أن يفتح نافذة ويلقي ضوءاً كاشفاً على عملية التوليد الذاتي، والوقاية الثقافية، ويقدم أنموذجاً حضارياً إنسانياً مؤهلاً للحوار والشهود الحضاري.

موقعنا علي الإنترنت : www.sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني : E.Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

قيم الإسلام الحضارية
نحو إنسانية جديدة

د. محمد عبد الفتاح الخطيب

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٣١هـ

آب (أغسطس) - أيلول (سبتمبر) ٢٠١٠م

محمد عبد الفتاح الخطيب

قيم الإسلام الحضارية.. نحو إنسانية جديدة

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٠م.

٢٢٤ ص، ٢٠ سم - (كتاب الأمة، ١٣٩)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٧٠٩ / ٢٠١٠

الرقم الدولي (ردمك): ٥ - ٤ - ٧٧٨ - ٩٩٩٢١

أ. العنوان ب. السلسلة

حقوق الطبع محفوظة

لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

بدولة قطر

موقعنا على الإنترنت: www.sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها

يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ
أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾

(النحل: ٧٩)

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية



كتاب
الأمّة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

• إعادة تشكيل العقل المسلم
في ضوء معرفة الوحي

• إحياء مفهوم فروض الكفاية
وأهمية التخصص

ثلث قرن من العطاء..

قطر - الدوحة - ص.ب: ٨٩٣ - هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠ (+٩٧٤) - فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢ (+٩٧٤)

www.sheikhali-waqfiah.org.qa E-Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله، الذي جعل معرفة الوحي سبيل الهداية إلى سبل السلام،
ورسيلة الإخراج من الظلمات إلى النور، فقال تعالى: ﴿يَهْدِي بِإِذْنِ اللَّهِ
مَنِ اتَّبَعَ بِضِرَافِ نُورِهِ سَبِيلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٦).

والصلاة والسلام على المنقذ من الضلال، الذي بما أُوحيَ إليه وضع عنا
إصرنا والأغلال التي كانت علينا، بعد أن لم نكن ندري ما الكتاب
وما الإيمان، الذي صوّب الرؤية الدينية، وخلّص الوحي الإلهي من عبث الكهنة
ورجال الدين، وجاء بالحنيفية السمحة، وأسس وأصل للوسطية والاعتدال،
بعيداً عن الغلو والتطرف والتعصب والانغلاق، وربى الأمة الوسط، ونشهد أنه
بلغ الرسالة وأدى الأمانة، لتنتلق أمة الشهادة في جنبات الأرض تحمل
وحي الله، وتشهد بذلك على الناس، استجابة لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ

أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾ (البقرة: ١٤٣)، وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٨)، وبذلك كان البعث الحضاري لهذه الأمة، وانتهى إليها الكتاب والميزان فتحققت لها المعيارية والمنهج القويم، ونيطت بها مهمة التقويم وبيان سبيل الاستقامة.

وبعد:

فهذا «كتاب الأمة» التاسع والثلاثون بعد المائة: «قيم الإسلام الحضارية.. نحو إنسانية جديدة» للدكتور محمد عبد الفتاح الخطيب في سلسلة «كتاب الأمة»، التي تصدرها إدارة البحوث والدراسات الإسلامية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر، في محاولتها الدائبة لتحديد أمر الدين، وتصويب صور التلويح، واكتشاف مواطن الخلل، وتحديد مواقع القصور، وبيان أسباب التقصير، وبناء الوعي، واسترداد الفاعلية، واستدعاء معرفة الوحي لواقع الناس لتشكيل البوصلة والدليل لوجهة الإنسان في تعامله مع الحياة والأحياء، وتستنفر العقل ليقوم بدوره في ضوء هداية الوحي في الاجتهاد ووضع الخطط والبرامج، وفق الإمكانيات المتاحة والظروف المحيطة، وتنزيل قيم الوحي في الكتاب والسنة على حياة الناس، وتقويم سلوكهم بها، وبناء العقل الناقد، واستمرار المراجعة لصور التدين، والحراسة الدائمة لقيم الدين، ونفي نوابت السوء، واقتراح وسائل تجاوز فجوة التخلف، وترحيل آثارها

ودراسة أسبابها، ورسم سبيل الخروج ومعاودة النهوض، واستحضار جميع التجارب، والتحقق بعبرتها، ومحاولة الإجابة عن سؤال النهضة، وإنهاء حالة العطالة الثقافية والحضارية، وإحياء القيم الإسلامية، وتحديد فاعليتها لتأخذ دورها المأمول في ترقية المجتمع وتزكية أفرادهِ وبناء مؤسساتهِ، واستئناف الدور الرسالي لعالم المسلمين في العطاء وإلحاق الرحمة بالعالمين.

وبالإمكان القول: إن عجز ما يسمى بالنخب في الواقع الإسلامي عن الإنتاج الثقافي المأمول والمقنع وتطوير الأدوات والوسائل، التي تعيد ربط الأمة بقيمها، في الكتاب والسنة، وتعالج حالة الكلاله الحضارية، وتوقف الاجتهاد والامتداد، والخوف من التفكير والإبداع، ومحاولة الهروب إلى الماضي والتسوّر به الأمر الذي أدى بشكل سنني وطبيعي إلى استدعاء (الآخر)، والافتتان بقيمه وفلسفته للحياة وأنساقه المعرفية، وعدم الاقتصار على استيراد أشياءهِ والانتفاع بها وإنما الحرص على إشاعة أفكارهِ وقيمه وثقافته أيضاً التي هي في نهاية المطاف لا تنفك عن أشياءهِ التي تملأ حياتنا.

ولعلنا نرى أيضاً: أن اعتلاء المنابر المؤثرة والفاعلة في المجتمع من غير المؤهلين والمتخصصين وأصحاب الأصوات العالية المنوط بهم الأخذ بيد الأمة إلى النهوض والتجاوز ووضع الخطط والبرامج والأوعية الشرعية لحركة الأمة في ضوء قيمها، حال مجتمعات التخلف، انتهى بهم إلى أن أصبحوا جزءاً من إشكالية التخلف نفسها، إن لم نقل: إنهم يمارسون، وعن حسن نية في

كثير من الأحيان، تكريس التخلف والعجز؛ لأنهم يعيشون وهَم الفهم والإدراك لكل شيء، وما ندري كيف يتفق هذا الفهم وهذا الفقه وهذه العبقريات العظيمة مع واقع التخلف والتراجع الحضاري الذي لا يتوقف في حياة الأمة؟!

وليس أقل من ذلك شأنًا وخطرًا الذين غادروا قيمهم وتجربتهم التاريخية الحضارية، وعجزوا عن التوليد والتجديد من خلال قيمهم، وارتموا على (الآخر) واستدعوه، مع كل ما عنده، دون أي قدرة على التمييز بين النافع والضار، وما يتوافق مع قيم المجتمع ومعادلاته الاجتماعية وأنساقه المعرفية، ولو أنهم كانوا في مستوى التمييز بين النافع والضار والقدرة على الأخذ والرد والمعرفة والإنكار لما وقعوا ضحايا لحضارة (الآخر)، التي أحدثت تغييراً في أسياننا ووسائلنا وغط حياتنا، وألغت عقولنا وأفكارنا ومحاولاتنا للنهوض وحتى مجرد التفكير والأمل والحلم بالمبادرة والابتكار والوصول إلى مرحلة القدرة على الاستفادة من (الآخر) بعقل وحكمة..

لذلك نرى أن الذين توجهوا صوب الماضي وحبسوا أنفسهم في دوائره دون القدرة على التحقق بعبرته لم يستطيعوا أن يحققوا لمجتمعهم أية نقلة حضارية، وإنما ساهموا بتوسيع دائرة أحلام اليقظة عنده، وتكريس العجز عن أي تجديد أو توليد من خلال قيمهم الحضارية التي ينتسبون إليها ويدعون نصرتها والالتزام بها؛ وأن الذين توجهوا صوب (الآخر) وألقوا بأنفسهم بالكلية

في قوالبه الحضارية الجاهزة المتولدة عن أصول وتاريخ آخر فحاولوا إقامة حاضر حضاري على أصول وماض حضاري مغاير لم يستطيعوا أيضاً أن يحرکوا في رواكد التخلف شيئاً.

ويبقى المطلوب أن تتولد نخبة قادرة على استدعاء قيمها وتجربتها التاريخية الحضارية وامتلاك المعيار والميزان، وفي الوقت نفسه قادرة على الإفادة مما عند (الآخر)، وممارسة التبادل الثقافي والمعرفي، ذلك أن الإنسان المتخلف عاجز أصلاً عن الإفادة مما عند (الآخر)، فهو في حقيقة الأمر والميزان الحضاري زبون يسوق أفكار (الآخر) لا تلميذ دارس يتعلم ممن هو أعلم منه.

ونحن بذلك لا نرمي إلى إلغاء (الآخر)، أو قطع جسور التواصل معه، والانكفاء عنه، وعدم الإفادة منه، أو التلفيق والمقاربة الحضارية على حساب قيمنا فنحاول مسحها وصّبها في قوالبه، وإنما نرى أن (الآخر) موجود وسيبقى موجوداً إلى يوم الدين، وأن التفاعل والتنامي والحراك كما يتم في إطار (الذات) أو ما يمكن أن يسمى حوار (الذات) ومن خلال نقدها ومراجعتها فهو يتم بشكل أوفر وأبعد أثراً مع (الآخر)، الذي يمكن أن يشكل الاستفزاز والتحدي، بمعناه الإيجابي، والمحرض الحضاري، الذي يلم الشمل، ويجمع الطاقات، ويشحذ الفاعلية، ويحرك القوى الكامنة، ويدعو للاستباق الحضاري، وخاصة عندما ندرك ويدرك أن ليس أحداً بديلاً للآخر، وأن لكل إنسان وجهة هو مولئها، وأن حرية الاختيار هي كرامة الإنسان، الذي أسسها

الإسلام بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وأن المطلوب هو أنسنة علاقات التعامل، وبناء المشترك الإنساني، وتوسيع دائرة التفاهم، وتكريس حقائق التعارف والتعايش، والاعتقاد بأن ذلك هو مقصد الدين، وغاية الدين؛ فالاختلاف والتنوع بل والتدافع الحضاري هو سنة من سنن الأنفس والآفاق، بما يتحصل النمو، ويتحقق الارتقاء في مدارك الكمال، ويتم من خلالها التلاقح والتناغم والتوالد والامتداد: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَجَعَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٨-١١٩)، فإذا أبصرنا هذه الحقائق الحياتية والكونية فقد استوعبنا رحلة الحياة.

والبوصلة التي تحدد الوجهة في ذلك كله هي معرفة الوحي، فهي دليل الحياة وكيفية التعامل معها؛ وبمجموعة القيم التي أكدتها معرفة الوحي جاءت لتشكيل الدوافع والروافع للعقل الحضاري، كما أنها تقيم وتقوّم الميزان والمعيار للعقل البشري؛ ويبقى المطلوب فقه معرفة الوحي وإدراك أبعادها ودورها في تأطير حركة الحياة، وفقه القيم ودورها في ضبط مسيرة الحياة.

وعندي أن التجديد والنهوض يبدأ بل ينطلق من إدراك أبعاد عقيدة التوحيد وتجديد معانيها في النفس، وتحويلها من مسألة توارث اجتماعي، كحال التقاليد والعادات وأثاث المنزل وسائر الأشياء، إلى محل نظر وتفكير وتجديد اختيار واعتناق واعتقاد، ومن ثم إدراك أبعادها التغييرية في النفس والمجتمع، ووضع البرامج والمناهج التربوية والإعلامية والتعليمية والثقافية لتحقيق النقلة بالأجيال من الإرث العفوي إلى تجديد الاعتناق والاعتقاد، الذي يوصل

إلى تجديد معاني العقيدة في النفس والمجتمع، وبيان دورها في مسيرة الحياة، وضبط حركتها بقيم الدين.

ولا شك أن الجهود الطيبة المشكورة، التي بذلت من بعض رواد الإصلاح والتجديد تمحورت في معظمها حول تنقية العقيدة من البدع والخرافات ونوابت السوء، وهذا يشكل أساساً محورياً في عملية التجديد، لكن الإشكالية هي التوقف عند ذلك والإبداء وإعادة حوله، دون استكمال المشروع الإصلاحى في تجديد معاني العقيدة في النفس، واسترداد فاعليتها في الحياة، وإعمالها في تحقيق الحياة الطيبة لمعتنقيها.

إن تنقية العقيدة على قدر كبير من الأهمية الدينية والثقافية والحضارية وحتى السياسية والاجتماعية، وبدون ذلك لا يمكن أن يكون التدين السليم البعيد عن الغش والعوج وهم العافية؛ فالتنقية قاعدة البناء الحضارى الصلبة، لكن كيف نبني استحقاقات ومعاني العقيدة في النفس والمجتمع لتحدث أثرها في التغيير والارتقاء وهداية الأمة سبل السلام؟ فتلك هي: المعادلة الصعبة والممتدة طوال الحياة الإنسانية.

وهذا البعد هو الذي عبر عنه «ابن خلدون» عند بيانه لحقيقة عقيدة التوحيد في قوله: «إن المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الإيمان فقط، الذي هو تصديق حكمي فإن ذلك من حديث النفس، وإنما الكمال فيه حصول صفة منه تنكيف بما النفس»، ومعناه تفعيلها لقيمه وانطلاقه من تحريك الحياة من خلال مقتضياته، استخلاقاً في الأرض، وتزكية للنفس، وتعميراً للبنيان الحضاري، وشهادة على الخلق.

وبعد:

فهذا الكتاب محاولة لاستدعاء القيم الحضارية في الإسلام، ومعايرة الواقع الإسلامي بما، وتقدم قراءة جديدة لهذه القيم وكيفية إعادة تفعيلها وفاعليتها، وبيان دورها في التغيير والتجديد للواقع المتخلف، والإفادة من فشل قيم (الآخر) في تغيير واقع الأمة وانتشالها من التخلف، الذي تعاني منه، حتى ولو عايشت من حيث الشكل مظاهر حضارية من خلال استعمالها لأشياء (الآخر) والتي تبقى مظاهر حضارية مغشوشة؛ وكيف أن النجاح الحضاري والتغيير الثقافي منوط بالقدرة على التوليد والتجديد من خلال القيم الحضارية لعقيدة الأمة، والبناء على أصولها الحضارية؛ وأن هذه القيم، إذا أحسننا استرداد فاعليتها، قادرة على التجديد والتحديث، أو بناء حداثة إسلامية لا تقتصر على الداخل الإسلامي وإنما يمكن أن تشكل أنموذجاً جديداً لحضارة إنسانية على مستوى العالم.

فالكتاب يقدم رؤية ومشروعاً لتفعيل القيم الحضارية في حياة الناس يمكن أن يشكل سبيلاً للخروج من الواقع الحزين، كما يمكن أن يفتح نافذة ويلقي ضوءاً كاشفاً على عملية التوليد الذاتي، والوقاية الثقافية، ويقدم أنموذجاً حضارياً إنسانياً مؤهلاً للحوار والشهود الحضاري.

والحمد لله من قبل ومن بعد.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلاة الله وسلامه على رسوله الأمين، وعلى صحابته وآله أجمعين، وبعد:

فمما لا شك فيه أن الأمة الإسلامية، عاشت، وما تزال، ردهاً من الزمن في فراغ «حضاري» استدعى (الأخر) بمفاهيمه، وأنساقه المعرفية، وحدثاته في «تحريك الحياة»، مع ما تبعه من تغييب، أو تجاهل، أو إهمال لقيم الإسلام، ومقولاته، ومفاهيمه، التي تضبط هذه الحركة حالاً ومآلاً، فأصبحت الأمة مدعوة، دائماً - في إطار الجدلية القائمة في حياتنا الثقافية بين «التراث» و«الحداثة» - إلى التخلي عن قيمها وأنساقها المعرفية، والتعلق بقيم الآخرين وأنساقهم المعرفية، تحت زعم التحديث والتحديث!!

ولكن مع تنامي حركة الإحباط النفسي تجاه كل الإخفاقات التي منيت بها الأمة على مختلف الصعد، ويقظة الأمة الإسلامية، وانبعاثها الإسلامي الجديد، ومع انحسار القناع عن الغرب، وفشل المناهج الغربية، وثافت «النموذج الحداثي» الغربي، بمادياته المنفصلة عن كل قيمة، وبمقلانيته المنقطعة عن كل غيب، وما ترتب على ذلك من «أزمات» في التعامل مع الإنسان والكون من حوله، استدعت التساؤل، من داخل منظومة الحداثة نفسها، عن مدى إمكانية الحديث عن منظومة قيمة أخرى «تحرك الحياة» بعيداً عن الحداثة الحالية، وأزماتها، وتطرفاتها في التعامل مع الإنسان ومع الأشياء (بدءاً من المحيط/الجمال الصغير، بأزهاره وثماره، وانتهاء إلى الكون/الفضاء الكبير، ببحاره

وأفلاكه وطبيعته وكل شيء فيه)، مع ذلك كله أخذ سؤال عريض يطرح نفسه بقوة في حياة الأمة الإسلامية، وهو: كيف «تحرك الحياة» وفق قيمنا نحن وأنساقنا المعرفية، وانطلاقاً من مرجعيتنا ومقولاتنا الحضارية؟ أو بمعنى آخر: كيف تحرك الحياة وفق مراد خالق الحياة، سبحانه، في أمره ونهيه؟

وقد أخذ موضوع السؤال يجذب إليه كثيراً من أعلام الباحثين والمفكرين، فظهرت، خلال العقود الأخيرة، دراسات متفاوتة القيمة، برؤى ومدخل متنوعة، برزت في ثنائها آراء متعارضة حول: «قيم الإسلام» و«أنساقه المعرفية» التي «يحرك الحياة» من خلالها، وواقع الأمة الإسلامية واحتياجاتها، وما تعيشه من «انحسار وكرالة حضارية»، وما أثاره ذلك من انتقادات وتساؤلات حول ما يمكن أن تقدمه هذه «القيم» من «معايير» و«أطر مرجعية»، تعالج مشاكل أمتنا، ومشاكل الإنسانية من حولها، ومعالجة التحولات الجارية والمستقبلية. هذا ولا تزال هذه الدراسات تحتاج إلى مراجعة وتخصيب وإنضاج؛ حتى يتوافر للأمة الإسلامية رصيد وافر وافٍ من العلم النظري، الذي يساعد في إعادة بناء «المفاهيم» و«القيم» التي يحرك الإسلام الحياة من خلالها، وتطوير «آليات» تفعيلها في واقع الحياة.

وفي هذا السياق تأتي هذه الدراسة، لا لتثبت أن الإسلام يملك في أنساقه المعرفية أنموذجاً قيمياً ذا طبيعة خاصة في «تحريك الحياة» يهدف إلى «ترقية الوجود»، ويبلغ الغاية في وصل الإنسان بربه، تعبداً وتعقلاً وتخلقاً، كما يبلغ الكمال في وصل الإنسان بأخيه الإنسان، تعارفاً وتراحماً وإحساناً، كما يبلغ المنتهى في التعامل مع مفردات الكون، انتفاعاً واستثماراً واثماناً، وأن ما تعانيه

الأمة الآن من «انحسار حضاري» بل «كلالة حضارية» إنما هو راجع إلى تحليلها عن هذا النموذج، وعجزها عن تفعيله، وتطوير «آليات» تنزيله على واقعها، فلا تأتي هذه الدراسة لتثبت ذلك فحسب، بل لتثبت، من خلال التحليل والمقارنة وبناء المفاهيم والمقولات الحضارية، أننا نملك نموذجاً قيمياً في «تحريك الحياة» يمثل «خطاباً حدائياً» جديداً، تحتاجه البشرية كلها، إذا فعلناه في حياتنا، ثم أحسنا تقديمه، والتعريف به؛ فالإسلام يملك منظومة قيمية ليست ضرورة لشهودنا الحضاري من جديد، بل وأيضاً، ضرورة لحدائنا إنسانية جديدة، وإن كانت من جنور حضارة غير غربية^(١)!!

وتنطلق هذه الدراسة من افتراضية مفادها: أنه إذا اعتبرنا أن الحدائنا «مشروع» يحرك الحياة من خلال رؤية للكون والإنسان وتعامله مع عالم الأشياء، وأن هناك «حدائنا» غير إسلامية، فلا بد من أن تكون هناك «حدائنا» إسلامية، لها مقولاتها ومفاهيمها الخاصة بها في «تحريك الحياة»، ونابعة من «رؤية» الإسلام المتميزة للإنسان والكون والحياة، بل إننا نرى، من وجهة نظرنا، أن وجود هذه «الحدائنا الإسلامية» في «تحريك الحياة» وكونها «حدائنا» للإنسانية جميعاً، نرى ذلك أمراً لازماً بالإسلام، مرتبطاً به أشد الارتباط باعتباره الدين الخاتم؛ ومن ثم فهو ليس «مشروع» ترقية للوجود

(١) وليس في ذلك سعي لإحلال المركزية الإسلامية محل المركزية الغربية، أي: إعادة إنتاج لمركزية معكوسة، تدعو إليها حدائنا جديدة، كما يتوهم البعض؛ لأن في حدائنا الإسلام من قيم: العدل والإحسان والتعارف والتراحم والمجاهدة، ما يمنع من هذه المركزية. كما سيلتقي في فصل: التزكية وترسيخ الذات الإنسانية.

الإسلامي فحسب، بل للإنسانية كلها على امتداد أزمانها^(١)، يعمل على «ترقية وجودها»، والارتقاء بها في «مدارج الكمال» مادة وروحاً، خلقاً وخلقاً، حالاً ومالاً، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣) فـ«الشهادة» معنى يقتضي كون الأمة، من خلال إسلامها وأنساقه المعرفية وقيمه في «تحريك الحياة»، هي المرجع والميزان، الذي تتطلع إليه البشرية، حينما تفقد «المعنى»، وتضل «المقصد»، وتبتعد عن «المرجعية»!!

وقد حاولت في هذه الدراسة استخدام بعض المفاهيم، التي أراها تعبر عن رؤية إسلامية واضحة في «تحريك الحياة» وجرى التعريف بها حين استخدمت لأول مرة، والاستدلال على صحة بنائها، من نحو: «المثل الأعلى»، و«الاستخلاف»، و«الخلافة الاقتدائية»، و«السعي الحي»، و«التركيبة»، و«الاستعمار الإيماني للأرض»، و«تحصيل المعية الإلهية»، و«ترسيخ الذات الإنسانية»، و«الكدح الحضاري»، و«الاستقامة الحضارية»، و«الكلاله الحضارية»، و«التخلف الكوني»، و«الحياة الطيبة»، و«الائتمان الكوني»، و«القوامه الكونية»، و«البعد السنني»، و«الائتمان على المستقبل».

(١) إذ من المقرر في العقيدة الإسلامية، أن زمان هذا الدين «الإسلام» ليس كمثل زمان؛ إذ هو الدين الخاتم، فلا ينحصر في زمن البعثة النبوية، ولا في الفترة التي استغرقتها حضارتها، وإنما يمتد ليشمل كل زمان يأتي بعده حتى تنتهي الحياة. بنظر في تقرير هذه الحقيقة، وشرح أبعادها الفلسفية: طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ط١ (بيروت: للمركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م) ص ١٥ وما بعدها.

هذا، وقد جاءت مكونات الدراسة مرتبة ترتيباً منطقياً، بحيث تنساب باتجاه اختبار الفروض التي قام عليها البحث، فتسلسلت في: «مقدمة» تناولت التعريف بالبحث، و«تمهيد» خصصته لتحرير عنوان الدراسة، فجاء بعنوان «القيم الحضارية في الإسلام..الدلالة وبناء المفهوم»، ثم جاء الفصل الأول «الاستخلاف وتحصيل المعية الإلهية» وقد كان محوره: قيمة «الاستخلاف» وما تقوم عليه هذه القيمة في «المنظور الإسلامي» من: «عمارة الأرض»، و«عبادة الرب»، و«القيام بين الناس بالحق والعدل، والإحسان والفضل».

أما الفصل الثاني، فكان بعنوان: «التزكية وترسيخ الذات الإنسانية» وكانت مهمته بيان منهجية الإسلام في ترقية الإنسان من خلال قيمة: «التزكية» ومحوريتها في مجتمع الاستخلاف، وهي قيمة تقوم على محورين: أحدهما: «مراعاة حق النفس»، وثانيهما: «مراعاة حق الغير»، والتزكية بهذا منهج إسلامي أصيل وفريد، وقيمة مركزية في «ترسيخ الذات الإنسانية» و«ضبط حركتها في الحياة» وفق منهج الله في أمره ونهيه.

أما الفصل الثالث: «الاستقامة والاستعمار الإيماني للأرض»، فقد جرى فيه بيان أن «عمارة الأرض هي صنعة المؤمن» حيث المقصد العام للشرعية الإسلامية: إصلاح الأرض وعمارتها، وتزجية معاش الناس فيها، وتحقيق التمكين عليها، من خلال أبعاد أربعة: «البعد الإيماني» و«البعد الغائي» و«البعد الأخلاقي» و«البعد السُّنِّي» وما يتولد عنها من قيم فرعية تضبط حركة الإنسان في تعامله مع الحياة والأحياء، هو الذي يحقق معنى «الاستقامة» الحضارية التي هي المقصد الأساس لـ«تحريك الحياة» في الإسلام.

ثم كانت الخاتمة، وكانت بعنوان: «القيم الحضارية في الإسلام، من إشكالية القراءة إلى إشكالية التفعيل» وفيها تمت مناقشة: القيم الإسلامية والواقع: من خطأ القراءة إلى خذلان التفعيل، وضرورة تفعيل هذه القيم في حياة المسلم، ورد الاعتبار إليها، تنزيلاً وحراسة وتنمية، وضرورة الاجتهاد في تطوير «آليات» هذا التفعيل، وما يتطلبه ذلك من: «تجديد» في خطابنا: العقدي، والفقهية، والقيمية.

وبعد،

فهذا مجرد مشروع لقراءة «القيم الحضارية في الإسلام»، وقد حاولت فيه التأسيس لهذه القيم والتأصيل لها، وبناء المفاهيم الحضارية من خلالها، والباحثون مدعوون إلى مواصلة المسير، ترسيخاً لهذا المنظور الإسلامي في «تحريك الحياة» وإبداعاً لـ «آليات» تفعيله، و«تشغيل» مفاهيمه؛ إيماناً منا بأن الاجتهاد العلمي رحم توالده، وسنة من سنن العلم النافع.

والله الموفق.

تمهيد

القيم الحضارية في الإسلام... الدلالة وبناء المفهوم

أولاً: مفهوم القيم:

كلمة «قيم» على ما يذكر اللغويون، جمع «قيمة»، ومادتها «قَوْمٌ»، جاء في تاج العروس: «الْقِيَمَةُ بِالْكَسْرِ وَاحِدَةُ الْقِيَمِ، وَهُوَ ثَمَنُ الشَّيْءِ بِالتَّقْوِيمِ، وَأَصْلُهُ الْوَأْوُ لِأَنَّهُ يَقُومُ مَقَامَ الشَّيْءِ، وَيُقَالُ: مَا لَهُ قِيَمَةٌ، إِذَا لَمْ يَدُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَلَمْ يَثْبُتْ.. وَاسْتِقَامَ الْأَمْرُ: اعْتَدَلَ.. وَالْقَوَامُ كَسَحَابٍ: الْعَدْلُ.. وَالْقَوَامُ بِالْكَسْرِ: نِظَامُ الْأَمْرِ وَعِمَادُهُ وَمِلَاكُهُ الَّذِي يَقُومُ بِهِ.. وَكُلُّ مَنْ ثَبَتَ عَلَى شَيْءٍ وَتَمَسَّكَ بِهِ، فَهُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِ.. وَالْقِيَمُ كَعَنْبٍ: الْاسْتِقَامَةُ.. وَتَقَاوُمُوهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ: إِذَا قَدَّرُوهُ فِي الثَّمَنِ. وَإِذَا انْقَادَ الشَّيْءُ وَاسْتَمَرَّتْ طَرِيقَتُهُ فَقَدْ اسْتَقَامَ لَوَجْهِهِ.. وَأَمْرٌ قِيَمٌ: مُسْتَقِيمٌ، وَخُلُقٌ قِيَمٌ: حَسَنٌ، وَدِينٌ قِيَمٌ: مُسْتَقِيمٌ لَا زَيْغَ فِيهِ، وَكُتِبَ قِيَمَةً: مُسْتَقِيمَةً مُبَيَّنُ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ.. وَالْقِيَمُ: السَّيِّدُ وَسَائِسُ الْأَمْرِ»^(١).

فهي مادة تتعلق، في حقلها الدلالي، بعدة معانٍ، تدور في غالبيتها حول: قيمة الشيء وقدره أو مقداره، والتقويم والاعتدال، والاستقامة وعدم الميل، والثبات والتحكم في الأمور، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ

(١) ينظر في هذه المعاني، وغيرها: الإمام الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من الباحثين، ٣٠٦/٣٣.

الَّذِي تَأْتِيهِ الْفَقِيرَةُ وَلَنْ يَكُنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ (الروم: ٣٠)،
 فقله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي تَأْتِيهِ الْفَقِيرَةُ﴾ أي: الثابت الذي لا يتغير، والمستقيم
 الذي لا عوج فيه، والذي يملك القيام على شؤون الحياة والإنسان، كما يملك
 القيمة على الواقع كله؛ لأنه لا ينطلق من حالة طارئة قابلة للزوال تبعاً لزوال
 ظروفها المحيطة بها، بل من حالة عميقة في عمق المصلحة الإنسانية، ممتدة
 بامتدادها؛ ومن ثم كان به قيام حياة الناس، وبه يثبت توازن أوضاعهم^(١).

و«القيم» بهذا الاعتبار، مفهوم جامع لكثير من المعاني والدلالات، التي
 تسوّغ إطلاقه على: كل ما من شأنه أن يمثل «معيّاراً» و«ميزاناً» يتحرك من
 خلاله الإنسان، ويتصرف، وعياً وسعيّاً، بوحى من إشاراته وتوجيهاته، بحيث
 تكون هذه الحركة في استقامة وثبات، وبه يكون لهذه الحركة قدرها وفاعليّتها.

ثانياً: مفهوم الحضارة:

أما مفهوم «الحضارة» في بنيته المعجمية العربية، فهو من مادة: «حضر»،
 وبالرجوع إلى هذه المادة، نجد أنها تتعلق بعدة معانٍ، أرجعها ابن فارس كلها إلى
 أصل واحد، وهو: «شهود الشيء»، وإيراده، ومشاهدته^(٢)، وهو الأصل
 المستخدم في كل آيات القرآن الكريم للحذر حضر، كما في قوله تعالى:
 ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ (البقرة: ١٨٠)، وقوله تعالى:

(١) ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني
 (بيروت: دار المعرفة) ص ٤١٧.

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ٢ (بيروت: دار الجيل،
 ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ٧٥/٢ وما بعدها؛ وينظر: تاج العروس، ٤٠/١١.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ...﴾ (النساء: ٨)،
 وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَعْدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾
 (آل عمران: ٣٠)، أي: مشاهداً لديها، مكشوفاً عندها. وعلى هذا أصل
 الباب^(١): فيقال: حضر يحضر حضوراً وحضارة، من الحضور، أي: المشاهدة،
 ضدَّ المغيَّب والغيبَةِ، والحاضر: هو الشاهد، خلاف البادي، أي: الغائب،
 والحضارة: شهود الحضر، والإقامة فيه، والحضارة: خلاف البداوة، سُمِّيَتْ
 بذلك؛ لأنَّ أهلها حضروا الأمصارَ، ومساكن الدِّيَّارِ الَّتِي يَكُونُ لَهَا قَرَارٌ.
 و«الحضارة» بهذا الاعتبار -أي: اشتقاقها من مطلق الحضور-
 تطلق، ويراد بها: كل حضور في الواقع، رام «تحريك الحياة» بكل أبعادها
 وامتداداتها، وعياً وسعياً، من خلال تحيُّزاته وأنساقه المعرفية (مصطلحاته
 ومفاهيمه النابعة من رؤيته للإنسان وعلاقته بالكون وعالم الأشياء من حوله) ثم
 سعى إلى تقديم هذا الحضور، بأنساقه وتحيزاته، على أنه نموذج قياسيٍّ للبشرية
 كلها، وبمعنى آخر، إن الحضارة هي: كل حضور يحرك الواقع نحو معياره، بكل
 تحيُّزاته وأنساقه المعرفية، كما يحرك المعيار ليوصل التزام الواقع به^(٢).

(١) وهو أصل الباب أيضاً في مادة «شهد» إذ لا تخرج عن الحضور، يقول ابن فارس:
 «الشين والهاء والدال أصل يدل على حضور، وعلم وإعلام، لا يخرج شيء من فروعه
 عن الذي ذكرناه»، مقاييس اللغة، ٢٢١/٣.

(٢) وفي هذا السياق، يفهم ما ذهب إليه المفكر الإسلامي الكبير، مالك بن نبي، رحمه الله، من
 ضرورة التفرقة بين «الحضور» و«الوجود»، ورأى أن الأمم قد «توجد» مكتفية بذاتها،
 منفصلة على نفسها، أو مفعولاً بها، غير مؤثرة فيما حولها، ولكنها لن تكون «حاضرة»
 إلا إذا خرجت من حيز «الوجود»، إلى حيز «الحضور»، بما يعنيه ذلك من: الشهود
 والوعي والتأثير، وطرح رؤية للعالم، وتجاوز للذات، ومحاولة الإسهام بـ «فاعلية» في
 «تحريك الحياة». فالحضور: مشاركة وتأثير وفاعلية، وليس انفعالاً وتلقياً، أو تكراراً
 واجتراراً، أو انغلاقاً وتقوُّعاً. ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور
 شاهين، ط٤ (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٤م) ص ٢١ وما بعدها.

وهذا يصبح مفهوم «الحضارة» معنىً حيادياً^(١)؛ إذ يطلق على كل حضور في الحياة كانت هذه صفاته؛ ومن ثم يصبح لكل حضارة تعريفها الخاص بها، بناءً على نموذجها المعرفي الكامن فيها، وقيمتها التي أبدعتها، ومذاقها الخاص الذي يميزها، وهذا، أيضاً، يتبين أن ما يميز أية حضارة، ليس هو جملة المعارف والصناعات التي تُحدثها، في أثناء تحريكها الحياة، بقدر ما هو جملة المعايير والموازن «القيم» التي تحيط بهذه المعارف والصناعات، وتوجهها، ومن هذا التمايز في «القيم» يأتي «التدافع الحضاري» الذي به تستمر الحياة، وتندوم فاعليتها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ...﴾ (البقرة: ٢٥١).

ووفقاً لهذا الأصل، نستطيع أن نعرف الحضارة الإسلامية، بأنها: «كل حضور، يسعى إلى «تحريك الحياة» وفق رؤية الإسلام للإنسان والكون والحياة، ومقاصده في «تحريك الحياة»، ومن خلال نموذجها المعرفي الخاص به، والقائم على: وصل الإنسان بربه، وكذلك وصل الإنسان بأخيه الإنسان، ثم الاستقامة في التعامل مع مفردات الكون، انتفاعاً واستثماراً واثماناً»^(٢).

(١) أي: لا يحمل معنىً قيمياً في ذاته وأصل بنائه؛ فلا يدل على رقيٍّ، أو غيره، ولا توصف الحركة الحضارية بالسلب أو الإيجاب إلا من خلال مقصودها، ومالات أحوالها. ينظر في تحقيق هذا المصطلح، وتتبع سيرورته: نصر محمد عارف، الحضارة، الثقافة، المدنية، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، ضمن: بناء المفاهيم دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، إشراف: د.علي جمعة، ود. سيف الدين عبد الفتاح، ط١ (القاهرة: دار السلام، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) ١/٢٦٠-٣٠١.

(٢) هذا هو التعريف الذي تدور حوله دراستنا، خلافاً للتعريف التقليدي لـ «الحضارة الإسلامية» والذي يدور حول: خبرة المسلمين وإنجازاتهم، وخلافاً للتعريف الذي يدور حول التراث التاريخي، والإنجاز المادي والفني، وتاريخ الفكر والنظم.

ثالثاً: البناء التنظيري لمفهوم: «القيم الحضارية في الإسلام»:

وتأسيساً على ذلك كله يمكن القول: إن مفهوم: «القيم الحضارية في الإسلام» في بنائه التنظيري، يطلق، ويراد به في هذه الدراسة: «المعايير والموازن الموجهة لحركة الإنسان، والضابطة والحاكمة للفعل الحضاري، بكل تنوعاته وامتداداته، وفق رؤية الإسلام ومقاصده في «تحريك الحياة» تحصيلاً للمعية الإلهية، وترسيخاً للذات الإنسانية، واستقامة في التعامل مع مفردات الكون وعطاءاتها، من خلال فقه شغوف بـ «التوازن والتجرد»، و«أداء الحقوق» و«مراعاة الحرمات ورفيع الأذواق»، و«أخلاق البذل والإيثار»، و«اصطناع المعروف»، و«ابتغاء الفضل وبذله»، و«محاربة الطغيان الحضاري»، و«الاستئثار العمراني»، وبعيداً عن ألوان التضليل والبغي الحضاري، وأخلاقياته في تحريك الحياة».

وهو بذلك يعد مفهوماً «منظومة»^(١) يحرك في إطاره مجموعة من الدلالات المحورية، أهمها:

١- أن «القيم الحضارية في الإسلام» تمثل «المنطق الداخلي» الذي يشكل الأمة الإسلامية، وبه قامت حضارتها وتطورت، كما يشكل «الوقاية

(١) «المفهوم المنظومة» مصطلح يشير إلى أن «المفهوم» ليس مفرداً، بل يستوطن في بنائه «منظومة» متكاملة من المفاهيم، والدلالات، بحيث لا يمكن فهمه أو تلمس قيمته في بنية العلم إلا من خلال تحليل ما يرتبط بهذا المفهوم من «مقولات» وما يتعالق معه من مفاهيم، ينظر: سيف الدين عبد الفتاح، العلاقات الدولية في الإسلام.. مدخل القيم، ط ١ (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م) ص ٦١١.

الحضارية» أي: القوة المانعة للمسلم من الذوبان في (الآخر)، فهذه القيم بمقدار ما تشكل قوة دافعة للنهوض، واستعادة الفاعلية، في أيام «الشهود»، بمقدار ما تشكل قوة، ووقاية حضارية، مانعة من الذوبان، في أيام «الوهن». وأي تفكيك للحضارة الإسلامية من هذا «المنطق» يعد لوناً من العبث، بل ويعد مدخلاً من مداخل «الانهزام» و«الاستلاب» الحضاري، و«التبعية» لغيرنا!! كما أن أي تفلت في «تحريك الحياة» من هذا «المنطق» فكراً وحركةً، يسلب عن هذا «التحريك» صفة الإسلام؛ ومن ثم فإن أي «تحريك للأمة» يعمل على إعادة الفاعلية لها، لا بد أن يحتكم إلى هذا «المنطق» وتنزيله على الواقع، وإلا فشلت محاولات هذا «التحريك» حالاً أو مآلاً، كما هو مشاهد!!

٢- أن «القيم الحضارية في الإسلام» تمثل «معياراً» و«إطاراً مرجعياً» حاكماً وضابطاً لحركة المسلم في الحياة، فهي ليست «رؤية» تقرر ما يجب أن يكون فقط، ولكنها «رؤية» ذات صلة بالواقع، فلا يتسم الواقع بسمة الإسلام، ولا يأخذ مشروعيته منه، إلا إذا التزم بـ«المعيار» و«الإطار المرجعي» الذي يتم من خلاله «تحريك الحياة» في مسيرتها وصيرورتها. والإسلام، في هذا المجال، يقدم ثلاثة مفاهيم، تمثل قيمه الكبرى في تحريك الحياة، وهي: «الاستخلاف» الذي يحدد مسار هذه الحركة، وفق مراد الله في أمره ونهيه، و«التزكية» المتحركة في وسائل هذه الحركة، بحيث يُراعى فيها: «حق النفس» و«حق الغير»، و«الاستقامة» التي هي انضباط حركة المسلم في هذه الحياة وفق منهج الله وشرعته، فتكون حركته، علماً وعملاً، منطلقة من معارف الوحي، ومنضبطة بمقاصده، ومناهج الاستعداد منه، حتى تكون كل

أقواله وأفعاله، وأحواله ونياته، واقعة لله، وبالله، وعلى أمر الله. فهي مفاهيم ثلاثة: «الاستخلاف» و«التزكية» و«الاستقامة» جميعها يشكل «منظومة» واحدة^(١)، ويمثل «قيماً محورية» توصل السعي الحضاري زامس^(٢)، كما يمثل «ضوابط أساسية» لاستمرار حضارته، في عطاء لا ينضب، رفاعية لا تموت.

٣- أن «القيم الحضارية في الإسلام» تشكل «المقاصد الحركية للإسلام»، و«مصلحه في تحريك الحياة»؛ ولذلك يعبر عن هذه القيم في أصول الفقه الإسلامي، تارة بـ«المقاصد» (حفظ الدين الذي هو الإطار المرجعي التأسيسي للأمة/ وحفظ النفس الفردية والجماعية/ وحفظ الكيان واستمراره في إطار العمارة الإنسانية وتنمية الموارد البشرية/ وحفظ المال وما يقوم عليه من عمليات التنمية والعمران/ وحفظ العقل وما يحمله من عناصر التكوين الثقافي وترسيخ عناصر القيم المتعلقة به) وتارة أخرى، بـ«المصالح» (المنافع التي قصدها الشارع والتي يتحقق بها صلاح الإنسانية في الحال، وفلاحها في المال، أي: سعادتها في الدارين، ابتداءً وانتهاءً)، فـ«المقاصد» و«المصالح»، بهذا المفهوم، ليستا إلا تجسيدات للقيم الإسلامية، وتحديدًا لمجالات الأعمال لها.

٤- أن «القيم الحضارية في الإسلام» بدلالاتها الثلاثة السابقة، في إطار مفاهيم: «الاستخلاف»، و«التزكية»، و«الاستقامة»، وفي إطار «المقاصد»

(١) انظر: سيف الدين عبد الفتاح، العلاقات الدولية في الإسلام.. مدخل القيم، ص ١٧٨.
(٢) وكلها مشدودة إلى القيمة المركزية العليا الحاكمة في الإسلام، وهي: قيمة «التوحيد» بمعنى نفى الشريك عن الله سبحانه، ذاتاً وأوصافاً وأفعالاً، إذ تنبثق منه مبدأ وقاعدة، وتعود إليه مقصداً وغاية، فكل سعي في الحياة، اقتداء واستمداداً، إنما هو منطلق منها، راجع إليها، وإلا فلا يوصف بالإسلام.

و«المصالح»، تشكل مجموعها، روح شرعة الإسلام ومنهاجه، فهي مرتبطة بما وجوداً وعدمًا؛ إذ من خلال هذه القيم يظهر تمايز الشرعة الإسلامية عن غيرها، كما أن ليس اتباع «الشرعة» في أوامرها ونواهيها إلا تجسيدا لهذه القيم، وتفعيلاً لها، وهو المعنى المستبطن في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ...﴾ (المائدة: ٤٨).

٥- أن القيم لها مركزيتها في البناء الحضاري الإسلامي: فمن أصول البناء الحضاري في الإسلام: أن يدرك المسلم أنه ليس بالسائب، وأنه لا يكشف طريقه عبر عقلانية محضة، وإنما هو محكوم، بعد نصوص القرآن الكريم، بالحديث النبوي، يخضع للصحيح منه، ولا بد، ذلك... أو التخبط، كما قال مالك بن أنس، رحمه الله: «ما قلت الآثار في قوم إلا كثرت فيهم الأهواء»^(١)، ويجمع ذلك كله حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»^(٢) أي: لا يكون العبد مؤمناً حتى يخرج عن داعية هواه؛ ليكون «عبداً لله اختياراً، كما هو عبد الله اضطراراً»^(٣)، وهو ما يشير إليه قوله: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢)، فما من شيء - كما يقول الراغب الأصبهاني -:

(١) الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ط ٢ (السعودية: دار ابن الجوزي، ١٤٢١هـ) ٣٨٣/١.
(٢) قال ابن حجر (فتح الباري، ٢٨٩/١٣): «أخرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين». وهذا الحديث يدل على أن من مقاصد الشريعة الإسلامية: «إخراج المكلف عن داعية هواه» فقتباع الأهواء يؤدي إلى المضموم شرعاً؛ لأن الاسترسال في تلبية أهواء النفس يعود للمكلف للعمل على إرضاء نفسه، دون التزلم بأحكام الشرع وتوجيهاته.
(٣) للشاطبي، الموافقات، تحرير وتحقيق الشيخ عبد الله دراز (بيروت: دار المعرف) ١٦٨/٢.

«إلا وإذا تعاطاه الإنسان على ما يقتضيه حكم الله تعالى، كان الإنسان في تعاطيه عابداً لله، مستحقاً لثوابه، كما قال النبي ﷺ لسعد: «إِنَّكَ لَتُؤْجِرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى اللَّقْمَةُ تَضَعُهَا فِي فِيْ أَمْرَاتِكَ^(١)» ومحاطبته لسعد بذلك لما عرّف منه أنه يراعي في أفعاله حكم الله تعالى. وعلى هذا الوجه قال ﷺ: «ما من مُسْلِمٍ غَرَسَ غَرْساً، ثُمَّ يُؤْكَلُ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ^(٢)»^(٣)؛ فليس في أفعال المسلم، إذن، ما لا حكم له في دينه، إما منصوفاً عليه بذاته، أو قابلاً للاستنباط مما هو منصوص عليه، أي: لا ثغرة حكمية في أفعاله؛ إذ «لله تعالى في كل فعل يتحراه الإنسان عبادة، سواء كان ذلك الفعل واجباً، أو ندباً، أو مباحاً»^(٤)، مما يؤكد أن الحضارة الإسلامية، منذ تأسيسها القرآني والنبوي، كانت حضارة قيم ومفاهيم، وليست حضارة صور وأشكال، غايتها تنمية الإنسان، في سعيه الحضاري، والارتقاء به في مراتب الكمال العقلي والخلقي، من خلال دعوتها إلى:

- «تحصيل المعية الإلهية» بالانضباط بمعيار الدين، والعمل على «مقتضى الشرع الإلهي»، فيؤمن المسلم بوجود الألوهية وراء كل شيء، فيعلم أن الحق

(١) ورد الحديث بروايات مختلفة، انظر: صحيح البخاري، كتاب: الإيمان، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية والحسنة، ٣٠/١، حديث رقم: ١٥٦؛ وفي صحيح مسلم، كتاب: الوصية، باب: الوصية بالثلث، ١٢٥٠/٣، حديث رقم: ١٦٢٨.

(٢) ورد الحديث في صحيح البخاري، بروايات مختلفة في موضعين، كتاب: المزارعة، باب: فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، ٨١٧/٢، حديث رقم: ٢١٩٥، وكتاب الأدب، باب: رحمة النفس بالبهائم، ٢٢٣٨/٥، حديث رقم: ٥٦٦٦. وأخرج نحوه الإمام مسلم، كتاب: المساقاة.

(٣) الراغب الأصبهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، تقديم وتحقيق د. عبد المجيد النجار، ط١ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ص ١٥٥.

(٤) المرجع السابق.

يخاطبه في كل شيء، وأن هذه المخاطبة مستمرة استمرار الحياة، فحيثما توجه وجد ربه، مراعيًا أمره ونهيهِ. ويعلم أن رؤية الله له لا تنقطع؛ ومن ثم فهو في كل أعماله مطالب بأن يراقب نفسه، ويراقب ربه، فهو دائر بين «تلقي الخطاب» من الله في كل شؤون حياته، و«تحمل الرؤية» من الله في كل أعماله. والقيم، في إطار تلك المعية الإلهية، ترتقي من رتبة «الأوامر والنواهي» التي تقهر الإرادة، إلى رتبة «المعاني الجمالية» التي تملأ الوجدان، فتجد الإنسان من خلالها يتفنن في الإتيان بالخلق تفنن الحاذق المُلهم، حتى يوشك أن يخرج الفرد، في إطار القيم الإسلامية، عن أفقه الإنساني إلى أفق يعلوه؛ حيث «وضعُ النفس تحت الحقوق» و«الثباتُ على أصول الشريعة، وكليات العقيدة وجزئياتها» ويتأسس على ذلك أن مرجع تلك «القيم» في التصور الإسلامي، إذن، ليس إلى «الرأي والهوى» وليس إلى «العقل البشري» بلا قاعدة ولا ضابط، وليس إلى «المصلحة» كما يتصورها الناس غير محكومة بأصل من دين الله، وليس إلى أي اعتبار آخر، غير اعتبار واحد هو «الوحي» المعصوم، بما يضعه من ضوابط وموازن تتحكم في كل شأن من شؤون الحياة؛ فالمسلم لا يستفيد من الدين «مقاصده» فقط، بل يستفيد -أيضاً- «وسائله» في البلوغ إليها!! وهذا يمنحها: صفة الثبات والرسوخ، وقدرتها على الإنتاج في كل زمان ومكان؛ لأنها قيم مقررة من الشارع الحكيم سبحانه، الذي يضمن «صحة المقاصد» و«نجاعة الوسائل» على الدوام، كما يمنحها صفة القبول والإلزام، والعمل بمقتضاها انتظاماً ومواظبة، فممارسة المسلم لأي عمل، انطلاقاً من هذه القيم، وتوظيفاً لها، والتقيّد بها في جميع جهاته الظاهرة والباطنة، إخلاصاً

وتقرباً إلى الله، هي مناط الشرعية؛ إذ للإسلام في كل وجه من وجوه تلك القيم أمرٌ ونهي، وإيجابٌ وتحريم، وإباحة ومنع، ولعل ذلك سبب تسميتها في الفقه الإسلامي بـ(الآداب الشرعية)، ومن هنا فإن توظيف تلك القيم في الممارسة من قبل الفرد، أو المجتمع، أو النظام السياسي في الدولة، هو أساس شرعيته الحقيقية^(١)، وهذا يعطي شعوراً عميقاً بالمسؤولية تجاه الالتزام بها.

- كما تتضح مركزية القيم في البناء الحضاري الإسلامي من خلال دعوتها إلى: «ترسيخ الذات الإنسانية» بـ«مراعاة حق النفس» تزكية لها، و«تصحيح السلوك»، أصلاً، ومقصداً، وسيلة. والعمل على «مراعاة حق الغير» إنساناً وحيواناً ونباتاً وجماداً؛ إذ الأصل، في منهج البناء الحضاري الإسلامي، أن نمنح الحقوق لا أن نسلبها، وأن ندع المقابل يرضى لا أن يسخط؛ ومن ثم فإن الواحد من أبناء الأمة الإسلامية لا هم له إلا الأدب مع من وما سواه؛ ومن ثم يرفض الإسلام، في منهجيته لتحريرك الحياة، أية قيمة تستلبد إنسانية الإنسان باستعباده واستذلاله، أو لا تجسد إنسانيته، بل لا تجسد كمال الإنسانية فيه حيث الغاية في كمال الأخلاق بتزكية النفس مقصداً وسلوكاً، كما يرفض الإسلام أية حركة تتم في غيبة «المقاصد الإنسانية الكلية» التي تقوم، في الإسلام، على مقصد «التعبّد» وما يدعو إليه من: «الاعتدال» و«التحانس» و«عدم الإغراب» و«الجرى مع الفطرة»، و«مراعاة: حقائق النفس، وحقائق الغير، والقدرة العقلية، والتحمل الجسدي، وحاجات الغرائز»؛ ولذا؛ فإن الإسلام

(١) حامد عبد الماجد قويسني، الوظيفة العقيدية في الدولة الإسلامية، ط ١ (القاهرة: دار الطباعة والنشر الإسلامية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ص ٢١٧.

في «تحريك الحياة» يلزم أفرادها ومؤسساته، بجشد من القيم والمعايير والضوابط، أو (الآداب الشرعية) التي تمثل (مدونة) أخلاقية^(١) لا تجد لها نظيراً في تاريخ البشرية؛ فتعرّف المعروف (كل المنافع التي من شأنها أن ترتقي بإنسانية الإنسان، أو على الأقل تحفظها) وتنكر المنكر (كل المضار التي من شأنها أن تنحط بهذه الإنسانية)، حتى الأحكام الشرعية-التي تضبط حركة المسلم التعبدية- فإنها لا تنفك عن القيم الأخلاقية، فجانبها الأخلاقي يؤسّس الجانب الفقهي، كما أن جانبها الفقهي يوجّه الجانب الأخلاقي^(٢) مما يمكن القول معه: إن للحكم الشرعي -في الإسلام- بنيتين متكاملتين: إحداهما فقهية، والثانية قيمة أخلاقية تضبط من سلوك الفرد باطن الأعمال التي تعود بالصالح، أو الفساد عليه أو على غيره، مما يورث المسلم أكمل تخلق^(٣)، وهذا ما يؤكد الإمام الشاطبي بقوله: «والشريعة كلها إنما هي تخلق بمكارم الأخلاق؛ ولهذا قال عليه السلام: «إنما بعثت لأتمم مكارم»^(٤)

(١) فهي، إذن، أخلاق «ربانية» مستفادة من الوحي قولاً، ومن الرسول ﷺ اقتداء واتساء به؛ ومن ثم فأخلاق المسلم ينبغي أن تكون على مقتضى «التخلق الرباني» لا على مقتضى «التخلق الاجتماعي» الذي يستفيدة الإنسان من سلوك من حوله، ولا مقتضى «التخلق النفساني» الذي يحكّمه به ضميره.

(٢) يقول القاضي عياض: «إن أحكام الشريعة، أوامر ونواهي، تقتضي حشاً على قُرب ومحاسن، وزجراً عن منكر وفواحش، وإباحة لما به صلاح هذا العالم وهذه الدار ببني آدم، وأبواب الفقه وتراجم كتبه كلها قائمة على هذه الكلمات»، ترتب المدارك وتقريب المسالك، ص ٩٢.

(٣) ينظر: طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ط ٣ (بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٧م) ص ١٠٦.

(٤) وفي رواية: «صالح» والحديث رواه أحمد، والبيهقي في الشعب، والحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ورواه البخاري في الأدب المفرد من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، وصححه الألباني، ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ/١٩٩٥م) رقم ٤٥، ١١٢/١.

الأخلاق»^(١)، ويقول ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ، وَمَعَالِي الْأَخْلَاقِ، وَيَبْغِضُ سَفْسَافَهَا»^(٢)، قال الإمام الحرالي: «مكارم الأخلاق» هي «صلاح الدين والدنيا والمعاد، الذي جمعها في قوله ﷺ: «اللهم أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةٌ أُمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»^(٣)»^(٤)، فالمقصود الشرعي من الرسالة، هو، مقصود أخلاقي «وقوله ﷺ: «لَأَتَمِّمَ» إشارة طريفة إلى أن رسالة الإسلام القيمة رسالة استئناف واستصحاب ومواصلة، لا رسالة ابتداء وانقطاع، فهي تنظر إلى ما أبدعه الإنسان في كل زمان ومكان من قيم عظيمة، وأخلاق عالية تحقق «المقاصد الإنسانية» فتضمها مباشرة إلى منظومتها، ثم تواصل سيرها

(١) الموافقات، ٧٧/٢.

(٢) أي: رديئها وحقيرتها، والحديث رواه الحاكم في المستدرک بمسندين عن طريق سهل بن سعد الساعدي، ثم قال: «حديث صحيح الإسنادين جميعاً ولم يخرجاه» المستدرک، ١/١١٢. (٣) صحيح مسلم (كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، ٢٠٨٧/٤، حديث رقم: ٢٧٢٠).

(٤) أبو الحسن الحرالي المراكشي، مفتاح الباب المغفل لفهم القرآن المنزل، تقديم وتحقيق: محمادي بن عبد السلام الخياطي، ط ١ (الدار البيضاء-المغرب: مطبعة النجاح، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م) ص ٥٧. و«مكارم الأخلاق» بهذا المفهوم الشامل، هي ما يسميها الإمام الراغب الأصبهاني بـ«مكارم الشريعة» وعليها عقد كتابه: الزريعة إلى مكارم الشريعة، وقد نبه إلى الفرق بين «أحكام الشريعة» التي مبادئها الأحكام التكليفية التي تتعلق بالأمر والنهي، وبين «مكارم الشريعة» التي مبادئها: طهارة النفس، واستعمال العفة والصبر والعدالة، ونهايتها: للتخصص بالحكمة والجود والحلم والإحسان.

في هذا الكون الفسيح؛ بحثاً عن قيم حضارية سامية تتحقق بها إنسانية الإنسان وكرامته»^(١).

- ومن خلال تلك القيم- التي تقوم على «تحصيل المعية الإلهية» و«ترسيخ الذات الإنسانية»- ومركزيتها في البناء الحضاري الإسلامي، يحقق المسلم معنى «الاستقامة» في العلم والعمل، فتكون كل أقواله وأفعاله، وأحواله ونياته، واقعة لله، وبالله، وعلى أمر الله^(٢)، وهو ما نسميه بـ «الاستعمار الإيماني للأرض». وبهذا تكون هي «القيم الكونية» بحق، وليس سواها؛ إذ إنما قيم تبلغ النهاية في وصل الإنسان بربه، والكمال في وصل الإنسان بأخيه الإنسان، والغاية في أي بناء حضاري علماً وعملاً، فهي قيم، في فقهها الحضاري، موصولة بحبال ثلاثة: حبل يصلها بالله (الاستخلاف وتحصيل المعية الإلهية) وحبل يصلها بالناس (التزكية وترسيخ الذات الإنسانية) وحبل يصلها بالكون (الاستقامة والاستعمار الإيماني للأرض)؛ وهذا ما يظهر بيانه في الفصول التالية.

(١) فقد حضر الرسول ﷺ حلفاً في الجاهلية، عقد في دار عبد الله بن جدعان؛ لمحاربة الظلم، ونصر المظلوم، وكف الظالم، وقال بعد الإسلام: «لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت» وهو ما يعرف بـ «حلف الفضول» أو «حلف المطيبين» وهذا القول يدل على تجويز الاقتباس من قيم الحضارات الأخرى غير الإسلامية، لما لا يصادم حقائق الإيمان، وأحكام الشرع ومقاصده، ينظر: حاشية ابن القيم على سنن أبي داود، ١/٨؛ والحديث في مسند الإمام أحمد، ٩٣/١، رقم: ١٦٥٥، عن عبد الرحمن بن عوف، قال: قال النبي ﷺ: «شهنت حلف المطيبين مع عومتي، وأنا غلام، فما أحب أن لي خمر النعم وأني أنكثه» وصحح الحاكم إسناده في المستدرک، ٢٣٩، حديث رقم: ٢٨٧٠.

(٢) ابن القيم، مدارج السالكين، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط٢ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) ١٠٥/٢.

الفصل الأول

الاستخلاف وتحصيل المعية الإلهية

الأصل في تحريك الحياة:

البناء الحضاري الإسلامي هو بناءٌ موصولٌ فيه الأرض بالسماء^(١)، والإنسان فيه «ليس لها ينازع» «الآلهة» وتنازعه، وليس كذلك حيواناً جاءت سيادته على الأرض مصادفة، وقد يقوم مقامه في هذه السيادة غداً أو فأراً وليس آلة تحسب قيمته بقوة «الأحصنة» التي يساويها في قوة التحريك والإدارة. وليس عبداً للمادة، ولا هو لراحة تطبع فيها المادة «أو الطبيعة» ما تريد، وليس عبداً للآلة، تُصرفُ حياته وأفكاره وأوضاعه كما تتصرف هي وتقلب، وليس «غمرة» ولا مجموعة «ثمر» تتحرك داخل القطيع، بلا شخصية مميزة، ولا كيان فردي خاص^(٢)، بل هو معطى إلهي، خلقه الله في أحسن تقويم، وحدد له وظيفته في الأرض، بأن جعله «مستخلفاً» فيها، و«مؤمناً» عليها، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ

(١) بخلاف الإنسان في منظومة القيم الكونية» أو «قيم الحدث» فهو ينظر إلى الأرض دائماً، لا إلى السماء، وحتى المسيحية يوصفها الدين الذي آمن به هذا الإنسان الغربي مئات السنين - لم تستطع أن تغلب على تلك النزعة الأرضية، بل بدلاً من أن ترفع نظره إلى السماء، استطاع هو أن يستنزل إله المسيحية من السماء إلى الأرض ويجسده في كائن أرضي.

(٢) سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة، ط ٩ (بيروت - القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٨م)

يُقْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٣٠﴾، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ...﴾ (فاطر: ٣٩)، وهو ما يوضحه الرسول ﷺ بقوله: «إِنَّ الدُّنْيَا خُلُوةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»^(١).

فهذا هو الأصل في حركة الإنسان في الحياة، وقد أجمل هذه الحركة، الراغب الأصهباني فذكر أن «الفعل المختص بالإنسان ثلاثة: عمارة الأرض، المذكورة في قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)، وذلك تحصيل ما به ترجية المعاش لنفسه وغيره. وعبادته المذكورة في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ (الذاريات: ٥٦)، وذلك هو الامتثال للباري تعالى في عبادته، في أوامره ونواهيه، وخلافته المذكورة في قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٩)، وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة، باستعمال مكارم الشريعة. ومكارم الشريعة هي الحكمة، والقيام بالعدالة بين الناس في الحكم، والإحسان والفضل. والقصد منها: أن يبلغ بذلك إلى حنة المأوى، وجوار رب العزة تبارك وتعالى»^(٢).

(١) رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء، حديث رقم: ٢٧٤٢، ٤/٢٠٩٨.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، ط١ (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والترجمة، ٢٠٠٧م) ص ٨٢-٨٣؛ (والراغب، وإن كان جعلها ثلاثة أفعال مختلفة، فإننا نراها فعلاً واحداً راجعاً إلى ما يمكن تسميته بـ«الخلافة الاقتدائية»).

مفهوم «الاستخلاف»:

فـ«الاستخلاف»^(١) هو القيمة المحورية الناطمة لقيم البناء الحضاري الإسلامي، وهو المفهوم الإسلامي الذي يحدد العلاقة التي تربط الإنسان بخالقه من جهة، وتربط الإنسان بالأرض وعالم الأشياء من جهة ثانية، وبأخيه الإنسان من جهة ثالثة^(٢)، فهو تصور كامل لحقيقة الوجود، والكون، والإنسان، والحياة، فالمستخلف هو الله تعالى، والمستخلف هو الإنسان وأخوه الإنسان، والمستخلف عليه هو الأرض وما عليها ومن عليها. و«الاستخلاف» بهذا المعنى مفهوم يوطر حركة الإنسان (ال خليفة) في الحياة، وهو يعني أمرين:

(١) معظم علماء الإسلام على أن «الخلافة» معناها: خلافة الإنسان عن الله، في سياسة الكون، وتعمير الحياة، وفق مراده في أمره ونهيه سبحانه، اقتداء واستمداً. والاستخلاف هنا إنما هو استخلاف رباني، أعطاه الله تعالى للإنسان تشريعاً وتكريماً، وليس استخلاف عجز أو حاجة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، انظر: الإمام الراغب في المفردات، ص ١٥٦، وينظر في الخلاف حول جواز القول بخلافة الإنسان عن الله: الإمام ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ١٥١/١ وما بعدها، ففيه كلام مفيد وتفصيل رشيد.

(٢) فالبناء في الحضارة الإسلامية يبدأ من الله وينتهي إليه. وبهذا يتميز البناء الحضاري في الإسلام، الذي يحدد علاقة الإنسان بما سواه بناء على مسلمة «الاستخلاف» عن البناء في الحضارة الغربية، الذي يحدد علاقة الإنسان بالطبيعة، وبالأخر، وبالله «أو الغاية النهائية من الوجود» بناء على مسلمة ثلاث، هي: مسلمة ديكار، التي تجعل «الإنسان سيداً ومالكاً للطبيعة»، ومسلمة هوبز، التي تجعل «الإنسان ذنباً بالنسبة للإنسان»، ومسلمة مارلو، التي تجعل «الإنسان المنمي لقدراته العقلية إلهاً يسود جميع العناصر، ويهيمن عليها» ومن خلال هذه المسلمات الثلاثة تم القضاء على الأبعاد السامية للإنسان، والرفض لكل القيم المطلقة، ينظر: رجاء غارودي، الإسلام والحدث، ترجمة: د. العربي كشاط، ضمن بحوث: الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد، ط ١ (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م) ص ١٦٨.

أولهما: أن الإنسان الخليفة حر، ولا سيادة لإنسان على آخر ابتداء، فلا مشروعية لأي ألوان التحكم، أو أشكال الاستغلال وسيطرة الإنسان على الإنسان، فلا سيد ولا مالك ولا إله لهذا الكون وهذه الحياة بكل من فيها وما فيها إلا الله سبحانه وتعالى، والقيم جميعاً مشدودة إليه بدءاً وعوداً، وفي البدء والعود حركة دائبة فاعلة: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْرىَ فِيهِ بِأَمْرِى وَلِيَتَنَبَّؤُا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ١٢-١٣).

وثانيهما: أن دور الإنسان في هذه الحركة إنما هو دور «الاستخلاف»، و«الاستئمان»، و«التفاعل»، و«أداء الواجب»، وفق منهج الله في أمره ونهيه، وأي علاقة «تنشأ بين الإنسان والكون فهي، في جوهرها، ليست علاقة مالك بمملوك، وإنما هي علاقة أمين على أمانة استؤمن عليها. وأي علاقة تنشأ بين الإنسان وأخيه الإنسان، مهما كان المركز الاجتماعي لهذا أو لذلك، فهي علاقة استخلاف وتفاعل بقدر ما يكون هذا الإنسان أو ذاك مؤدياً لواجبه بهذه الخلافة، وليست علاقة سيادة، أو ألوهية، أو مالكية»^(١).

وهذا معناه: أن الإنسان، في مفهوم الاستخلاف، عابد مسؤول، مستحضر على الدوام لإرادة الله وقدرته، وهو سيد في الكون بعمارته، لا سيد عليه بالاستعلاء والتسلط، والقهر والغزو، وهو «أعز وأغلى من كل شيء مادي..

(١) المدرسة القرآنية، ص ١٢٩.

ولا يجوز إذن أن يستعبد أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية أو شيء مادي.. دور الإنسان في الأرض هو الدور الأول، فهو الذي يغير ويدل في أشكالها وفي ارتباطاتها.. وليست وسائل الإنتاج ولا توزيع الإنتاج هي التي تقود الإنسان وراءها ذليلاً سلبياً كما تصوره المذاهب المادية التي تحقر من دور الإنسان وتصغر، بقدر ما تعظم في دور الآلة وتُكَبَّر^(١) وكل تحريك للحياة ينافي هذا المقصد «الاستخلاف» مكتوب له الفشل، إن لم يكن سبباً في استئراء الفساد والظلم، وضياح الإنسان، وعذابه في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما جميعاً.

ويقوم مفهوم «الاستخلاف»، في تحليلي واستقرائي، على مقولات رئيسة، كل مقولة منها تمثل «قيمة»، و«بعداً إيمانياً»، و«منطقاً للممارسة» يتحكم في «السعي الحضاري» للمسلم، فإذا اتخذها المسلم، وعياً وسعياً، أثرت في طرائق تفكيره وفي حركته وسعيه، مما يجعل هذا المفهوم «الاستخلاف» مختلفاً عن أي مفهوم آخر يُسَيِّر حركة الحياة في الأرض. وهذه المقولات هي:

أولاً: الخلافة الاقتدائية:

فخلافة الإنسان في الأرض ليست خلافة مطلقة، بل هي «خلافة اقتدائية» بالله تعالى، غايتها: تحقيق «مقصد العبادة في الأرض» وفق مراد الله وحده في أمره ونهيهِ، في جميع الأمور دقيقها وجليلها؛ ومن ثم فإن صفاته تعالى من: العدل، والعلم، والقدرة، والرحمة بالمستضعفين، والانتقام من الجبارين.... وكذلك أمره سبحانه في «فهم مقاصد الحياة» و«فقه حركتها ومحركاتها»، و«إقامة الحق والعدل» و«نصرة المستضعفين في الأرض»، و«بث التوحيد

(١) في ظلال القرآن، ١/ ٦٠.

وإخضاع كل سعي في الحياة لما يوجبه» كل ذلك قيم تتحكم في مجتمع الخلافة، وأهداف للإنسان الخليفة، ينبغي له تحقيقها، وأن يخضع لها في تعامله مع الخالق، وفي تعامله مع الخلق؛ وفي هذا المعنى يقول الإمام الشاطبي: «فالمللوب منه (أي: الإنسان الخليفة) أن يكون قائماً مقام من استخلفه يُجري أحكامه ومقاصده مجاريها»^(١)، وهذا يقتضي أن يكون المسلم في سعيه الحضاري لقيادة الكون، وإعمار اجتماعياً وطبيعياً، محكوماً بقيم (الاستخلاف) التي توظف الإنسان بفلسفة تكريمٍ كليةٍ مستوعبة، والكون والطبيعة بفلسفة تسخير وإعمارٍ لخير الإنسانية.

فالإنسان، في تحريكه للحياة، ليس مخوَّلاً أن يتحرك فيها بهواه، الذي كثيراً ما يجمع إلى الفساد، أو باجتهاد منفصل عن توجيه الله الذي استخلفه واسترعا، بل «يكون في كل منشط مادي أو معنوي متجهاً إلى الله تعالى، يستجلي مراده ويتحرره، ويتغنى مرضاته، ويَجِدُّ في الفوز بها. وهذا المعنى تكون حركة الإنسان على الأرض، في كل اتجاهاتها الفردية والجماعية، المادية والمعنوية، حركة عبادة لله تعالى... إن هذا المعنى يعطي إذن للتحضر الإسلامي بعداً خاصاً به، يميزه عن سائر أنماط التحضر الأخرى؛ إذ هو يدرجه جملة في إطار العبودية لله، فهو، إذن، في كل عناصره ومظاهره، مسيرة نحو الله تعالى، وهو تبعاً لذلك يقاس في ارتفاعه وهبوطه بمقياس الاقتراب من الله والبعد منه.. ولا نعلم أن حضارة أخرى تشارك الحضارة الإسلامية في هذا المعنى»^(٢).

(١) الموافقات، ٣٣٢/٢.

(٢) عبد المجيد النجار، الشهود الحضاري للامة الإسلامية: فقه للتحضر الإسلامي، ط١ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٩م) ٥٢/١.

ومعنى ذلك: أن العمران وبناء الكيان الحضاري يستمد قواعده الإيمانية الأخلاقية، والثقافية العرفانية، والجمالية الفنية، والتقنية المادية من هذه الرؤية الكلية الثابتة؛ فالله عز وجل، في البناء الحضاري الإسلامي، هو هدف الإنسانية جميعها، وغاية لتحركها الحضاري الصالح على الأرض، تسير بالمعاناة والجهاد إليه سبحانه، محاولة، في سعيها، التخلق بمعاني أسمائه وصفاته^(١)، والتحلي بكمالهما على قدر الإمكان^(٢)؛ باعتبارها قيماً تتحكم في مجتمع الخلافة، وأهدافاً للإنسان الخليفة - وكلما اقترب خطوة نحو هذا الهدف، وحقق شيئاً منه انفتحت أمامه آفاق أرحب، وازداد عزيمة وجذوة لمواصلة الطريق؛ لأن الإنسان المحدود لا يمكن أن يصل إلى الله المطلق، ولكنه كلما توغل في الطريق إليه اهتدى إلى جديد، وامتد به السبيل سعياً نحو المزيد، في شعور دائم بالافتقار إلى الخالق على أن يلاقه، فلا يرى شيئاً إلا ويرى الحق فيه، ولا يعرف شيئاً إلا ويعرفه به، مما يمد الحركة الحضارية للإنسان بوقود لا ينفد، وهي تسير في طريق: أوله «الله سبحانه» المحيي، وآخره «الله سبحانه» المميت.

(١) يعبر عن ذلك بعض المتصوفة بمصطلح: «التخلق بأخلاق الله» مستلين بما روي من أثر: «تخلقوا بأخلاق الله تعالى» وهو أثر باطل، كما قال ابن القيم في مدارج السالكين، ٢٤١/٣. ويروي قريباً منه: «إن الله تعالى مائة خلق من أتى بواحد منها دخل الجنة»، ينظر: عمدة القاري، ١٢٥/١؛ وكنز العمال، ٣٣/١؛ وفيض القدير، ٤٨٢/٢، وهو حديث ضعيف، ينظر: الكامل في ضعفاء الرجال، ٢٩٧/٥؛ وجاء في علل الدارقطني، ٣٨/٣: أنه «غير ثابت».

(٢) انظر: الإمام أبو حامد الغزالي (المقصد الأسنى، ص ٤٥-٤٦) حيث تحدث عن حظوظ المقربين من معاني أسماء الله تعالى.

ثانياً: السعي الحي^(١):

والمراد بـ«السعي الحي»، في الأداء الحضاري، كل سعي في الكون موجهاً بقصد التعرف على المكوّن أفعالاً وأوصافاً، حريصاً على «التوفيق الإلهي» و«العون الرباني»، متخذاً «المنظومة القيمية الإيمانية» وسيلة، فيصل العلم بالأخلاق، والعقل بالغيب، والدنيا بالآخرة، وصلاً حقيقياً، في عبودية شاملة لله تعالى، وهذا ما وضحه النبي ﷺ لصحابته رضوان الله عليهم أجمعين، حينما مر عليهم رجل، فرأوا من «جلده ونشاطه، فقالوا يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟! فقال رسول الله ﷺ: إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياءً ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان»^(٢)، وهو مقتضى قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء: ١٩).

وهذا السعي الحي يعد ضابطاً أساسياً من ضوابط الحضارة؛ لاستمرارها في عطاء لا ينضب، وفاعلية لا تموت، فهو يضبط حركة الحياة، ويحافظ على

(١) «السعي الحي» هو نتيجة «لاستجابة الفاعلة» لأمر الوحي قرأنا وسنة، وهذا المفهوم مستفاد من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤) فكل سعي يرتبط بالله ورسوله، وتتصل فيه الحياة بالدين، وتتأكد معه هيمنة الشرعة والارتباط بأحكامها، لهو سعي يحيي ويحيا به الإنسان.

(٢) الحديث من رواية كعب بن عجرة، قال الهيثمي في مجمع الزوائد، ٣٢٥/٤: «رواه الطبراني في الثلاثة، ورجال الكبير رجال الصحيح» وروى نحوه البيهقي في سننه الكبرى.

دعومتها واستمرارها؛ بما يضيفه على حركة الإنسان من غائية وقصد؛ إذ يوسع الإنسان من نظرته إلى الحياة، فلا يقصرها على الدنيا، وملذاتها المادية، بل يجعل وراءها حياة أوسع وأبقى، لا عناء فيها ولا شقاء هي: «الآخرة» وارتباطها بإيثار مرضاة الله تعالى؛ مما يفرض على الإنسان نظرة أعمق وأشمل إلى مصالحه ومنافعه، فتتعدل في حساباته المصالح كلها، وتتوازن في مفاهيمه القيم الفردية والاجتماعية، قيم المادة وقيم الروح، ويجعل - بمقاييس مرضاة الله - من الخسارة العاجلة لبعض حقوقه وحرياته الظاهرة ربماً حقيقياً في هذه النظرة العميقة، ومن الأرباح العاجلة خسارة حقيقية في نهاية المطاف، مادام كل عمل ونشاط في الحياة الدنيا يُعوّض عنه بأعظم العوض وأجلّه في الآخرة، وهو ما يوضحه قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ (الإسراء: ١٨-١٩)

فالعبد لا يزال راجعاً على ربه أفضل مما قدم له، وذلك على قاعدة: «من ترك شيئاً لله أعاضه الله خيراً منه» والتي جاء تأصيلها في حديث رسول الله ﷺ في مسند الإمام أحمد من حديث أبي قتادة وأبي الدهماني، قالاً: «أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقُلْنَا: هَلْ سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئاً؟ قَالَ: نَعَمْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تَدَعْ شَيْئاً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا بَدَّلَكَ اللَّهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ»^(١)، وهذا لا يتحقق في ظل أي فهم مادي لقيم الحياة، بل لا يتحقق

(١) مسند الإمام أحمد، ٣٦٣/٥، حديث رقم: ٢٣١٢٤.

إلا في ظل الإسلام الذي يربي في المسلم قيم: «التقوى» و«الورع» و«الإيثار» و«تصحيح النوايا» و«الاتصاف من النفس» و«تعميق الحساسية الإيمانية».

وهذا «السعي الحثيث» في البناء الحضاري الإسلامي، مغاير لطبيعة السعي في النمط الغربي، طِبِّي الْمُنْتَبِ، الْمُنْتَبِ عَنْ اللَّهِ غَايَةً لَهُ، وَعَنْ مِنْهَجِهِ وَسِيلَةً، فَإِنْ آفَاقُهُ أَصْبَحَتْ مَحْدُودَةً بِمَحْدُودِ مَنْبَتِهِ الْمَادِيِّ؛ حَيْثُ يَقُومُ عَلَى «التَّحْكُمِ فِي الظَّوَاهِرِ» و«قَلْبِ الْمَفَاهِيمِ» و«إِشْبَاعِ الرِّغْبَاتِ وَالْمَلَذَاتِ» و«التَّنَقُّلِ فِي مَرَاتِبِ الْمَادَّةِ» و«الانْقِطَاعِ عَنِ الْخَالِقِ» و«الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ» و«بُخْسِ النَّاسِ أَشْيَاءَهُمْ» و«الإِخْلَادَ إِلَى الْأَرْضِ» وَهِيَ أُمُورٌ لَا امْتِدَادَ فِيهَا، حَتَّى نَسْتَطِيعَ أَنْ نَسْمِيَ السَّعْيَ إِلَيْهَا بـ «السَّعْيِ الْمَيْتِ»^(١)؛ فَالْسَّاعِي فِيهَا إِمَّا سَاعٌ إِلَى هَلَاكِ، وَإِمَّا إِلَى جُمُودٍ، فَيَكُونُ كَالْمَيْتِ الْمَقْبُورِ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْمُنْخَرِطِينَ فِيهِ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَشْعُرُوا بِأَنْ مَشْرُوعَهُمْ قَدْ وَصَلَ إِلَى سَقْفِهِ، وَانْهَ اسْتِنْفَادَ أَغْرَاضِهِ، فَتَنْتَهِي الْأَمَالُ لَانْتِهَاءِ الْغَايَةِ، وَيَنْفَدُ الْوُقُودُ الْمَحْرُوكُ لِلْحَيَاةِ فَلَا يَبْقَى، إِذَنْ، إِلَّا «الْقَلَقُ» وَ«الْهَمُّ» وَ«الْيَأْسُ مِنَ الْحَيَاةِ» وَ«ضِيَاعُ الْمَعْنَى لِكُلِّ شَيْءٍ»، وَيَطْلُقُ عَلَى هَذَا اللَّوْنِ مِنَ السَّعْيِ فِي الْمَنْظُورِ الْإِسْلَامِيِّ: «زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» إِذْ سُرْعَانِ مَا تَنْقَلِبُ عَلَى أَصْحَابِهَا وَبِالْأَوْشَقَاءِ^(٢)، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿الْأَمْوَالُ وَالْأَنْفُسُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف: ٤٦) وَيَقُولُ

(١) اسْتِدَادًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِنِّي فَأَخَذْنَاهُ وَجْظُنَا لَهُ نُورًا يَمُشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ...﴾ (الأنعام: ١٢٢).

(٢) يَقُولُ غَارُودِي: «الْعِلْمُ وَالتَّقْنِيَّاتُ وَسَائِلُ مَدَهْشَةٍ فِي خِدْمَةِ غَايَاتٍ إِنْسَانِيَّةٍ، لَكِنْ «عُلَمَاءُ» مَا، وَأَعْنِي بِهِ تَنْظِيمًا لِلْوَسَائِلِ، مُنْفَصِلًا عَنْ حِكْمَةِ مَا، أَيْ: عَنْ تَأَمُّلِ فِي الْغَايَاتِ، يَصْبِحُ أَدَاةً تَدْمِيرِيَّةً لِلْإِنْسَانِ»، وَعُودَ الْإِسْلَامِ، ص ١١١.

سبحانه: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا رَبُّ عَلَيْهِمْ أَنْهَاءً أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْرَبْ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس: ٢٤)، كما يطلق عليه: «المعيشة الضنك»، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَيَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ (طه: ١٢٤)، فالإنسان، في هذا اللون من السعي - «السعي الميت» المحتلب لـ «زينة الحياة الدنيا» و«المعيشة الضنك» - يفقد قيمه كلها، وسعيًا وراء «مثله الأعلى» الذي اشتقه من طموحه المحدود، ونظراته القاصرة، فكان «الضياغ» و«التيه»^(١)، يقول رسول الله ﷺ في مقارنة دقيقة بين هذين النمطين من السعي: «من كانت الآخرة همّة جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا همّة جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأت من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له»^(٢)، وهذا معنى قوله:

(١) فالمستعرض لأي القرآن الكريم، يدرك أن الأمة التي تتخذ «مثلا الأعلى» من «الطموح المحدود» و«النظرة المستقبلية القاصرة» تمر بمراحل أربع، أولها: مرحلة فاعلية هذا المثل، والمرحلة الثانية: حين يستنفذ هذا المثل طاقته وقدرته على العطاء، يتحول إلى تمثال، ويتحول أصحابه إلى سادة وكبراء لا إلى قادة، ويتحول الجمهور إلى مطيعين منقادين لا إلى مشاركين في الإبداع والتطوير، والمرحلة الثالثة: مرحلة الامتداد التاريخي لهؤلاء، والمرحلة الأخيرة: أن تفقد الأمة ولاءها لمتلها الأعلى، ويسيطر عليها مجرموها، وتعيش في تيه لا تستطيع الخروج منه، ينظر: محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ص ١٤٣ وما بعدها.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه من حديث أنس بن مالك ر. (سنن الترمذي، ٦٤٢/٤، حديث رقم: ٢٤٦٥).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (الشورى: ٢٠) وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨) والوصول إلى ذلك «لا يمكن إلا بأن يستضيء العقل بنور الشرع، معتمداً على من له الخلق والأمر»^(١).

ثالثاً: الحركة المسؤولة:

فإذا كانت الخلافة - في مفهومها الشامل والمتوازن - تعني: تعمير الدنيا وفق سنن الله ومنهجه، وتمكين الإنسان من التمتع بجميع خيرات الأرض، كما تعني: قدرة الإنسان على اختيار سلوكه بنفسه، فلها بهذا المعنى مصحوبة بالمسؤولية، بل مؤسسة عليها، «مسؤولية» ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ ﴿(القيامة: ١٤-١٥) فـ«الاستخلاف» الذي هو منهج رباني في «تحريك الحياة» لن تكتمل فعاليته إلا إذا استشعر الإنسان المسؤولية باتجاه الكون والإنسان والحيوان والحياة، وأنه سيجازى على كل حركة يتحركها في الحياة، إما ثواباً وإما عقاباً، يقول رسول الله ﷺ: «دَخَلْتُ امْرَأَةً النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطْتُهَا فَلَمْ تُطْعَمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»^(٢)، ويقول ﷺ أيضاً: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيدَ أَحَدُكُمْ فَسِيلَةً فَإِنْ

(١) تفصيل النشاطين، ص ١٣٩.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، حديث رقم: ٣١٤٠؛ وأخرجه مسلم، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، حديث رقم: ٢٦١٩.

اِسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ، وفي رواية: «فَلْيَغْرِسَهَا»^(١) قال الإمام المناوي في شرح الحديث: «وفيه تنبيه على أن من حق المؤمن ألا يذهب عنه، ولا يزال عن ذهنه، أن عليه من الله عيناً كالقطة، ورقياً مهيماً، وأجلاً قريباً حتى يكون في أوقات خلواته من ربه أهيب، وأحسن احتشاماً، وأوفر تحفظاً منه مع الملأ»^(٢)، ودون ذلك يصبح الالتزام بالشرعة والمنهاج دون ضابط أو مقصد أو غاية.

ولقد صور لنا رسول الله ﷺ مسؤولية العبد عن كل ما يأتيه في هذه الحياة، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، رضي الله عنهما، يقول: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ؛ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَّةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ. قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(٣)، فهذا الحديث بيِّن، كما قال ابن حجر، أن كل مؤمن «مرعئٌ باعتبار، راعٍ باعتبار، حتى ولو لم يكن له أحد كان راعياً لجوارحه وحواسه؛ لأنه يجب عليه أن يقوم بحق الله وحق عباده»^(٤)، وعن

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، من حديث أنس بن مالك، ١٩١/٣٣، حديث رقم: ١٣٠٠٤، والإمام البخاري في الأدب المفرد، ١٨٦/١، حديث رقم: ٤٧٩.

(٢) فيض القدير، ١٢/٢.

(٣) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

(٤) فتح الباري، ٣٨١/٢.

أبي بَرَزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: «قال رسول الله ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمًا عَنَدَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ: عُمْرِهِ فِيمَا أَفْتَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ مَنْ أَيْسَنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَلْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟»^(١). مما يفترض المسؤولية، والإحساس بالواجب، كما جاء في الحديث الآخر: «إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاغٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحْفَظَ أَمْ ضَيَّعَ، حَتَّى يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ»^(٢).

وهذا الشعور العميق بالمسؤولية تجاه الله عز وجل يقتضي:

أولاً: مراعاة قيم الاستخلاف «من جانب الوجود»، وذلك من خلال: التوجه إلى السلوك ومراقبته، مراقبة الذات، ومراقبة الأعمال، فلا ينفك قول الإنسان عن فعله، ولا ينفك علمه بالأشياء عن معرفته بالله، ولا تنفك زيادته في المعرفة عن الإصلاح في الكون؛ إذ يستشعر العبد روح العبادة في كل شيء. ويصبح ملتزماً بالقيم الخلقية والمثل العليا التي يربيه الدين على احترامها، فتتضبط بذلك مطالبه من حقوقه ورغباته، حتى مع مخالفه، مما يحقق له الإصلاح في الدنيا، والفلاح في الآخرة، والأمن والاستقرار لمجتمعه.

وثانياً: مراعاة قيم الاستخلاف «من جانب العدم»، وذلك من خلال القيام بكل ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع، ورد انحراف الواقع إلى

(١) أخرجه الترمذي، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، سنن الترمذي، ٦١٢/٤، حديث رقم: ٢٤١٧.

(٢) صحيح ابن حبان، ٣٤٥/١٠، حديث رقم: ٤٤٩٣؛ وسنن النسائي للكرى، ٣٧٤/٥، حديث رقم: ٩١٧٣، قال الإمام المناوي في فيض القدير، ٢٣٨/٢: «وزاد في رواية: فأعدوا للمسئلة جواباً، قالوا: وما جوابها؟ قال: أعمال البر. خرجه بن عدي والطبراني قل ابن حجر: بسند حسن. واستدل به على أن المكلف يؤاخذ بالتقصير في أمر من في حكمه».

المعيار في حدود الطاقة والاستطاعة، عملاً بمقتضى قوله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فليسهه، فإن لم يستطع فليقلبه». وذلك أضعف الإيمان^(١) وهذا يجعل النفس أبداً قلقة متحفزة لبذل جهد مع الباذلين، وفي حالة الاستنفار والاستعداد للدفاع عن كل حركة في الحياة، بنفي العبث عنها، والقضاء على التحيز الأعمى للمصلحة الخاصة، وتستبسل في سبيل ذلك، بل وتزيع عن طريقها كل سعي لا يتفق وشرط «الاستخلاف» بحكم الإنسان في ذلك «منطق ركاب السفينة» في المثال الرائع الذي ضربه النبي ﷺ في تحمل المسؤولية، فعن الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ لَجُوا وَكَلَجُوا جَمِيعًا»^(٢).

وثالثاً: تحرير الإنسان من الانشداد إلى الدنيا وزينتها؛ إذ إن مراعاة قيم «الاستخلاف» وما يتأسس عليها من معانٍ إيمانية، وما تدعو إليه من إقامة الحق والعدل، وتحمل مشاق البناء الصالح «بحاجة إلى دوافع تنبع من الشعور بالمسؤولية والإحساس بالواجب، وهذه الدوافع تواجه دائماً عقبة تحول دون

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الشركة.

تكونها أو نحوها، وهذه العقبة هي الانشداد إلى الدنيا وزينتها والتعلق بالحياة على هذه الأرض مهما كان شكلها؛ فإن هذا الانشداد والتعلق يجمد الإنسان في كثير من الأحيان، ويوقف مساهمته في عملية البناء الصالح؛ لأن المساهمة في كل بناء كبير تعني كثيراً من ألوان الجهد والعطاء، وأشكالاً من التضحية والأذى في سبيل الواجب، وتحملًا شجاعاً للحرمان من أجل سعادة الجماعة البشرية ورفائها، وليس بإمكان الإنسان المشدود إلى زخارف الدنيا والمتعلق بأهداب الحياة الأرضية أن يتنازل عن هذه الطيبات الرخيصة، ويخرج عن نطاق همومه اليومية الصغيرة إلى هموم البناء الكبيرة؛ فلا بد لكي تجند طاقات كل فرد للبناء الكبير من تركيب عقائدي له أخلاقية خاصة تربي الفرد على أن يكون: سيداً للعالم لا عبداً لها، ومالكاً للطيبات لا مملوكاً لها، ومتطلعاً إلى حياة أوسع وأغنى من حياة الأرض، ومؤمناً بأن التضحية بأي شيء على الأرض لا قيمة له تحضير بالنسبة إلى تلك الحياة التي أعدها الله للمتقين من عباده»^(١).

ومن ثم كان الإسلام حريصاً على تحرير الإنسان من الخضوع لأي أمر أو منهج غير منهج الله في أمره ونهيه، فالإنسان في المنظور الإسلامي، كما يقول ابن خلدون «رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له، والرئيس إذا غلب على رئاسته، وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه، وري كبده»^(٢)، كما كان الإسلام حريصاً على بيان منزلة الدنيا من

(١) منابع القوة في الدولة الإسلامية، ص ٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ١/ ١٤٨.

الآخرة، وأن أحوال الدنيا ترجع كلها، عند الخالق، على اعتبارها بمصالح الآخرة، وتعميق ذلك في وعي المسلم؛ ليعلم أن ما يفوته من لذات الدنيا لا نسبة له إلى ما يفوته في الآخرة من النعيم، حيث إن الآخرة هي الجزء الحقيقي والحياة الحقيقية، وكل سعي في الدنيا إنما هو سعي للحصول على الجزء الحقيقي في الآخرة، أو بعبارة أدق: سعي ممتد، يصل ما بين الحياة الدنيا والآخرة، وأي سعي يخالف ذلك- بأن غملاً الدنيا شغاف قلب العبد، وتستقطب وجدانه بحيث لا يشغله عنها شيء، ولا نظر إلى غيرها- هو سعي لا قيمة له عند خالق الحياة والأحياء، ﴿قَدْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤)، يقول سيد قطب: «وهكذا يجمع في آية واحدة جميع اللذائذ، والمطامح، والرغائب، ونقط الضعف في نفس الإنسان؛ ليضعها في كفة، ويضع في الكفة الأخرى حُبَّ الله ورسوله، وحُبَّ الجهاد في سبيله؛ لتكون التوضيحية كاملة، والتخلص من أوهاق-أحبال- الشهوات كاملاً؛ فالنفس التي تتحرر من هذا كله، هي النفس، التي يطلبها الإسلام، ويدعو إلى تكوينها، لتستعلي على الضراوة المذلة، وتملك قيادها وأمرها، وتنزع إلى ما هو أكبر وأبعد مدى من الرغبات الوقتية الصغيرة»^(١).

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص ٤٢.

ويوضح ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هُمْ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، وَمَنْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، وَمَنْ لَمْ يَهْتَمَّ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَةً فَلَيْسَ مِنْهُمْ»^(١)، كما يوضح ﷺ في حديث آخر أن «حُبُّ الدُّنْيَا» هو «الْوَهْنُ» الذي يمنع من «فاعلية الأمة» ويقلص من «شهودها الحضاري» ويعطيها: «قابلية للاستخفاف والطاعة»، فيقول ﷺ: «يُوشِكُ الْأَمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةِ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ كُنْتُمْ غَنَاءَ كَفْتَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ». فقال قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وما الْوَهْنُ؟ قال: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»^(٢).

فالمسلم لابد من أن تكون همته مرتبطة بالله، وبعطائه في الآخرة، ويتحانس مع آداب الإيمان، ويصبر على الشدة المصاحبة لذلك؛ حتى يستطيع أن يتحرر من مغريات الأرض، وأن «يحرك الحياة» لصالح الإسلام وفق منهجية «الاستخلاف»، فلا يُرى البتة إلا وهو يقطع مرحلة من مراحل الخلافة في

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، من حديث حذيفةؓ، كتاب الرقاق، ٣٥٢/٤، حديث رقم: ٧٨٨٩؛ وقد أورد نحوه الطبراني في الأوسط: «عن أبي ذر قال: قال النبي: من أصبح وهمه الدنيا فليس من الله في شيء، ومن لم يهتم بالمسلمين فليس منهم، ومن أعطى النذل من نفسه طائعا غير مكره فليس منا» قال الطبراني: «لا يروى هذا الحديث إلا بهذا الإسناد تفرد به يزيد بن ربيعة»، المعجم الأوسط، ١٥١/١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، ١١١/٤، حديث رقم: ٤٢٩٧؛ وأورد نحوه الإمام أحمد في المسند، ٢٧٨/٥؛ والطبراني في المعجم الكبير، ١٠٢/٢.

الأرض، والتعمير فيها، محققاً قول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج: ٤١).

فهذه المقولات: «الخلافة الاقتدائية»، و«السعي الحثي في تحريك الحياة»، و«الحركة المسؤولة» تعطي لمفهوم «الاستخلاف» ذاتيته ودلالاته الكاملة، كما أنها تضع «الحدود الفاصلة بين الوضع الذي يمكن أن يطلق عليه مفهوم «الاستخلاف» وذلك الوضع المفارق له، والذي يطلق عليه -طبقاً لمعطيات مفهوم الاستخلاف- الجاهلية»^(١)، بالإضافة إلى أنها تبرز الفارق الكبير بين القيم التي تتحكم في سعي الإنسان في المنظور الحضاري الغربي (الأنجلو-أمريكي) «قيم الهيمنة والإذعان» حيث «الأصولية المادية» المجردة، المنقطعة عن «الغيب» و«قيم الوحي» في التوجيه والهداية، وبين قيم السعي في المنظور الحضاري الإسلامي، «قيم الاستخلاف» حيث الارتباط في كل سعي بقيم الوحي، فينظر الإنسان إلى السماء قبل أن ينظر إلى الأرض، ويؤخذ بعالم الغيب لاكتشاف عالم المادة والحس.

ففي إطار هذه المقولات الثلاثة يُعد «الاستخلاف» قيمة محورية تتحكم في السعي الحضاري للمسلم، وتحقق الاتساق بين «الفعل البشري» و«المقصد

(١) نصر محمد عارف، نظريات التنمية السياسية المعاصرة.. دراسة نقدية مقارنة في ضوء المنظور الحضاري الإسلامي، ط ١ (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ص ٢٥٥.

الإلهي» من وجود الكون، بحيث تكون جميع فعاليات الكون متوجهة إلى الله، منضبطة بمعيار الدين، وعاملة على «مقتضى الشرع الإلهي»: كيف هو عند أمر الله ونهيه؟ وكل ذلك ينتج عنه أن المسلم في سعيه الحلي للبناء الحضاري، يحصل على «المعية الإلهية» التي تعني: «التوفيق الإلهي» في صحة المقاصد، و«العون الرباني» في نجاعة الوسائل، مما يعينه على تنفيذ مراد الله في الأرض، وإجراء أحكامه فيها، ائتماراً بما أمر وانتهاء عما نهى، فيستحق وصف «الخليفة» كما ورد عن رسول الله ﷺ فيما رواه ثوبان: «مَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، فَهُوَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، وَخَلِيفَةُ كِتَابِهِ، وَخَلِيفَةُ رَسُولِهِ»^(١).

(١) أورده صاحب كنز العمال، ٣/٣٥، حديث رقم: ٥٥٦٤، وقد أورده ابن عدي، في كتابه: الكامل في ضعفاء الرجال، ٦/٨٤، من حديث كادح بن رحمة القرني، ثم قال: «عامّة ما يرويه غير محفوظة، ولا يتابع عليه في أسانيده ولا في متنونه، ويشبه حديثه حديث الصالحين فإن أحاديثهم يقع فيها ما لا يتابعهم عليه أحد».

الفصل الثاني

التزكية وترسيخ الذات الإنسانية

مفهوم التزكية ومحوريتها في مجتمع الاستخلاف:

«التزكية» من أصول القيم الحضارية في الإسلام التي يجب تعزيز الوعي بها؛ إذ إنها تمثل «كليات مرجعية» تعصم الفعل الحضاري للإنسان من الطغيان والاستكبار في الأرض، كما أنها تحمي الحضارات من الزوال السريع، والأفول المحتوم، وهي أولى الوسيلتين في عملية التغيير، وإنشاء مجتمع «الاستخلاف»^(١)، وأهمهما على الإطلاق؛ لأنها تمثل «منهجية» إسلامية في ترقية الذات الإنسانية وترسيخها، من خلال تربية الإنسان المنوط به أمر الخلافة في الأرض، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، فبتزكية النفس يتم تزكية الواقع، ومن ثم يعد التغيير الداخلي مقدمة ضرورية للتغيير الخارجي^(٢)، الذي ينعكس على سعي الإنسان في «تحريك للحياة» وفق مراد الله في أمره ونهيه، فبحركة الإنسان الداخلية، من خلال حريته الملتزمة، يتحرك التاريخ، ويتطور الزمن، وتتغير مظاهر الحياة، ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (النجم: ٣٩-٤١)؛

(١) الوسيلة الثانية، هي: «الاستقامة والاستعمار الإيماني للأرض» وعلى بيانها يعتقد الفصل الثالث من هذا البحث. وهذا يؤكد ما ذكرته من قبل من أن منظومة المفاهيم الإسلامية، تمثل وحدة مترابطة، يشد بعضها بعضاً في تعالق وتكامل، ولا يمكن الوقوف فيها على حقيقة المفهوم كاملاً إلا بالنظر فيما يتعالق معه، ويتفاعل من مفاهيم أخرى.

(٢) يقول المفكر الفرنسي غارودي: «كل ثورة مآلها الإخفاق إذا تطلع الإنسان إلى تغيير كل شيء إلا تغيير نفسه!!» وعود الإسلام، ص ٨٣.

ومن ثم نستطيع القول: إن الحضارة الإسلامية «حضارة إنسانية» تعتمد على «حركة الإنسان» المهتدي بهدايات الخالق العظيم، وهي حركة في اتجاهين متوازنين متكاملين، حركة في داخل الإنسان نفسه من أجل تنميته وتطهيره والصعود به في مراتب الكمال ومدارج الخير، وحركة في الأرض والطبيعة لاستثمارهما والتفاعل معهما، بعيداً عن الرؤية الصادرة عن المادة، والتي تجعل الإنسان سلعة خاضعة لمقاييس الاستخدام والاستغلال، في دنيا منفصلة عن آخره.

ولأهمية هذه «التزكية» في التغيير، والفعل الحضاري للإنسان الخليفة، وجدنا الأحكام المكية، على حد تعبير الإمام الشاطبي: «مبنية على الإنصاف من النفس، وبذل المجهود في الامتثال بالنسبة إلى حقوق الله، أو حقوق الآدميين»^(١) إذ كان ذلك، في بداية الإسلام، مطلباً أساسياً لبناء الإنسان الخليفة، ومقصداً ضرورياً من مقاصد الشريعة ذاتها، بل هي ركن من الأركان الأربعة التي بعث النبي الأعظم ﷺ لتحقيقها وتكميلها، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢)؛ ولهذا عقد الإمام الراغب مبحثاً في كتابه الذريعة إلى مكارم الشريعة^(٢)، بعنوان: «كون طهارة النفس شرطاً في صحة خلافة الله تعالى وكمال عبادته» قال فيه: «لا يصلح لخلافة الله تعالى، ولا يكمل لعبادته، وعمارة أرضه، إلا من كان طاهر النفس، قد أزيل رجسه ونجسه؛ فللنفس نجاسة، كما أن للبدن نجاسة.. إنما لم يصلح لخلافة الله تعالى إلا من كان طاهر النفس؛ لأن الخلافة هي الاقتداء به على قدر طاقة

(١) الموافقات، ٤/٢٣٦.

(٢) ص ٨٦.




البشر في تحري الأفعال الإلهية، ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر القول والفعل، فكل إناء بالذي فيه ينضح»، وهذا معناه: أن القيم التي تحقق مقصود الخلافة للأمة، وتحقق تقدمها هي تلك القيم التي تزكي الإنسان، وتزيد في تخلقه، ولا يجوز استبعاد ذلك في أي بناء حضاري؛ ومن ثم لا أبعد إذا قلت: إن الشريعة بأحكامها وتكويناتها المختلفة ومطلوباتها ليست إلا قيماً جوهرية، وأن هذه القيم، في مجملها، راجعة إلى تزكية الإنسان في تعاملاته مع نفسه، وتعاملاته مع غيره، على وفق مقتضى قوله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١) ومن ثم كان المسلم مطالباً في سعيه الحضاري «دائماً أن يمارس عملية العكوف على الذات؛ لتربيتها على أمر الله، وأخذها بشرع الله، ولا نعني بذلك ضرباً من السلبية، والهروب من الحياة، وفقدان التوازن الاجتماعي، وذلك بالانسحاب من المجتمع، والانقطاع إلى الرياضيات الروحية في الكهوف والجبال، وممارسة الزهد الأعجمي بترك التعامل مع الحياة، وإنما نرى أن ميدان الذات وتزكيتها أكبر من ذلك بكثير، إنه الحياة بكل ما فيها من جوانب الخير والشر، إنما التربية الميدانية التي لا تتم إلا من خلال الممارسة والمعايشة الاجتماعية، والمعاونة اليومية والتحديات المحيطة، واستشعار هذه التحديات، وعدم الذوبان والسقوط أمامها، وإنما الصلابة والاستيعاب وحسن المواجهة، وإن اختلفت فيها مساحة الكر والفر حسب الظروف ومقتضى الحال، ذلك أن التربية الذاتية، أو العكوف على تربية الذات بهذا المعنى، هو الذي تفرد به الإسلام عن سائر الأديان، بزهدا ورهبانيتها وسليباتها»^(٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) عمر عبيد حسنه، نظرات في مسيرة العمل الإسلامي، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص ٨١.

بناء المفهوم:

«التزكية» في البناء الحضاري الإسلامي، مفهوم يستجمع معاني: «النمو» و«الخيرية» معاً، يقول الإمام الراغب مبيناً معنى «تزكية النفس»: «تنميتها بالخيرات والبركات»^(١)، فهو مفهوم ذو أبعاد قيمية تقوم على أمرين: أولهما: «التطهير»، أو «التخلية» للنفس من كل عوارض القدح، ونوازع الشر، وشوائب الكلاله، التي تتعاور عليها؛ وثانيهما: «التريخ»^(٢)، أو «التحلية» بكل ما فيه «صفاء» النفس، و«بركتها» و«صلاحها»^(٣).

فالتزكية تخلية (من الرذائل) وتخلية (بالفضائل) بما يستوجب للنفس الصلاح في الدنيا، والفلاح في الآخرة، فاختار لها ما به كمالها، ودفع الرذائل عنها، ويقابلها مفهوم «التدسية» القائم على «الخفاء» و«الإغواء» و«الإفساد» للنفس بما يستوجب لها الخيبة في الدنيا، والخسران في الآخرة، ويجمع المفهومين قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾  ﴿فَأَلَمَتْهَا جُؤْرَهَا وَتَقْوَاهَا﴾  ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾  ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٧-١٠).

وبالرجوع إلى الدلالات الأصلية لمفهوم «التزكية»^(٤) نجدده قائماً على مجموعة من الدلالات، نجملها فيما يأتي:

(١) المفردات، ص ٢١٣.

(٢) هناك عدة مفاهيم أخرى، تدل على مفهوم «التزكية» وتتعلو معه في الدلالة على «التطهير» و«التريخ» في المنظومة الإسلامية، أشهرها لثان، هما:

الأول: «المجاهدة» أو «الجهاد الأخلاقي» بمعنى: استقراغ الوسع والجهد في ترقية الذات، تعاملًا مع النفس، وتعاملًا مع الغير، والصعود بها إلى مراتب الخير، والوقوف بها ضد نوازع الشر، فطر: ابن القيم، مدارج السالكين، ٢/ ٤ وابن حجر، فتح الباري، ٣٢٨/١١.

الثاني: «سياسة النفس» بمعنى: القيام على النفس بما يصلحها، فطر: الراغب، الذريعة، ص ٨٤.

(٣) أجمع ما رأيت في هذا، كلام الراغب، رحمه الله تعالى، في كتابه المفردات، ص ٢١٣، فقد ذكر أن: أصل الزكاة: لنمو الحاصل عن بركة الله عز وجل، ويعتبر ذلك بالأمور التنبوية والأخروية...

١- أن «التزكية» بمفهومها الإسلامي متعلقة بـ«التكريم» الذي جعلت منه الشريعة الإسلامية أمراً إلهياً لا يرد عليه النقض، ولا تطوله عناصر الاختيار في التهاون فيه، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي آدَارِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٠)، فبمقتضى التكريم الواجب للإنسان عليه أن يسعى ليزكي نفسه، ويرتقي بها، ويظهرها من كل عوارض القبح التي تتنافى ومقتضيات هذا التكريم، أو تسلخ به عن حقيقته الإنسانية، فعليه «أن يفعل الفعل الحضاري بما يقتضيه ذلك التكريم المرتبط به لا انفصام له، والتكريم حركة فاعلة تجعل الإنسان سيداً في الكون بفعله وتفاعله وتفعيله، لا عليه بالقهر والسيطرة في حركة غاضبة أو طاغية مستكبرة، هي على الضد من المقصود بالتكريم؛ فالتكريم حالة إنسانية ليست بالطغيان، أو الاستكبار، وليست بالإذعان والخنوع والذل، وليست بالتهور أو الطيش أو الهوى المحض، إنما حركة واعية فاعلة ذات بصيرة تفعل كل ما يقتضي زيادة تكريمها وكرامتها، دون إفراط يحدث حالة نوعية إنسانية أخرى تسم بالطغيان والكبر والبطر، أو تفريط يحدث حالة من عقلية قطيع لا تعرف من سلوك سوى الإذعان... وفقدان التكريم هو بداية لفقد الإنسان ذاته، بل هو فقد لكل قيمة إنسانية يكون مدارها الاستخلاف، فإن قيم القوة والغطرسة تفقد الإنسان كل قيمة حقيقية وجوهرية في حق الذات والغير معاً، وقيم الهوان والوهن تفقد الإنسان، كذلك، كل قيمة حقيقية وجوهرية في حق الذات والغير معاً»^(١).

(١) سيف الدين عبد الفتاح، العلاقات الدولية في الإسلام، مدخل القيم، ص ١٤٢.

٢- أن «التزكية» تنبع من الذات الإنسانية، بل هي التي تظهرها -بخلاف «التدسية» التي تخفي حقيقة الذات الإنسانية- حيث يسعى الإنسان إلى تطهير نفسه من عوارض القلح، وترقية كيانه، وإصلاح وجوده الإنساني. فهو مفهوم يدفع الإنسان، في سعيه الحضاري، إلى الالتزام بالقيم النافعة الصالحة، من خلال: «مراعاة حق النفس» فيطهرها، وتصحيح السلوك، أصلاً، ومقصدًا، ووسيلة. والعمل على «مراعاة حق الغير» إنساناً وحيواناً ونباتاً وجماداً، فيتأدب معه، دافعاً عن نفسه كل القيم التي تفسد وجوده، ولا تتفق ومقتضيات ذاته الإنسانية، مما يؤكد تمايز النظرة الإسلامية للإنسان عنها في النموذج الغربي «الأعمى، الذي لا مقصدية إنسانية له» على حد قول غارودي^(١) فالإنسان، في المنظور الإسلامي، بلا تزكية كلا إنسان، والأمة بلا تزكية كلا أمة!!

٣- أن «التزكية» عملية متجددة، دائمة، لا تنتهي أبداً؛ ف«التزكية» لا تعني أبداً أن إنساناً ما قد وصل إلى درجة لا منتهى بعدها، أو أنه وصل إلى الغاية القصوى في تطهير نفسه - بخلاف النموذج الإنساني الأكمل ﷺ - وإنما دلالات «التزكية» و«التطهير»^(٢) تعني: التجدد، والمراجعة، والمراقبة، والتقويم، وهو ما يقتضي جهداً ارتقائياً دائماً في رتب متعددة؛ إذ «التزكية» لا تنفك عن عمل، والعمل لا ينتهي إلا بانتهاء الأجل؛ ومن ثم فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه من تزكية النفس وتطهيرها، فهو دائم التنقل من حال

(١) وعود الإسلام، ص ٨٢.

(٢) فكلاهما من الفعل: «زكى» و«طهر» على وزن «فعل» وهو وزن يدل في العربية على الاستمرار والاستقرار والعمق والرسوخ.

زكي إلى حال أزكى منه، فلا يركن إلى كد، ولا يقف عند حد، حتى يلاقي ربه ﴿يَتَأْتِيَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلْيَقْدِرْ﴾ (الانشقاق: ٦).

٤- أن مفهوم «التزكية» وطبيعة القيم المتعلقة به، ولا يقابله من مفهوم «التدسية» يجعل أمر الإنسان بين يديه؛ فيتحمل تبعه مصير، في الدنيا بالصلاح في عمله، والبركة في سعيه، أو الفساد في عمله، والخيبة في سعيه ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦) كما يتحمل تبعه مصيره في الآخرة ثواباً أو عقاباً، ﴿جَنَّتْ عَدْنٌ يَجْرِي مِز تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾ (طه: ٧٦)، مما يثير في حس الإنسان كل مشاعر اليقظة والتخرج والتقوى، وهو يعلم أن قدر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه، وهي تبعه ثقيلة لا ينبغي أن يغفل صاحبها أو يغفل!

٥- أن «التزكية» بهذا المفهوم تشعر الإنسان بالحاجة الدائمة، في حركة الحياة، للرجوع إلى «الموازين الإلهية»^(١) الثابتة، واستحضارها في سعيه الحضاري، في تعامله مع نفسه، وتعامله مع غيره، فتقتضي التلازم بين «الحق» و«الواجب» بل تعتبر «الحق» قيمة خادمة على الدوام؛ ليظل الإنسان على يقين أن هواه لم يخدمه، ولم يضلله، فلا يقوده الهوى إلى المهلكة، ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل «إلهه هواه»، وبذلك يظل قريباً من الله، يهتدي بهديه،

(١) ويمكن أن نطلق على هذه «الموازين الإلهية» في تربية النفس: «فقه الباطن» وهو الفقه الذي يختص بأعمال القلوب، والذي يأتي معضداً ومكملاً لـ «فقه الظاهر» الذي يختص بأعمال الجوارح.

ويستضيء بالنور الذي أمدّه به في متاهات الطريق، مستبطناً قيم التوحيد والربوبية، ليكون تجانساً وتوافقاً بين اختياراته في «تحريك الحياة» وبين القدر الرباني السائر، ومعنى ذلك: أن «التزكية» في مفهومها الإسلامي لا يمكن أن تتم بعيداً عن الله، أو تتصف بما أية حركة لا تتم وفق مراد الله في أمره ونهيهِ^(١).

فـ«التزكية» بهذه الدلالات، وما هو في معناها، تعدّ بعداً محورياً في عملية التغيير، وإقامة مجتمع «الاستخلاف» حيث التفاعل مع معطيات الله في الكون ومسخراته، وحيث يكون العبد «ربانياً» في الدنيا يعمل من أجل الآخرة، فيحقق «كمال العمارة» في الأرض، ويستحق «الخلافة» عن الله، و«الشهادة» على الخلق، مهتدياً بمنهج الله الموحى إليه، الذي يضبط الفعل الحضاري المتعلق بالإنسان، حقوقاً وواجبات، سعيًا ومسيرة، فكرًا وحركة، وسائلَ وغايات، وذلك من خلال فعل «التزكية» الذي يُعني «مراعاة حق النفس» و«مراعاة حق الغير» ليصل الإنسان إلى درجة الكمال بـ«ترسيخ الذات الإنسانية» فيه، وتفصيل ذلك ما يلي:

أولاً: التزكية بمراعاة حق النفس:

و«التزكية» هنا تقوم على الاجتهاد في تحصيل جملة من الأفعال تتحكم في حركة المسلم في الحياة، تؤدي إلى «تصفية النفس» و«ترقية الذات» و«ترسيخ علاقتها بالله» من خلال: «إخلاص العبودية» و«دوام المراقبة» له، وغير ذلك مما يعرف بـ«أصول مكارم الأخلاق» كما سماها الإمام الشاطبي، ثم قال: «ولم تزل هذه الأصول يندرس العمل بمقتضاها؛ لكثرة الاشتغال بالدنيا،

(١) وبهذا يفترق مفهوم «التزكية» الذي يقدم رؤية إسلامية واضحة لتنمية الإنسان وتطهيره، عن مفهوم «التربية» الذي هو معنى «حيادي» لا يحمل أيًا من هذه المضامين والدلالات.

والتفريع فيها، حتى صارت كالنسي المنسي، وصار طالب العمل بها كالغريب المقصي عن أهله، وهو داخل تحت معنى قوله ﷺ^(١): «بَدْأُ الْإِسْلَامُ غَرِيْباً، وَسَيَعُوْدُ كَمَا بَدْأَ غَرِيْباً، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»^(٢).

وهذه الأصول يمكن إجمالها في ثلاثة، هي:

الأصل الأول: تمام التخلق، حيث الغاية في الالتزام بـ «تحسين الخلق مع الله» بأن تعلم أن كل ما يأتي منك يوجب عذراً، وأن كل ما يأتي منه، سبحانه، يوجب شكراً^(٣)، و«تحسين الخلق مع الخلق» وذلك ببذل المعروف لهم، وكف الأذى عنهم، وهذا يقتضي: «أمن الخلق منك، ومحبة الخلق لك، ونجاة الخلق بك»^(٤)، كما يقتضي أن يكون المسلم دائم السعي «في نفع نفسه، واستقامة حاله بنفع غيره»^(٥).

و«تمام التخلق» على مراتب^(٦) أعلاها: درجة «المروءة» التي تعني: القيام بأمر الله ونهيه، والتقرب إلى الله بأعلى الأخلاق وأشرفها، وجماع ذلك: «حفظ

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، من حديث أبي هريرةؓ، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً، ١/١٣٠، حديث رقم: ١٤٥.

(٢) الموافقات، ٤/٢٣٧، وينظر: الاعتصام، ١/٩٢.

(٣) مدارج السالكين، ٢/٣٢٤.

(٤) المرجع السابق، ٢/٣١٧.

(٥) الموافقات، ٢/١٧٩.

(٦) يرى د. طه عبد الرحمن أن رتب الأخلاق تختلف، فتتزل مراتب أربعة، أدناها مرتبة: «الإنسانية» إذ نل على مجرد قيام خاصية التخلق بالكائن البشري، تليها مرتبة: «الرجولة» التي هي عبارة عن الارتقاء بهذا التخلق درجات، ثم مرتبة: «المروءة» التي هي بلوغ الكمال في الرجولة نفسها، وتعلوها جميعاً مرتبة: «الفقوة» التي هي أشرف الرتب الأخلاقية، ويتصف بها من حازوا مكارم الأخلاق أجمعها، حيث كمال التدين، وكمال القوة، وكمال العمل معاً. ينظر: الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، ط٢ (بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦م) ص ١٧٣-١٨٣.

الدين، وصيانة النفس»^(١)، و«درجة الفتوة» ومعناها «أخلاق الإيثار»، وهي «أن يكون المرء أبداً في أمر غيره لله تعالى»^(٢).

الأصل الثاني: تمام التعقل، أو ما يعرف بـ«حياة العقل»^(٣). بمعنى: ألا يعقل العبد شيئاً إلا وهو يعقله عن الله، وفق أمره ونهيه، فيكون عقله موافقاً للشرع ومقاصده، مخالفاً للهوى ومفاسده، وهو ما يعرف بـ«معقود العقل». فقد روى ابن أبي الدنيا، بسنده عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يعجبكم إسلام امرئ حتى تعرفوا معقود عقله»^(٤).

فهناك فارق، في المنظور الإسلامي، بين عقل يعقل الأشياء عن نفسه، وعقل يعقلها عن ربه، فالثاني هو الذي يهتدي بالله، لا بهواه، إلى معرفة «المقاصد النافعة» واستخدام «الوسائل الناجعة»، يقول الإمام المناوي^(٥): «دين المرء عقله، ومن لا عقل له لا دين له؛ لأن العقل هو الكاشف عن مقادير العبودية، ومحبوب الله ومكروهه، وهو الدليل على الرشد، والناهي عن الغي. وكلما كان حظ العبد من العقل أوفر فسلطان الدلالة فيه أبعد؛ فالعقل من عقل عن الله أمره ونهيه فائتمر بما أمره وانزجر عما نهاه^(٦) فتلك علامة

(١) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ط٤ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ) ١٠/٣٧٦.

(٢) الإمام السيوطي، معجم مقاليد العلوم، تحقيق، د. محمد إبراهيم عبادة، ط١ (القاهرة: مكتبة الأدباء، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤ م) ١/٢٢٠.

(٣) مدارج السالكين، ١/٤٤٧.

(٤) ابن أبي الدنيا، العقل وفضله، تحقيق: لطفي محمد الصغير، ط١ (الرياض: دار الرياسة، ١٤٠٩هـ) ص٣٤.

(٥) فيض القدير، ٣/٥٣٥-٥٣٦.

(٦) حول: «فضل العقل»، انظر الإمام المحاسبي، فهم القرآن ومعانيه، تحقيق: حسين القنولي، ط٢ (بيروت: دار الكندي - دار الفكر، ١٣٩٨هـ) ص٢٤٦؛ وحول مفهوم العقل، في المنظور الإسلامي، وفي المناهج العقلانية المجردة، انظر: طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، ص٧٤.

العقل»، وهذا مقتضى ما جاء عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال له: «يَا غَوِيمِرِ ارْزُدْ عَقْلاً تَزِدْ مِنْ رَبِّكَ قَرَباً. قَالَ: قُلْتُ يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، وَكَيْفَ لِي بِذَلِكَ؟ قَالَ: اجْتَنِبْ مَحَارِمَ اللَّهِ، وَأَدِ فَرَائِضَ اللَّهِ تَكُنْ عَاقِلاً، وَتَنْفُلْ بِالصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ تَزِدْ بِهَا فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا رَفْعَةً وَكَرَامَةً، وَتَنْلُ بِهَا مِنْ رَبِّكَ الْقَرَبَ وَالْعِزَّةَ»^(١)، ولا ترى صاحب عقل متهاوناً بالدين إلا «اسْتِنْقَالاً لِمَا تَضَمَّنَهُ الدِّينُ مِنَ التَّكْلِيفِ، وَاسْتِرْذَالاً لِمَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ مِنَ التَّعْبُدِ وَالتَّوْقِيفِ.. وَلَكِنْ تَرَى ذَلِكَ فَيَمُنْ سَلِمَتْ فِطْنَتُهُ، وَصَحَّتْ رَوِيَّتُهُ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ يَمْنَعُ مِنَ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ هَمَلاً أَوْ سُدىً، يَعْتَمِدُونَ عَلَى آرَائِهِمُ الْمُخْتَلَفَةِ، وَيَتَفَادُونَ لِأَهْوَائِهِمُ الْمُتَشَعِّبَةِ لِمَا تُؤَوِّلُ إِلَيْهِ أُمُورُهُمْ مِنَ الْاِخْتِلَافِ وَالتَّنَازُعِ، وَيُقْضَى إِلَيْهِ أَحْوَالُهُمْ مِنَ التَّبَاطُئِ وَالتَّقَاطُعِ، فَلَمْ يَسْتَغْنُوا عَنْ دِينِ يَتَأَلَّفُونَ بِهِ وَيَتَّفَقُونَ عَلَيْهِ. ثُمَّ الْعَقْلُ مُوجِبٌ لَهُ أَوْ مَانِعٌ وَلَوْ تَصَوَّرَ هَذَا الْمُخْتَلِ التَّصَوُّرَ أَنَّ الدِّينَ ضَرُورَةٌ فِي الْعَقْلِ، وَأَنَّ الْعَقْلَ فِي الدِّينِ أَصْلٌ، لَقَصَرَ عَنْ التَّفْصِيرِ، وَأَذْعَنَ لِلْحَقِّ وَلَكِنْ أَهْمَلْ نَفْسَهُ فَضَلَّ وَأَضَلَّ»^(٢).

فالعقل الكامل هو ما كان مفضياً إلى القرب من الله، تدبراً، وهو ما كان من النظر متجهاً إلى إدراك الغايات والمالات، واعتباراً، وهو ما كان من النظر محققاً للعبور من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المقصدية، من أحكام النظر إلى أسرار العبر. ومتى ما وضعنا هذا في الاعتبار -الربط بين العقل والشرع- عرفنا أن العقل المرتبط بالله هو أتم عقل يمكن أن يمتلكه الإنسان، وبذلك يلزم أن

(١) أخرجه الترمذي في النواذر، بنظر: فيض القدير، ٨٦/١، وزوائد الهيثمي، ٨٠٨/٢، والمطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر، باب العقل وفضله، ١٢/١٢٤.

(٢) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص ٤٥.

تكون عقلانية الإسلام أسمى عقلانية ممكنة، كما يلزم أن يكون عقل المسلم أسمى عقل ممكن، متى اهتدى في حياته بهدي ربه^(١).

الأصل الثالث: تمام التعبد، بمعنى: استحضار العبودية لله في كل شيء، والتدرج في منازل القرب من الحق سبحانه، كما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: «قال رسول الله ﷺ: إِنْ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَى عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَّافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ»^(٢)، فمن تمام التعبد أن يؤمن العبد بوجود الألوهية وراء كل شيء، و«يعلم» أن الحق يخاطبه في كل شيء، وأن هذه المخاطبة مستمرة استمرار الحياة، فحيثما توجه وجد ربه، مراعيًا أمره ونهيه. ويوقن أن رؤية الله له لا تنقطع؛ ومن ثم فهو في كل أعماله مطالب بأن يراقب نفسه، ويراقب ربه، فلا يرى إلا الله سبحانه، ولا يعرف إلا هو، ولا يفر إلا إليه هو، ولا يحيا إلا متوجهاً إليه هو، فيصل إلى مرتبة «الإحسان» التي سئل عنها النبي ﷺ فأجاب: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٣).

ويعين المتعبد على بلوغ تلك المرتبة «تمام التعبد» جملة من أعمال القلوب، أهمها:

(١) سؤال الأخلاق، ص ١٦٢.

(٢) صحيح البخاري (كتاب: الرقاق، باب: التواضع، ٢٣٨٤/٥، حديث رقم: ٦١٣٦).

(٣) سبق تخريجه.

- الإخلاص، وهو «تصفية الفعل». بمعنى: إشهاد الله تعالى على كل فعل يأتي به العبد، وتجريده عن أن يشوبه باعث لغير الله؛ حتى يتولاه بالتسديد، فلا يعرض له الباطل، ولا يدخل عليه الإحباط، وبه تصير أعمال العباد «كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم، ولا هرباً من ذمهم، بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور لا يملكون لهم ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً»^(١)، وهذا مقتضى قوله ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمَنْعَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَحَبُّ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَلْكَحَ لِلَّهِ تَعَالَى، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ»^(٢)، وهذا المفهوم من شأنه أن يخرج كل حركات الإنسان من دائرة العبث إلى دائرة المعنى، ومن اعتبار الشكل إلى اعتبار المضمون، ومن النظر في الأحوال إلى استشراف المالات، كما جاء في حديث أبي أنامة الباهلي، رضي الله عنه قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَرَا يَلْتَمِسُ الْأَجَرَ وَالذِّكْرَ مَالَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا شَيْءَ لَهُ، فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا شَيْءَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصاً وَابْتِغَى بِهِ وَجْهَهُ»^(٣).

(١) المرجع السابق، ٨٣/١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، حديث رقم: ١٥٦٥٥، وأورد نحوه الإمام الترمذي في سننه، ٦٧٠/٤، حديث رقم: ٢٥٢١، وقال: «حديث حسن». وأورده الحاكم في المستدرک، حديث رقم: ٢٦٨٤، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٣) أخرجه الإمام النسائي في سننه، ٢٥/٦، حديث رقم: ٣١٤٠، والطبراني في الأوسط، ٢٥/٢، والكبير، ١٤٠/٨.

- الحياء، هو ضد «الوقاحة» والمراد به: عقل النفس عن الرذيلة، فهو المبدأ الأخلاقي الأبرز، والمقوم الأول، الذي يحفظ علاقات الإنسان في تعامله مع (الآخر) والحقيقة أنه ليس في مكارم الأخلاق خلق يجمع بين «جلب الإيمان بالله» و«درء وصف الوقاحة» في كل حركات الإنسان، وسعيه في الحياة، مثلما يجمعها خلق «الحياء»؛ وإذا كان «الوقح» يشعر بأنه استوفى (الغير) حقه، وهو لم يوفه شيئاً، فإن «الحيي» على العكس من ذلك، يشعر بأنه قصر في حق (الغير)، وإن وفاه حقه؛ ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «الحياءُ والإيمانُ قُرْنًا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ»^(١)، ويقول: «إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ»^(٢)، ويقول الإمام الراغب: «الحياء أول ما يظهر في الإنسان من أمانة العقل، والإيمان آخر مرتبة العقل، ومحال حصول آخر مرتبة العقل لمن لم يحصل له المرتبة الأولى، فبالواجب إذا كان من لا حياء له، فلا إيمان له»^(٣)، وإنما كان للحياء تلك المنزلة في منظومة القيم الإسلامية؛ لأنه هو المانع من اقتراف القبائح، والاشتغال بمنهيات الشرع، ومستتهجنات العقل، قال الإمام المناوي: «الحياء هو الدين كله؛ لأن مبدأه ومنتهاه يفضيان إلى ترك القبيح، وترك القبيح خير لا محالة، فكان لا يأتي إلا بخير، ولأن من استحيا من الخلق قل شره وكثر خيره وغلب عليه السخاء والسماح الموصلان

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، ٧٣/١، حديث رقم: ٥٨، قال: «هذا حديث صحيح على شرطهما فقد احتجا برواته ولم يخرجاه بهذا اللفظ».

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، ٩٠٥/٢، حديث رقم: ١٦١٠، وابن ماجه في سننه، ١٣٩٩/٢، حديث رقم: ٤١٨١، والطبراني في الصغير والأوسط والكبير.

(٣) للزبيدة إلى مكارم الشريعة، ص ٢٨٣.

إلى ديار الأفراح، وأشفق أن يرى أحد في دينه خللاً أو في عمله زللاً فمن ثم كان فيه كمال الدين... الحياء خير كله؛ لأن مبدؤه انكسار يلحق الإنسان مخافة نسبته إلى القبيح، ونهايته ترك القبيح، وكلاهما خير. ومن ثمراته مشاهد النعمة والإحسان؛ فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه وإنما يفعل له اللئيم، فيمنعه مشاهد إحسانه إليه ونعمته عليه من عصيانه حيائه منه أن يكون خيره وإنعامه نازلاً عليه ومخالفته صاعدة إليه، فملك ينزل بهذا وملك يعرج بهذا فأقبح به من مقابلة»^(١).

وهذا المفهوم من شأنه أن يضبط حركة العبد؛ لأن «الحياء» فيه «سداد العقل»؛ إذ إنه يعقل النفس عن كل رذيلة، كما أن فيه «دوام الحياة» فالحياء، كما يقول ابن القيم، «من الحياة ومنه الحياء للمطر، وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح، فكلما كان القلب أحيا كان الحياء أتم»^(٢)، وفيه كذلك «السلامة من الآفات» إذ الحياء من الذات يمنع من آفة الشعور بالتفوق، والحياء من الغير يمنع من آفة الشعور بالاعتزاز، والحياء من الله يمنع من آفة الشعور بالعظمة»^(٣).

- الورع، وهو البعد عن الآثام ظاهراً وباطناً^(٤) وقطع مألوفات النفس، وصدها عن هواها خاصة^(٥)، ففي حديث أبي ذر، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ

(١) فيض القدير، ٤٢٧/٣.

(٢) مدارج السالكين، ٢٥٩/٢.

(٣) طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ص ١٥٣-١٥٦.

(٤) مدارج السالكين، ٥١٤/١.

(٥) الموافقات، ١٠٦/١.

قال: «لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسني الخلق»^(١)، كما قال ﷺ لأبي هريرة، رضي الله عنه: «يا أبا هريرة، كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قنعاً تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تُحب لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً، وأقل الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب»^(٢)، وإنما كان في «الورع» تمام التبع؛ لأنه يتطلب «تزكية القلوب» و«تصحيح النوايا» و«تعميق الحساسية الإيمانية» و«الأخذ بالعزيمة» و«الاحتياط من الشبهات» و«اعتماد مبدأ محاسبة الذات» الذي يقوم على: مراقبة الأفعال، ورد الحق إلى أهله، وإصلاح الضرر، والتوبة النصوح، والصدق مع الآخرين. وأن «يخرج العبد من طلب حظوظ السيادة على الكون إلى أداء حقوق العبودية لسيد الكون». ولا شك أن من يُربي على ذلك فإن سيطرته على «حركة الحياة» تكون وشيكة.

- الصبر، هو: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه^(٣)، وهذا معناه: مقاومة العوائق، وتحمل مشاق التزكية، ومجاهدة الأهواء، بالصبر على أوامر الله وعن نواهيه؛ وإذا علم أن «قصد الشارع من وضع الشرائع إخراج النفوس عن أهوائها وعوائلدها»^(٤) فلا مقام يعين على ذلك إلا مقام «الصبر» فهو الذي يحفظ على العبد استدامة ذلك،

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، ١٤١٠/٢، حديث رقم: ٤٢١٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، ١٤١٠/٢، حديث رقم:

(٣) المفردات في غريب القرآن، ص ٢٧٣.

(٤) الموافقات، ٣٣٦/١.

ويحمله على الاحتمال، فيصير على أفعال الخير والصلوات حتى يزداد إقبالاً عليها، كما يصير عن أفعال الشر والمخالفات حتى يزداد إدباراً عنها؛ ومن ثم كان هو أصل المجاهدة، وعمود تزكية النفس، وكل مقام من مقاماتها لا يتحقق من دونه^(١)، ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾ (العصر: ١-٣)، ولهذا يقول رسول الله ﷺ: «مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»^(٢)، إذ من خلاله لا يثبت الإنسان على إتيان المأمورات وترك المنهيات فحسب، بل أيضاً، يثبت على ما ينزل به من مصائب وشدائد، ناظراً إليها على أنها بلاء من الله ليختبر قوة إيمانه، ويعلم صدق جهاده، يقول رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٣).

- التقوى، وهي جعل النفس في وقاية من عذاب الله، وذلك بإحكام ما بين الإنسان والخلق، وإحكام ما بين الإنسان وخالقه^(٤)، وهذا معنى قلبي

(١) يقول الإمام ابن القيم في مدارج السالكين، ٢/٢٨: «والعزيمة والصبر يثمران جميع الأحوال والمقامات».

(٢) متفق عليه واللفظ للبخاري في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: الاستغفار عن المسألة، ٥٣٤/٢، حديث رقم: ١٤٠٠، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: فضل التعفف والصبر، ٧٢٩/٢،

حديث رقم: ١٠٥٣، ولفظه: «وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرَ وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ».

(٣) أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرفائق، باب: المؤمن أمره كله خير، ٢٢٩٥/٤.

(٤) المفردات في غريب القرآن، ص ٥٣٠.

ينشأ عن طاعة الله ائتماراً فتكون واعظاً، وعن طاعته انتهاء فتكون زاجراً، وأدى درجاتها: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وسخطه وغضبه وقاية، فلا تلقي بنفسك في ذل الشهوة، وأعلى درجاتها: التبري من كل شيء سوى الله تعالى، وذلك بمراقبة الله، ومحاسبة النفس، وإحسان المرء ما بينه وبين الله، وما بينه وبين الموجودات. وهي بهذا المفهوم، ملاك الأمر كله، وأصل الأصول؛ لأنها عنوان تمتع الشخص بقيم التزكية، وإرادة تمتع غيره بها، كما أنها المنطق الأخلاقي الذي يوطر حركة المسلم في الحياة، ولا يمكن التفاوض بشأنها، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧)، وهي مناط التفاضل بين البشر، ومعياره الوحيد، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)، وهي زاد المسلم في تحريكه للحياة، ﴿وَتَكَزَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَأْتُوا لِيَ الْآلِيبِ﴾ (البقرة: ١٩٧)، ومن ثم كانت وصية الله للأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ (النساء: ١٣١)، كما كانت وصية رسول الله ﷺ للمسلمين أجمعين، فعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه: «أَنْ رَجُلًا جَاءَهُ، فَقَالَ: أَوْصِنِي. فَقَالَ: سَأَلْتُ عَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَبْلِكَ، فَقَالَ: أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ

رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ؛ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ وَذِكْرُكَ فِي الْأَرْضِ»^(١)، وهو ما جاء أيضاً في وصيته ﷺ للصحابي الجليل أبي ذر: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السُّنَّةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(٢).

فهذه الأصول الثلاثة: «تمام التخلق» و«تمام التعقل» و«تمام التبع» تمثل أصول مكارم الأخلاق، وهي دقائق وأصول لأعمال القلوب، أو كما يقول الإمام ابن القيم: «فهذه الأركان الثلاثة هي أركان السير وأصول الطريق، التي من لم ين عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع، وإن ظن أنه سائر، فسيره إما إلى عكس جهة مقصوده، وإما سير المقعد والمقيد، وإما سير صاحب الدابة الجموح كلما مشى خطوة إلى قدام رجعت عشرة إلى خلف؛ فإن عدم الإخلاص والمتابعة انعكس سيره إلى خلف، وإن لم يبدل جهده ويوحد طلبه سار سير المقيد، وإن اجتمعت له الثلاثة فذلك الذي لا يجارى في مضمار سيره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»^(٣).

فمن خلال هذه الأصول الثلاثة يتم تزكية الإنسان الخليفة، الذي يستطيع أن يحقق مفهوم «الاستخلاف» ويستعمر الأرض وفق منهج الله في أمره ونهيه،

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ٨٢/٣، حديث رقم: ١١٧٩١، ورواه أبو يعلى في مسنده،

٢٨٣/٢، بلفظ: «عليك بتقوى الله؛ فإنه جماع كل خير» قال الهيثمي في مجمع الزوائد،

٢١٥/٤: «ورجال أحمد ثقات وفي إسناد أبي يعلى لبث بن أبي سليم وهو مدلس».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مدارج السالكين، ٩٧/٢.

ويحرك الحياة على مقتضى «التخلق الرباني» بحيث تسري الحياة الخلقية سرياناً في كل ذرة من ذرات بدنه، وكل معنى من معاني روحه، وقد وجد هذا الإنسان في عصور الإسلام الأولى، وسيوجد في أي عصر، إذا ما أعد الإنسان إعداداً وفق هذا المنهاج في التزكية، حيث يكون العبد في كل أحواله «ربانياً»^(١) مشغلاً بالله، مدركاً أن كل اشتغال بغيره ينبغي أن يذكره بالله دائماً وأبداً، متعاملاً فيه فلا يبقى جانب من جوانب حياة المسلم خارجاً عن مراعاة حق الله فيه، مع دوام الافتقار إليه، حتى يصير العمل الشرعي وصفاً راسخاً لا ينفك عن مجموعة حركاته، قولاً أو فعلاً، إشارة أو حالاً، فيسير في «تحريك الحياة» دائراً بين «تلقي الخطاب» من الله في كل شؤون حياته، و«تحمل الرؤية» من الله في كل حركاته، فتكون صلة الإنسان بربه ناظماً لصلاته الأخرى كافة، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢)، فيحصل له «أنس» بعبده بقوة تغذى بها روحه، ويجد للعمل بسببه حلاوة تستحثه على مزيد من التقرب، و«سَكِينَةٌ» تمكنه من آداب التعامل مع النفس فيراجعها، ومع الغير فيسأله، ومع الشرع فيرتاح لخدمته، ومع الكون فيتفاعل معه، فيتحقق له «الصلاح» في الحال، و«الفلاح» في المآل.

(١) قال الإمام العيني: «الرباني: المثلّه، العارف بالله تعالى»، عمدة القاري، ٤٣/٢. وينظر: مختار الصحاح، وتاج العروس، باب: الراء.

ثانياً: التزكية بمراعاة حق (الغير)^(١):

إذا كان المسلم في سعيه الحضاري يتحكم فيه مبدأ: «الطاعة في العبادة» فإنه أيضاً يتحكم فيه مبدأ: «الطاعة في المعاملة» التي تعني: تزكية النفس بمراعاة حق الغير، في إطار إشكالية «الأنا» و«الآخر» وفق المنهج الإلهي الذي لا موضع فيه إلا (للعادل) وامتداده (الإحسان) الذي يوظف حركة المسلم في علاقته بالآخر، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠)، قال العلماء: إن هذه الآية الشريفة، أجمع آية في القرآن، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية، لكفت في كونه نبياً لكل شيء وهدى^(٢)، ولما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية على المشركين، قال فصحاؤهم: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال^(٣).

فسلوك المسلم مع (الغير) وفق منهج التزكية، يتحكم فيه مجموعة من المعايير، هي جماع تلك «الطاعة في المعاملة» بما فيها من دوافع وضوابط، وما ينبثق عنها من مقاصد ووسائل، أهمها:

١- معيار «العدل»، وهو المعيار المحور في قيم التعامل مع (الغير)، فلا ترى القيم الأخرى إلا في سياقه، فجميعها مشدودة إليه بدءاً وعوداً،

(١) المراد بـ(الغير): كل ما سوى الذات، سواء أكان هذا (الغير) هو الآخر للمسلم المنتسب إلى القيم الأصيلة والمبادئ العليا التي جاء بها الإسلام، أم كان الآخر المفارق في العقيدة والقيم..
(٢) الشيخ مرعي المقدسي، قلند العقيان، تحقيق: عبد الحكيم الأنيس، ط ١ (دبي: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) ص ٧٥.
(٣) المرجع السابق، ص ٧٧.

ومقتضاه: أن يحفظ العبد حق (الغير) كما يحفظ حق (الذات)، وفقاً للمبدأ الإسلامي: «أن لكل خلق حقاً أو حقوقاً تخصه»، والعدل هو أن يحفظ العبد تلك الحقوق، مراعاة وتأدية، كما يحفظ حق نفسه، أو «توفير الحقوق في المعاملة، بأن تعطي ما أمرت به من حق الله، وحقوق العباد كاملاً موفراً» كما يقول الإمام ابن القيم^(١)، وهو المفهوم من قول النبي ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٢)، وقوله ﷺ: «فَمَنْ سَرَّهُ مِنْكُمْ أَنْ يُزَخَّرَ عَنِ النَّارِ، وَأَنْ يَدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَذَرِكُهُ مَوْتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»^(٣).

و«العدل» هنا لا يقف عند سقف مقام «المعاملة» بل يتعداه إلى مقام «الحكم»، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨) فالحاكم إذا تجاوز العدل الدقيق الصارم كان كمن يتصرف في حق غيره، نقصاً واعتداء، وذلك هو الظلم بعينه، وفي الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا»^(٤)، وهذا الحديث يوجب على المسلم في كل حركته: «دوام التجرد من أسباب الظلم» و«دوام التوجه إلى الله المتجلي بالعدل»، إنه إطار للحركة الدائمة الصالحة والمصلحة.

(١) مدارج السالكين، ٤٧٦/١.

(٢) متفق عليه.

(٣) مسند الإمام أحمد، ١٦١/٢، حديث رقم: ٦٥٠٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، حديث رقم: ٢٥٧٧.

وهذا المعيار في التعامل «العدل» يؤسس لـ «فقه شغوف بأداء الحقوق» كما جاء في أحاديث الحقوق، وأشهرها الحديث المتفق عليه، أن أبا هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ «رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْغَاطِسِ»^(١)، كما يؤسس لـ «فقه شغوف بمراعاة الحرمات» التي بينها حديث أبي هريرة، قال: «قال رسول الله ﷺ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرِضُهُ»^(٢)، وجماع ذلك: «حسن المراعاة، ودوام المراقبة، وتعظيم حرمة (الغير)»^(٣).

ومما ينبغي التنبيه إليه هنا: أن العدل المؤسس «لفقه شغوف بأداء الحقوق»، وآخر «شغوف بمراعاة الحرمات» لا يؤسس لحقوق المسلم على المسلم، فقط، بل إنه يؤسس: أن لغير المسلم أيضاً من الحقوق ما ينبغي أن تحترم وتُراعى، وأن يحافظ على حقهم في الاختلاف والمغايرة، بل أوجب الإسلام حراسة هذه المغايرة وهذا الاختلاف، والنود عنهما وحمايتهما، بجعل

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: الأمر باتباع الجنائز، ٤١٨/١، حديث رقم ١١٨٣.
وأخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: من حق المسلم للمسلم، ١٧٠٤/٤، حديث رقم: ٢١٦٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، حديث رقم: ٢٥٦٤.
(٣) المرجع السابق، ٣٨٠/١٠.

ذلك ديناً لا يجوز الخروج عنه^(١)، يقول رسول الله ﷺ: «ألا من ظَلَمَ مُعَاهِداً، أو اتَّقَصَّه، أو كَلَفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أو أَخَذَ مِنْهُ شَيْئاً بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وزاد في رواية البيهقي: وأشار رسول الله ﷺ بأصبعه إلى صدره، «ألا ومن قتل مُعَاهِداً له ذمَّةُ الله وذمَّةُ رسوله حَرَّمَ اللهُ عليه رِيحَ الجنة، وإنَّ رِيحَهَا لَتَوْجِدُ من مَسِيرَةِ سَبْعِينَ خَرِيفاً»^(٢).

وقاعدة: «لهم ما لنا، وعليهم ما علينا»^(٣)، هي الأساس الدستوري الإسلامي، الذي لا يجوز الاجتهاد معه، حتى إن الإسلام لم يعرف مصطلح «الأقلية»، وإنما عرف مصطلح «الأمة الواحدة» بجميع أطيافها، وهذا

(١) بخلاف حقوق الأقليات في الدول التي تتغلب بالديمقراطية، فهي حقوق خاضعة لرأي الأغلبية، ولا ضمان لتبقيها، وهذا ما نلاحظه الآن في الاستفتاءات التي يقوم بها الأوروبيون، بين الفينة والأخرى، لحرمان الأقلية المسلمة من التميز في ثيلها (حيث يمنع الحجاب) ومن التمييز في شعائر دينها حيث تمنع المآذن، بناء على استفتاءات الأغلبية!!

(٢) أخرجه أبو دلود في سننه، ١٧٠/٣، حديث رقم: ٣٠٥٢، والبيهقي في سننه الصغرى، ١٥٤م، حديث رقم: ٣٧٦٦، والكبرى، ٢٠٥/٩، حديث رقم: ١٨٥١١.

(٣) وقارن ذلك الموقف الإسلامي مع من يخضعون لحكمه من غير المسلمين، حيث أمن لهم كل حياتهم وأعطاهم من الحقوق ما للمسلمين، واعتبر ذلك ديناً لا يجوز الخروج عنه، قارن ذلك بموقف اليهودية والمسيحية، المحرفة، من (الأخر)، حيث العبودية والظلم، كما جاء في سفر إشعياء، الإصحاح ٤٩، والخطاب لصهيون: «بالوجه إلى الأرض يسجدون لك، ويلحسون غبار رجليك» وفي التلمود: «إن الكتاب المقدس يعلمنا أن نقدر الكلب أكثر من غير اليهودي، فكل يهودي يريق دم غير يهودي، فإنما يقدم أضحية للرب»!! وقرأ ما فعلته الحضارات الأخرى مع الأقليات، فنحن حينما تلك الأقليات، أما عندهم فقد أبيدت، أو عولمت معاملة ما زالت تطفخ تلك الحضارات بالعار، فكان شعارهم: «إما للتصير وإما الإباداة». ينظر في تفصيل شيء من ذلك: مفهوم الآخر في اليهودية والمسيحية، د. رقية العلواني، والله ليس كذلك، للألمانية زيجرد هونكه، والوثنية والمسيحية، لألكسندر كرافتشوك، والمسيحية والسيوف للمطران كازاس، وعلى خطى الصليبيين، لجان جويبير، ونهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، للأستاذ محمد عبد الله علان..

ما توضحه «الوثيقة» أو «الصحيفة» أو «الكتاب»^(١)، الذي كتبه الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار وبين يهود، حيث وادعهم فيه، وعاهدتهم، وأقرهم فيه على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم، ولم يقتصر الأمر على مجرد الاعتراف بهم، بل امتد إلى اعتبارهم، في إطار الدولة الواحدة، لبنة من لبنات الأمة الإسلامية، بالرغم من اختلاف عقيدتهم، ما داموا قد اختاروا الإسلام اختياراً حضارياً يعيشون في كنفه، وإن لم يختاروه اختياراً عقدياً، ومن ثم فلهم كل الحق في صنع هذا الاختيار الحضاري، والمشاركة في إدارته، وفق منهج الإسلام في ذلك، يقول الإمام القرافي: «إن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا لهم؛ لأنهم في جوارنا، وفي خفارتنا، وذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ، ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء، أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك، فقد ضيع ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ، وذمة دين الإسلام، وكذلك حكى ابن حزم في مراتب الإجماع له: أن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك؛ صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة، وحكى في ذلك إجماع الأمة»، ومن ثم يجب «الرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم، على سبيل اللطف لهم والرحمة، لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال أذيتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفاً منا بهم، لا خوفاً وتعظيماً، والدعاء لهم بالهداية، وأن يُجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد

(١) ينظر في تفاصيل تلك الوثيقة: أحمد قائد الشيعبي، وثيقة المدينة الدلالة والمضمون، كتاب الأمة، قطر، ع ١١٠.

لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم، وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانون على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم لجميع حقوقهم... فإن ذلك من مكارم الأخلاق، إلا أنه ينبغي أن يكون لا على وجه التعظيم لهم وتحقير أنفسنا بذلك الصنيع لهم، بل امتثالاً منا لأمر ربنا عز وجل، وأمر نبينا ﷺ»^(١).

و لم يقف الإسلام بهذا الأفق عند هذا الحد، وإنما امتد ليشمل المتدينين بأفكار ومذاهب وضعية، وعاملهم معاملة أهل الكتاب، وهذا ما عليه الفقه الإسلامي، يقول الإمام القرطبي: «الوصاة بالجار مأمور بها، مندوب إليها، مسلماً كان أو كافراً، وهو الصحيح، والإحسان قد يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه، روى البخاري عن عائشة عن النبي ﷺ قال: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه، وروى عن أبي شريح أن النبي ﷺ قال: والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل يا رسول الله: ومن؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه. وهذا عام في كل جار، وقد أكد عليه السلام ترك إذايته بقسمه ثلاث مرات»^(٢)، وكل ذلك مقتضى قول تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المتحنة: ٨)، ومقتضى هديه ﷺ في احترام حق (الغير)، مهما كان، باعتبار مطلق إنسانيته، فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى، رضي الله عنه، قال: «كان سهل بن حنيف، وقيس بن سعد قاعدتين بالقادسية، فمروا عليهما

(١) الفروق مع هوامشه، ٣/٢٩-٣٠.

(٢) تفسير القرطبي، ٥/١٨٤.

بِحَنَازَةٍ فَقَامًا، فَقِيلَ لَهُمَا: إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، أَيُّ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَقَالَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّتْ بِهِ حَنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا حَنَازَةٌ يَهُودِيٌّ، فَقَالَ: أَلَيْسَتْ نَفْسًا^(١)، ومن المهدي النبوي في ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير، نقلًا عن الحافظ ابن عساكر: «أن رجلاً يقال له حرملة أتى النبي ﷺ فقال: الإيمان هاهنا، وأشار إلى لسانه، والنفاق هاهنا وأشار إلى قلبه، ولا أذكر الله إلا قليلاً، فقال رسول الله ﷺ: اللهم اجعل له لساناً ذاكرًا، أو قلباً شاكراً، وارزقه حيي وحب من يحبني، وصيّر أمره إلى خير. قال: يا رسول الله، إنه كان لي صاحب من المنافقين وكنت رأساً فيهم، أفلا آتيك بهم؟ فقال: من أتانا استغفرونا له، ومن أصر على ذنبه فالله أولى به، ولا تخرقن على أحد سترًا^(٢)».

٢- معيار «الإحسان»^(٣)، فإذا كان «العدل» هو أن يراعي العبد حق (الغير)، معاملة وحكمًا، كما يراعي حق نفسه، فإن «الإحسان» هو تقديم حق (الغير) على حق «النفس» أو على حد تعبير الإمام الشاطبي: «إسقاط حظوظ النفس» و«القيام على قدم العبودية»^(٤) وأدنى ذلك: ملاحظة الخير في أفعال (الغير)، وفي أعلاه التضحية بالنفس من أجل (الغير)، وفي أوسطه الصبر على أذى (الغير)، والتماس العذر له، والعفو عن مساءته، ومكافأة الإساءة

(١) متفق عليه.

(٢) تفسير ابن كثير، ٣٨٥/٢، والحديث أورده الإمام السبكي في طبقات الشافعية الكبرى، ١٢٢/١. وهو في مسند الشهاب، ٨٤/٢.

(٣) ليس المراد بـ«الإحسان» هنا إحسان العبودية، الذي هو أعلى مراتب الدين، كما جاء في الحديث: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، بل المراد هنا «إحسان المعاملة» الذي هو أعلى مراتب «الخلق» في التعامل مع «الخلق».

(٤) الموافقات، ٢٤٠/٤.

بالإحسان، فلا يكون تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان مجرد تحصيل خدمات منه، أو توصيلها إليه، وإنما جلب صلاح له أو استجلابه منه، ودفع فساد عنه أو استدفاعه به^(١)، وهذا مقتضى قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»^(٢)، يقول الإمام القرطبي في شرح هذا المعنى: «فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض، حتى إن الطائر في سجنك، والسنور في دارك لا ينبغي أن تقصر تعهده بإحسانك»^(٣).

وهذا المعيار في التعامل «الإحسان» يؤسس لـ«فقه شغوف باصطناع المعروف» فقد ذكر الحافظ ابن أبي الدنيا بسنده: «عن النبي ﷺ قال: عَلَيْكُمْ باصطناع المعروف؛ فإنه يمنع مصارعَ السوء، وعليكم بصدقة السر؛ فإنها تُطْفِئُ غَضَبَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٤)، و عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَلْفَعُهُمُ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُذْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْهَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تُطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأنَّ أَمْسِيَّ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ - شَهْرًا وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَرَّ اللَّهُ عَورَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ

(١) طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ص ٢١.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الصيد والذباح، حديث رقم: ١٩٥٥.

(٣) تفسير القرطبي، ١٠/١٦٦.

(٤) ابن أبي الدنيا، قضاء الحوائج، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم (القاهرة: مكتبة القرآن) ص ٢٥؛ وأورد نحوه البيهقي في شعب الإيمان، ٧/٤٤٥، حيث رقم: ١٠٩٢٧.

وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمَضِّيه أَمَضَاهُ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَىٰ مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ لَهُ أَثَبَتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَرْوُلُ الْأَقْدَامِ»^(١)، و«اصطناع المعروف» الوارد في الهدى النبوي، يمكن أن نسميه بمبدأ: «اقتحام العقبة»^(٢) الذي يقوم على «تحقيق حرية الغير» و«سد حاجته وعَوَزه»، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعَقَبَةَ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿فَكُ رَقِيبٌ﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿البلد: ١١-١٨﴾.

كما يؤسس «الإحسان» لـ «فقه شغوف بأخلاق الإيثار» وهو فقه يقوم على وجهين، ذكرهما الإمام الشاطبي^(٣):

- الوجه الأول: إسقاط الاستبداد والدخول في المواساة على سواء
«وذلك بأن يرى العبد غيره مثل نفسه، وكأنه أخوه أو ابنه أو قريه أو يتيمه، أو غير ذلك ممن طلب بالقيام عليه ندباً أو وجوباً، وأنه قائم في خلق الله

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد، ١٩١/٨: «أخرج الطبراني في الثلاثة، وفيه مسكين ابن سراج وهو ضعيف».

(٢) «الاقتحام» هو الدخول في الشيء بقوة، ومن غير روية، ولا نظر إلى المشاق. و«العقبة» هي مرقى صعب من الجبال، والمراد بها هنا كما تفسرها الآية الكريمة: الصالح الذي يستحق أن يبذل الإنسان الجهد في عمله، أو موانع من أحوال لا يصل إليها إلا الصالحون، كما يقول الإمام الراغب في المفردات، ص ٤٣، فـ«العقبة» هي العمل الذي يرتقي به الإنسان، أي: الذي تتحقق به التزكية الإنسانية، ومعلوم أن لفظ «التزكية» اختص بالدلالة على التنمية العملية للإنسان، و«اقتحام العقبة» هو الدخول بقوة في هذه التزكية، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ص ٢٣٤.

(٣) الموافقات، ٣٥٢/٢-٣٥٥.

بالإصلاح والنظر والتسديد فهو على ذلك واحد منهم، تحقيقاً لقول النبي ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَيْتَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ»^(١)، وقوله ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلَمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)، فإذا صار الأمر كذلك لم يقدر العبد على أن يستبد بشيء لنفسه دون غيره، ممن هو مثله بل ممن أمر بالقيام عليه، كما أن الأب الشفيق لا يقدر على الانفراد بالقوت دون أولاده وهو محمود جداً، وقد فعل ذلك في زمان رسول الله ﷺ، وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الْأَشْعَرِيِّْنَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عَنْدهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِئَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ»؛ فَهَمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ^(٣)؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان في هذا المعنى الإمام الأعظم، وفي الشفقة الأب الأكبر؛ إذ كان لا يستبد بشيء دون أمته؛ وفي مسلم عن أبي سعيد قال: يَتَنَمَّ نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ، قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيُعْذِ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيُعْذِ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ. قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافٍ

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ»^(١)، وفي حديث ذي دلالة موحية، يجعل الرسول ﷺ، كل ما زاد عن الحاجة، ولا يبدل لمن يحتاجه فهو للشيطان، فعن سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِنْدٍ قَالَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَكُونُ إِبِلٌ لِلشَّيَاطِينِ، وَبُيُوتٌ لِلشَّيَاطِينِ، فَأَمَّا إِبِلُ الشَّيَاطِينِ فَقَدْ رَأَيْتُهَا يَخْرُجُ أَحَدُكُمْ بِجَنِّيَّاتٍ مَعَهُ قَدْ أَسَمَّهَا فَلَا يَعْلُو بَعِيراً مِنْهَا، وَيَمُرُّ بِأَخِيهِ قَدْ انْقَطَعَ بِهِ فَلَا يَحْمِلُهُ. وَأَمَّا بُيُوتُ الشَّيَاطِينِ فَلَمْ أَرَهَا، كَانَ سَعِيدٌ يَقُولُ لَا أَرَاهَا إِلَّا هَذِهِ الْأَقْفَاصُ الَّتِي يَسْتُرُ النَّاسُ بِالْدِّيَارِجِ»^(٢).

وهذا الحديث النبوي الشريف «بذل الفضل» يؤسس لأصل فقهي، وهو: «أن الضرورات تحيل أعمال المروءة إلى واجبات!!» و«أنه إذا احتاج المسلمون فلا مال لأحد!!»^(٣)؛ ومن ثم قرر الفقهاء: «لو كان رجلان في بادية، فمرض أحدهما وجب على الآخر تعهده»^(٤)، وهذا من النمط العالي في الفقه الإسلامي الذي تحتاج إليه الأمة في تحريكها للحياة.

- والوجه الثاني: الإيثار على النفس، وهو أعرق في إسقاط الحظوظ؛ وذلك أن يترك حظ نفسه لحظ غيره، اعتماداً على صحة اليقين، وإصابة لعين التوكل، وتحملاً للمشقة في عون الأخ في الله على المحبة من أجله، و«هو من محامد الأخلاق، وزكيات الأعمال، وهو ثابت من فعل رسول الله ﷺ، ومن خلقه المرُضي، وقد كان عليه الصلاة والسلام أجود الناس بالخير، وأجود

(١) أخرجه مسلم، كتاب: اللقطة، حديث رقم: ١٢٧٨.

(٢) أخرجه أبو داود، حديث رقم: ٢٥٦٨؛ والبيهقي في سننه الكبرى، حديث رقم: ١٠١١٩.

(٣) وذلك مضبوط بأحكام المصالح، والضرورات، وطرائق الحكمة.

(٤) المنثور في القواعد، للإمام الزركشي، ٣/٣٠.

ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة، وقالت له خديجة: إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق. وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير، ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلاً حتى فرغ منه، وجاءه رجل فسأله فقال: ما عندي شيء ولكن ابتع علي، فإذا جاءنا شيء قضينا. فقال له عمر: ما كلفك الله مالا تقدر عليه، فكره النبي ﷺ ذلك فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تحف من ذي العرش إقللاً، فتبسم النبي ﷺ وعرف البشر في وجهه وقال: بهذا أموت. ذكره الترمذي^(١). وهذا اللون من «أخلاق الإيثار» يعين عليه ثلاثة أشياء، ذكرها ابن القيم في مدارج السالكين^(٢)، الأول: «تعظيم الحقوق»؛ فإن من عظمت الحقوق عنده قام بواجبها، ورعاها حق رعايتها، واستعظم إضاعتها، وعلم أنه إن لم يبلغ درجة الإيثار لم يؤدها كما ينبغي فيجعل إيثاره احتياطاً لأدائها. الثاني: «مقت الشح»؛ فإنه إذا مقته وأبغضه التزم الإيثار. الثالث: «الرغبة في مكارم الأخلاق» وبحسب رغبته فيها يكون إيثاره؛ لأن الإيثار أفضل درجات مكارم الأخلاق».

٣- معيار «التراحم»، وهو من أهم مبادئ «الطاعة في المعاملة»، وقد قرر علماؤنا، رحمهم الله، أن «كمال السعادة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله»^(٣)، ومداد هذا من قوله ﷺ: «على كل مسلم صدقة»، فقالوا: يا نبي الله فمن لم يجد؟ قال: يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق، قالوا:

(١) الموافقات، ٣٥٥/٢.

(٢) ٢٩٩/١.

(٣) التفسير الكبير، ٥٦/٢٧.

فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: يُعَيَّنُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ وَلْيَمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ»^(١)، قَالَ الْعَلَامَةُ ابن حجر: «ومحصل ما ذكر في حديث الباب: أنه لا بد من الشفقة على خلق الله، وهي إما بالمال أو غيره، والمال إما حاصل أو مكتسب، وغير المال إما فعل وهو الإغاثة وإما ترك وهو الإمساك»^(٢)؛ فالأصل في المنظور الإسلامي، أن الموجودات، على اختلافها، يرحم بعضها بعضاً؛ تخلقاً باسم «الرحمن» من أسمائه تعالى^(٣)، فيكون حظ العبد من اسم «الرحمن»، كما يقول الإمام الغزالي: «أن يرحم عباد الله الغافلين، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله، عز وجل، بالوعظ والنصح، بطريق اللطف دون العنف، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الإزراء، وأن يكون كل معصية تجري في العالم كمصيبة له في نفسه، فلا يألو جهداً في إزالتها بقدر وسعه؛ رحمة لذلك العاصي أن يتعرض لسخط الله، ويستحق البعد من جواره. وحظه من اسم الرحيم: ألا يدع فاقة لمحتاج إلا يسدها بقدر طاقته، ولا يترك فقيراً في جواره وبلده إلا ويقوم بتعهده ودفع فقره إما بماله أو جاهه أو السعي في حقه بالشفاعة إلى غيره، فإن عجز عن جميع ذلك فيعينه بالدعاء وإظهار الحزن بسبب حاجته؛ رقة عليه وعطفاً حتى كأنه مساهم له في ضرره وحاجته»^(٤)؛ ومن ثم جاء في الهدي

(١) صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: على كل مسلم صدقة، ٥٢٤/٢، حديث رقم: ١٣٧٦.

(٢) فتح الباري، ٣/٣٠٨.

(٣) ينظر في ذلك، ما كتبه الدكتور طه عبد الرحمن، في كتابه: روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، ص ٢٤٤.

(٤) الإمام أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، ط ١ (قبرص: دار الجفان والجابي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ٦٤/١.

النبي أن: أبا هريرة، رضي الله عنه، قال: «قَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ، وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبِلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَتَنَظَّرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»^(١)، قال العلامة ابن حجر: «قال ابن بطال: فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق، فيدخل المؤمن والكافر، والبهايم المملوك منها وغير المملوك»^(٢)، وهكذا يتضح أن «التراحم» لا يقوم بين الآدميين فحسب، بل إنه أيضاً يقوم بينهم وبين الأشياء من حولهم، حتى الأشياء الساكنة والجامدة؛ فالمسلم، المتخلق باسم «الرحمن» يرحم أخاه المسلم؛ مراعاة لأخوة الدين فيه، ويرحم غير المسلم؛ حفظاً لقيمة الإنسانية فيه، ويرحم غير الإنسان رحمته للإنسان؛ حفظاً لقيمة الوجود فيه، كما أنه يؤثر الكونية المأخوذة من الرحمة على كل كونية أخرى، متعلقاً بحق اسم الرحمن فيه!! وهذه المعاني من الرحمة كلها مداد قوله تعالى، في وصف رسالة النبوة الخاتمة، وتحديد هدفها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

وهذا «التراحم» هو معيار السلوك الراقي، الذي ينمي في النفس، عند التعامل مع (الغير)، جوانب: الاعتدال والوسطية، والذوقيات وإرهاف الحس، ورقة الشعور وهدوء النفس؛ فاسم «الرحمن» هو، بالذات، الاسم الإلهي الذي يزودنا بالقدرة على خلق «التواصل» و«التعارف» بيننا، ويدفع تحديات الانفصال، التي ابتلي بها هذا الزمان، فهو يقضي

(١) متفق عليه.

(٢) فتح الباري، ١٠/٤٤٠.

بإيجاد عالم تكون فيه العلاقات بين الأحياء والأشياء جميعاً، علاقات بين أقرباء، أقرباء فيما بينهم، وأقرباء من الرحمن الذي يتحلى عليهم، لا بقهره، وإنما برحمته، بحيث تكون الواجبات فيما بينهم، لا واجبات الأجانب، بل واجبات الأقارب، التي يكون سبيلها سبيل الرفق دون العنف^(١)، ففي صحيح مسلم^(٢): «عن هِشَامِ بْنِ حَكِيمٍ بنِ حِزَامٍ، قال: مرَّ بِالشَّامِ عَلَى أَنَسٍ، وَقَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ، وَصُبَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الزَّيْتُ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قِيلَ: يُعَذَّبُونَ فِي الْخَرَجِ، فَقَالَ: أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذَّبُونَ فِي الدُّنْيَا»، بل إن «التراحم» بين الناس هو سبب تنزل رحمة الله عليهم، يقول رسول الله ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(٣)؛ ومن ثم حكم علماؤنا أن كل ما يؤدي إلى «غير رحمة» خارج عن الدين، غير معتبر به في ميزان الإسلام؛ لأنه ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب والتراحم والتعاطف والتحاب، فالشريعة «عَدْلٌ كُلُّهَا، وَرَحْمَةٌ كُلُّهَا، وَمَصَالِحُ كُلُّهَا، وَحِكْمَةٌ كُلُّهَا، فَكُلُّ مَسْأَلَةٍ خَرَجَتْ عَنِ الْعَدْلِ إِلَى الْحَوْرِ، وَعَنِ الرَّحْمَةِ إِلَى ضِدِّهَا، وَعَنِ الْمَصْلَحَةِ إِلَى الْمَفْسَدَةِ، وَعَنِ الْحِكْمَةِ إِلَى الْعَبَثِ، فَلَيْسَتْ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَإِنْ أَدْخِلْتَ فِيهَا بِلَاوِيلَ؛ فَالشَّرِيعَةُ عَدْلٌ لِلَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَرَحْمَةٌ بَيْنَ خَلْقِهِ»^(٤).

(١) روح الحداثة، ص ٢٦١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، حديث رقم: ٢٦١٣.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، حديث رقم: ١٩٢٤، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) إعلام الموقعين، ٣/٣.

٤- معيار المجاهدة^(١)، فالأمة الإسلامية شديدة العناية بمراعاة حق (الآخر)، أفراداً وأممًا، كما أنها شديدة العناية بمحاورته، في إطار يحافظ على المقصود الكوني استخلافاً واستعماراً، لكنها في المقابل تجاهد (الآخر)، وتدافع ظلمه، إن هو حار فجار. ففجور (الآخر)، في المنظور الإسلامي، لا يمكن الاستسلام له، بدعوى التعايش والتعارف؛ إذ ذلك يفرض أشكالا من العلاقات بين الأفراد، أو الأمم والحضارات، لا يرضى عنها الإسلام، مثل: (التبعية/ والخضوع والخنوع/ والاستسلام والطغيان/ والقابلية للاستخفاف والطاعة/ وعلاقات التمركز والاستئثار/ وعلاقات الهيمنة والسيطرة)^(٢) فكلها أشكال من العلاقات لا تتفق ومقتضيات «الاستخلاف» و«الاستعمار» كما لا تحقق معاني «خيرية الأمة» أو «شهودها» أو «فاعليتها الحضارية»، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وهذا ما يؤكد الهدي النبوي، فقد روى النسائي وابن ماجه من حديث عائشة، رضي الله تعالى عنها، قالت: «دَخَلْتُ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ، فَسَبَّتَنِي، فَردَّعَهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَأَبَتْ، فَقَالَ لِي:

(١) المراد بـ«المجاهدة»: المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل أو نية، فتشمل جهاد النفس والهوى والشيطان، كما تشمل جهاد الآخر، بالقلب عدم رضاء بما يفعل، وباللسان، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وبالعلم إقامة للحجة عليه، كما تشمل قتاله، فـ«المجاهدة» مصطلح أعم من مصطلح «القتال» في الفقه الإسلامي.

(٢) سيف الدين عبد الفتاح، العلاقات الدولية في الإسلام، مدخل القيم، ص ٣٦٠.

سَيِّئَهَا، فَسَبَّبْتُهَا حَتَّى جَفَّ رِقْفُهَا فِي فَمِهَا، فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ ﷺ يَهْلُلُ»^(١)، فالمسلم مطالب أبداً بأن يجاهد أية حركة في الحياة لا تتفق ومعايير العدل والإحسان والتراحم، ومحاولة إخضاع (الآخر) لها، تنميظاً، استتباعاً، أو تخريباً وتدليساً، أو استضعافاً وطغياناً.

والجهاد وفق هذا المنظور ليس نقضاً لمبدأ «التعارف» أو «التعايش» كما يصوره بعض الحانقين على الإسلام، بل بالعكس من ذلك فهو الضامن لتحقيق هذا «التعارف» و«التعايش» بين الناس!! فهو دفاع عن الأرض والقيم سواء بسواء، كما أنه عملية تصحيح وتغيير للعلاقات الظالمة الشائنة والطغيان الحضاري الذي تقوم به القوى الغاشمة ضد الأمم المستضعفة، وهو المعنى الذي توضحه مقولة ربعي بن عامر، رضي الله عنه: «إن الله ابتعثنا، والله جاء بنا؛ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»^(٢)، فالجهاد وفق هذه الرؤية التي توضحها مقولة ربعي «حركة تقويمية تغييرية وتصحيحية، إنها لا تقف من عناصر أو حالات أو مواقف الظلم موقفاً سلبياً، وإنما تعبر بذلك عن جملة من الفاعليات يمكن نظمها في العملية الجهادية، في إطار إعادة العلاقات إلى أصولها، وإلى عناصر حركتها الفاعلة؛ لبناء كيانية دولية، تقوم على قاعدة من العمران الشامل الحقيقي، بحيث يخرج عن حد العمران الزائف (عناصر الزخرف الحضاري)

(١) أورده ابن حجر في الفتح، باب: الانتصار من الظالم، ٩٩/٥، والعيني في عمدة القاري، ٢٩١/١٢.

(٢) تاريخ الطبري، ٤٠١/٢، وتاريخ ابن خلدون، ٥٣٠/٢.

أو العمران الجزئي العنصري (الطغيان الحضاري) و(الاستئثار العمراني). الجهاد وفق هذا التصور تحليلية بين الإنسان وحركة اختياراته»^(١).

فالأمة الإسلامية المجاهدة لا تجاهد من أجل فرض عقيدتها على (الآخر)؛ فإن هذا مناف لمبدأ قرآني يمثل دستوراً إسلامياً لا يمكن الاجتهاد معه، وهو قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، بل تجاهد حماية لمبدأ «حرية الاختيار»، فإذا كنا نحرم على أنفسنا إكراه الناس على «الإيمان بالرشد»، فلا أقل من أن نجاهد من يكرههم على «الإيمان بالغي»، وعندما تتدخل أي إرادة بشرية محاولة فرض نمط واحد على الناس بالإكراه، فإن الإسلام يفرض على المسلم الجهاد؛ حماية لحق الناس في الاختيار، ومعاملتهم بالعدل والإحسان، فالأمة المجاهدة هي وحدها التي تملك أن تمنع الإكراه في الدين، وأن تمتنع عنه^(٢)؛ ومن ثم قرر الهدي النبوي أن «الجِهَادَ ماضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣)، إذ هو الضامن، ما بقيت الحياة، لتحقيق خلق الإنسانية في تعامل الأشخاص والأمم بعضهم مع بعض، بما يحفظ للإنسان كيانه واستمراره، وقيامه بوظيفته، أو بمعنى أدق رسالته، وتفاعله الحضاري، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٩٣) والفتنة، في أدق مدلولاتها

(١) العلاقات الدولية في الإسلام، مدخل القيم، ص ٤١٤.

(٢) ينظر في تفصيل ذلك: محمد جلال كشك، خواطر مسلم، ص ١٩-٢٧.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، ١٨/٣، من حديث أنس، رضي الله عنه.

ومفهوماتها: التدليس والتلبيس على الإنسان، و«إكراه الإنسان على ما لم يختاره أو يقتنع به، ومنعه من حقه في الاختيار، وفي ذلك إعدام لإنسانيته. وإلغاء إنسانية الإنسان أشد وأخطر، من الناحية العملية والنفسية من إعدام جسده وإنهاء حياته، يقول تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]»^(١).

كما قرر المهدي النبوي طبيعة هذا الجهاد، وأنه ينبغي أن يكون وفق مراد الله في أمره ونهيه، ووفق «الوظيفة الحضارية للأمة»، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، الرجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يتنغي عرض الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: لا أجر له، فأعظم الناس ذلك، وقالوا للرجل عذ لرسول الله ﷺ لعله لم يفهم، فعاد فقال: يا رسول الله الرجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يتنغي عرض الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: لا أجر له؛ ثم عاد الثالثة فقال رسول الله ﷺ: لا أجر له»^(٢)، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: الرجل يُقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل للذكر، والرجل يُقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(٣)، فجملة «في سبيل الله» ضابط منهجي، وإطار قيم

(١) عمر عبيد حسنة، لا إكراه محور رسالة النبوة، ط ٢ (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) ص ١٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ٢/٢٩٠، حديث رقم: ٧٨٨٧، وروى نحوه الحاكم في المستدرک، ٢/٩٤، حديث رقم: ٢٤٣٦، وصحح إسناده ووافقه الذهبي.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: الجهاد والسير، حديث رقم: ٢٦٥٥، وصحيح مسلم، كتاب: الإمارة، حديث رقم: ١٩٠٤.

فارق بين حركة الجهاد القائم على حفظ العمران، ورعاية المقاصد (حفظ: الدين، والنفس، والنسل، والعقل، والمال)، ورفع الإصر والأغلال عن البشر جملة، وفق نظرة الإسلام للإنسان والكون والحياة، وبين حركة القتال من أجل العدوان والطغيان، أو خدمة أغراض دنيوية، أو إقامة علاقات الظلم والاستتباع الشائنة، أو محاولة حضارة ما فرض قيمها ونموذجها الحضاري على الآخرين، وفي ضوء من هذا يفهم حديث الإمام أحمد في مسنده، عن حذيفة، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال، محذراً أمته من مغبة الاعتداء، ومن مخاطر إحلال القوة قيمة، بدلاً من البحث عن قوة القيمة وتفعليلها، فقال ﷺ: «إِنَّ قَوْمًا كَانُوا أَهْلَ ضَعْفٍ وَمَسْكَنَةٍ، قَالَتْهُمْ أَهْلُ تَحْرِ وَعَدَدٍ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ أَهْلَ الضَّعْفِ عَلَيْهِمْ، فَعَمَدُوا إِلَى عَدُوِّهِمْ فَاسْتَعْمَلُوهُمْ وَسَلَطُوهُمْ، فَأَسْخَطُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ»^(١)، قال الإمام ابن كثير: «ومعناه: أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقوياء، فاعتدوا عليهم فاستعملوهم فيما لا يليق بهم (أي: استعبدوهم بعد أن مكّنهم الله عليهم، واتخذوهم أدوات في تنفيذ أغراضهم غير المشروعة) أسخطوا الله عليهم بسبب هذا الاعتداء، فانقلب نصره لهم سخطاً. والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً»^(٢).

وبهذا يكون الجهاد في منظومة القيم الإسلامية، على خلاف الاعتقاد السائد، لا فضيلة شجاعة شأنه شأن القتال، وإنما فضيلة إحسان شأنه شأن

(١) مسند الإمام أحمد، ٤٠٧/٥، حديث رقم: ٢٣٥٠٩، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، ٢٣٣/٥: «لخرجه أحمد، وفيه الأجلح الكندي وهو ثقة، وقد ضُفِعَ، وبقيّة رجاله ثقات».

(٢) تفسير ابن كثير (بيروت: دار الفكر، ١٤٠١هـ) ٢٢٧/١-٢٢٨.

الإيثار، وما ذاك إلا لأن جهادنا، حركةً واختياراً، جهاد من أجل خير الإنسانية ونصرتها، لا من أجل خير الذات ونصرتها، وشتان بين النصرتين!!^(١)؛ إذ فيه قد يضحى المسلم بنفسه من أجل حفظ حق (الغير) في ممارسة اختياراته، وهئية المناخ لأصول العمران والاستخلاف؛ ومن ثم أحاطه الإسلام بمنظومة قيمة مصاحبة له، وحاكمة لحركته ابتداءً وانتهاءً، مثل: (جعله خياراً استثنائياً وضرورة تُقدر بقدرها وتُراعى في ظروفها ضمن دائرتي الحفظ والعمران) وتحريم العدوان والاعتداء/ وقطع أسباب الاستعباد فهو وسيلة تحريرية لا وسيلة استعباد أو استكراه/ وعدم استتصال شأفة الخصم أو تخريب كياناته وعناصر وجوده واستمراره/ والإبقاء على كل أصول استمرار العمران الحضاري) وغير ذلك مما لا تجد له نظيراً في تاريخ البشر^(٢)؛ إذ يجب إعمال قيمنا حتى في الحركة الحربية، مما يؤكد أننا لم «ننشر ديننا بالسيف، هذا سخف مبشرين، وعملاء قد تم غزوهم، ولقد مرت على البشرية فترة كان سيفنا وحده هو الذي يتكلم، ولو شئنا، لما بقي غير مسلم في الأرض الممتدة من فيينا إلى الفلبين، ولكننا نستطيع القول: إنه بحماية سيوفنا وحدها أمكن لشئ الأقلبيات أن تعيش وتستمر إلى اليوم، أليس جديراً بالملاحظة أن الأرض التي سادها الإسلام هي التي تعج اليوم بشئ التجمعات الدينية والمذهبية والقومية واللغوية!! بينما صُفِّيت الأقلبيات بالسيف والدم في معظم البقاع التي سادتها الحضارات الأخرى، وفي مقدمتها

(١) الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، ص ٢٦٥.

(٢) للعلاقات الدولية في الإسلام، مدخل للقيم، ص ٤١٥، وينظر ما كتبه الدكتور يوسف القرضاوي، في كتابه: فقه الجهاد دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة، ط ١ (القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠٠٩م) فصل: الدستور الأخلاقي للحرب في الإسلام، ١/ ٧٢٥-٧٥٤.

الحضارة الغربية التي روجت هذا السخف عن طبيعة الجهاد في الإسلام... هؤلاء لم يتركوا شراً في الكرة الأرضية إلا وصبوا عليه الدمار والخراب؛ من أجل أهداف توسعية واستغلالية وعنصرية»^(١).

إن مفهوم «المجاهدة» إذن ، يتحرك ضمن منظومة قيمية مفتوحة على قيم (العدل، والإحسان، والتراحم) فهناك صلة حميمة، في المنظور الإسلامي، بين مفهوم «المجاهدة» والعدل وإقامة العمران من جهة، وبينه وبين الإحسان والتراحم من جهة أخرى، إنه تحرك «استخلاف» يُراعى به وفيه حق الغير وحق الذات جميعاً، ومداد هذه المعاني كلها على قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩)، وهكذا فالعدل، والإحسان، والتراحم، ونصرة المستضعفين على الأرض حقائق عملاً ضمير الحضارة الإسلامية، وليست عناوين كُفَعْلُ وَتُسْتَمَرُ وفقاً للمصلحة الخاصة، كما دأبت على ذلك هيئة الأمم المتحدة، وكل الهيئات الدولية عادة، وبذلك يكون المسلم وحده، القادر في أي مكان، وفي أي زمان، على إعادة دور عبادة بن الصامت، رضي الله عنه، الذي انطلق مع إخوانه من جزيرة العرب؛ لنصرة المظلومين والمستضعفين في الأرض، ولتحرير الإنسان من استغلال أخيه الإنسان. وللوقوف ضد النزعة العدوانية في الفطرة البشرية، واستمراء الظلم، وغمط الحق، والقسر والإسراع إلى القوة؛ ومن ثم كان الرد الجهادي الإيمانى قدراً محتوماً، وكتب الله أن يكون محرّكاً أبدياً من محركات

(١) خواطر مسلم، ص ٢٤.

الحياة، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوحُكُمْ وَيَبِغَ وَصُولُكُمْ وَمَنْ جُدُّ يُدْكَرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠).

فهذه المعايير التي تحكم في التعامل مع (الغير)، وفق المنظور الإسلامي (العدل، والإحسان، والتراحم، والمجاهدة) تضبط العلاقة بين البشر، أفراداً وجماعات ودولاً، بناظم هو منهج الله، فتجعلها علاقة أخوة وترايط، يحفها التوادد والتراحم (خلو الصدر من الغل، وطهارة القلوب من الحقد) كما تؤسس لما يمكن أن نسميه بـ«فقه التعارف» أو «التعامل مع الآخر» الذي يعتبر (الآخر) شريكاً حضارياً، سواء أكان من أمة الاستجابة، المؤمن بالقيم الحضارية العقائدية للإسلام، أم كان من أمة الدعوة، محل طرح القيم وتفاعلها، ومحل الحوار والمناقشة والمناقضة، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والمعاملة بالبر والقسط، وهو نموذج إسلام للتواصل، يتجاوز النموذج المعرفي القائم على مجرد «التسامح» الذي هو مفهوم يستبطن أن هذا (الآخر) في درجة أدنى ولكن أنا أتسامح معه! أما المبدأ الإسلامي «التعارف» ففيه الحاجة المتبادلة، والاحتياج المتبادل، مما يفسح المجال أمام التكميل والإنشاء، عوض الصراع والتصادم، انطلاقاً من مبدأ: «اعتبار البشرية أسرة واحدة ممتدة» و«أن الإنسان أخو الإنسان، أحب أم كره»^(١)، على مقتضى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا

(١) وليس الإنسان ذنب الإنسان، حيث (الآخر) من الأشرار، وغير مستقر، ويحتاج إلى يد حازمة، كما ذهب للفلسفات المعاصرة. ينظر: طه عبد الرحمن، روح الحداثة، ص ٢١٣.

كثيراً ونساءً واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ (النساء: ١) ، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات: ١٣) ومقتضى هديه ﷺ، فقد كان من دعائه كل يوم: «اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة»^(١)، وعن أبي نضرة، قال: «حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق، فقال: يا أيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى. أَبْلَغْتُ؟ قالوا بَلَّغَ رسول الله ﷺ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قالوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قالوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قالوا: بَلَدٌ حَرَامٌ. قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - قَالَ وَلَا أَذْرِي قَالَ أَوْ أَعْرَضَكُمْ أَمْ لَا - كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا. أَبْلَغْتُ؟ قالوا: بَلَّغَ رسول الله ﷺ. قَالَ: لِيُبْلَغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبُ»^(٢)؛ مما يجعل الواحد من أبناء الأمة الإسلامية لا هم له إلا الأدب مع من سواه، على مقتضى «المعروف» الذي هو الأصل في تخلق المسلم، كما أمره ربه.

كما أن هذه المعايير (العدل، والإحسان، والتراحم، والمجاهدة) تقدم رؤية غير مسبقة ولا ملحوقة، ومقدمات لحركة في التعامل الدولي لا بد من مراعاتها، كما توصل عناصر حركة حضارية واعية، ونظرية عامة ضابطة للعلاقة بين الحضارات، بعيداً عن «وقاحة الاستنكار»، و«وقاحة الاستعلاء»، و«وقاحة

(١) مسند الإمام أحمد، ٣٦٩/٤، حديث رقم: ١٩٣١٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٤١١/٥، حديث رقم: ٢٣٥٣٦.

الاجتثاث» التي انتهت إليها القيم الكونية المزعومة (التي تمثل عولمة الاستثنائ والهيمنة) تحت دعوة إلى حوار زائف للحضارات، لا هم له إلا الهيمنة والسيطرة والطغيان، في ظل مقولات زائفة، من مثل: «نهاية التاريخ» و«صدام الحضارات» و«الشرعية الدولية» وضمن ما أسماه المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي بـ«هندسة الموافقة والقبول» أو «الموافقة بلا موافقة»^(١)، تبشيراً بالنظام العالمي الجديد، الذي لا مراعاة فيه إلا لمصالح النمط الحضاري الغربي، والتمكين لامتداده وهيمنة لغته، والتحيز لمفاهيمه وقيمه في تحريك الحياة، وما يتبعه من نماذج ظالمة للعلاقة بين حضارته (الذات) والحضارات الأخرى (الأخر) مثل: (استعباد حضارات/ ونفي الحضارات واستتصالها/ و صدام الحضارات وعلاقات الاستثنائ/ وتشكيل الحضارات بالهيمنة/ والتنميط والتهميش للحضارات/ وهندسة الموافقة وحضارة الإذعان/ وتطويع الحضارات وجعلها قابلة للتبعية والاستعمار والانصهار فيما بات يعرف بـ«المجموعة الدولية»^(٢)، وفرض الرأي والكذب على الشعوب)^(٣)، وهي نماذج كلها تنور حول المبدأ الخسيس لسادة البشرية الآن: «كل شيء لنا،

(١) ينظر شرحه لهذين المفهومين في كتابيه: أمريكا وإعاققة الديمقراطية، والربح فوق الشعب. وينظر كتاب: المتلاعبون بالعقول، تأليف: هوبرت أ. شيلر، ترجمة: عبد السلام رضوان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ج ٢٤٣، وهو يبين كيف يجذب محررو الدمي الكبار في السياسة والإعلام ووسائل الاتصال الجماهيري خطوط الرأي العام.

(٢) وهو مصطلح يعني: الولايات المتحدة الأمريكية، وأية دولة توافق على السير في ركابها، ويقابله مصطلح «الدول المارقة» التي ترفض الخضوع لهيمنة الحضارة (الأنجلو - أمريكية) وبهذا يؤل المفهوم لمصلحة الأقوى، وتعظيم مصالحه على الأرض وفي الواقع، كما يقول نعوم تشومسكي في كتابه: العولمة والإرهاب، حرب أمريكا على العالم، ترجمة: د. حمزة المزيني، ط ١ (للقاهرة: مكتبة مبدولي، ٢٠٠٣م) ص ٧٨.

(٣) ينظر في تفصيل تلك العلاقات الشائنة والظالمة بين الحضارة الغربية والحضارات الأخرى: سيف الدين عبد الفتاح، العولمة والإسلام، رؤيتان للعالم، ط ١ (دمشق: دار الفكر، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م) وهذا يدعونا إلى التأمل في الطابع «البراغماتي» لحقوق الإنسان في الغرب، ومفاهيمها التي يراد إلزام الأمم الأخرى بها.

ولا شيء للآخرين»^(١)، وهي تقتضي في ذلك بـ «النموذج الفرعوني»، الذي حدد معالم منهجه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: ٢٩) كما حدد القرآن الكريم معالم أتباعه بقوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف: ٥٤)، ثم كانت العاقبة كما صورها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٦٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْأَوْرَدُ الْمَمْرُودُ ﴿٦٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَسَّ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (هود: ٩٧-٩٩).

فـ «التركية» إذن، مظهرها: «مراعاة حق النفس» و«مراعاة حق الغير» منهج إسلامي أصيل وفريد، وقيمة مركزية في «ترسيخ الذات الإنسانية» و«ضبط حركتها في الحياة» وفق منهج الله في أمره ونهيه، بعيداً عن «النموذج الفرعوني» إن تعاملنا مع النفس (بالاتصاف بتمام التخلق، وتمام التعقل، وتمام التعبد) وإن تعاملنا مع (الغير) (وفق معايير: العدل، والإحسان، والتراحم، والمجاهدة)؛ مما يجعل الأمة الإسلامية، وبحق، أمة القيم (التي تمثل عالمية الاستخلاف والتعارف، ووحدة الانتماء العالمي إلى الله)، كما يجعل العالم الإسلامي مدعواً بقوة إلى: تمكين النفوس التي انقادت للشرع أن تقود، وأن تسهم» بفاعلية في بناء النسق القيمي الحاكم والضابط للعلاقة بين الحضارات، صحيح أنه قد لا يستطيع، الآن، أن يسهم في البناء المادي (التقني) بقوة، إلا أن عليه أن يسهم برؤيته في تعارف الحضارات؛ ليرشد المسيرة الحضارية، هذا الإسهام أحد مستويات شهوده الحضاري، والذي يجب ألا تتخلى عنه، وإلا تخلى عنا»^(٢).

(١) سيف الدين عبد الفتاح، العولمة والإسلام، ص ٩٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢١-١٢٢.

الفصل الثالث

الاستقامة والاستعمار الإيماني للأرض

عمارة الأرض صنعة المؤمن:

إذا كانت «التزكية» كما تقدم، هي الركن الأهم في عملية التغيير، وإنشاء مجتمع «الاستخلاف» بما تمثله من منهج إسلامي فريد في ترقية الإنسان في علاقته بربه، وبنفسه، وبأخيه الإنسان، وبالعالم الأشياء من حوله، فإن «الاستعمار الإيماني للأرض» هو الركن المكمل لعملية «الاستخلاف» والقيمة الحضارية الكبرى في الإسلام التي توظف حركة الاستثمار في الكون، والتعامل مع الأشياء وفق منهج الله في أمره ونهيه؛ حيث المقصد العام للشرعة الإسلامية: إصلاح الأرض وعمارته، وترجيح معاش الناس فيها، وتحقيق التمكين عليها، وتعبيد الفعل البشري لله سبحانه، بحيث تكون جميع فعاليات الكون متجهة إلى الله (عبادة كما شرع، وعمارة للأرض كما أمر) فمهمة الخلافة تقتضي التعمير في الأرض تعميراً مادياً بالمنشآت الصالحة، وبالصناعة والزراعة ومقتضياتهما، وتعميراً معنوياً بإقامة العدل وإشاعة الإحسان بين الناس، يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «إن من أكبر مقاصد الشريعة: الانتفاع بالثروة العامة بين أفراد الأمة على وجوه جامعة، بين رعي المنفعة العامة، ورعي الوجدان الخاص، وذلك بمراعاة العدل مع الذي كُذِّ لجمع المال وكسبه، ومراعاة الإحسان للذي بطأ به جهده. وهذا المقصد من أشرف المقاصد التشريعية»^(١)، ويقول الشيخ علال الفاسي: «المقصد العام

(١) التحرير والتطوير، ٤٤٩/٢.

لشريعة الإسلامية هو: عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، وصلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط خيراتها، وتدبير لمنافع الجميع»^(١).

وهذا «المقصد التشريعي» في الحضارة الإسلامية، يوضحه النهي النبوي عن: «كلالة النفس»^(٢)، يقول النبي ﷺ: «لَيْسَ بِخَيْرِكُمْ مَنْ تَرَكَ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ، وَلَا آخِرَتُهُ لِدُنْيَاهُ، حَتَّى يُصِيبَ مِنْهُمَا جَمِيعًا؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا بَلَاغٌ إِلَى الْآخِرَةِ، وَلَا تُكُونُوا كَلًّا عَلَى النَّاسِ»^(٣)، قال الإمام الزمخشري: «كَلٌّ، أَي: ثِقْلٌ وَعِيَالٌ عَلَى مَنْ يَلِي أَمْرَهُ وَيَعُولُهُ»^(٤)، فـ«الكَلُّ» من الناس، هو العاجز، الذي يثقل عليه الأمر، فلا ينبعث فيه، بل يتكل على غيره في تحقيق شؤون نفسه، وفي قوله ﷺ: «وَلَا تُكُونُوا كَلًّا عَلَى النَّاسِ» لمسة حضارية في غاية الأهمية؛ إذ يشير إلى وجوب أن تشارك هذه الأمة في حركة الحياة مشاركة الأقوياء، ولا تكون عالة على غيرها، فتكون أداة طيعة في يد غيرها يوجهها إلى الوجه الذي يريده هو، وليس على الوجه الذي تريده هي، وهذا القول من علامات النبوة؛ إذ تأمل حولك، فترى كيف ضاع بالغفلة، وكلالة النفس، ما فُتِح علينا، فأفضت بنا كلالة

(١) مقاصد الشريعة ومكارمها، طه (دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م) ص ٤١-٤٢.

(٢) وما أكثر مظاهر هذه «الكلالة» في حياة الأمة الآن، بعد أن تنكبت منهج الوحي في سيرها الحضاري!! ينظر في تعداد مظاهر هذه «الكلالة» في حياة الأمة: عبد المجيد النجار، الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، فقه التحضر الإسلامي، ٧٦/١.

(٣) رواه ابن عساکر، كما جاء في التفسير بشرح الجامع الصغير للسيوطي، للمناوي، ورمز له بالضعف، ٣٢٣/٢، وينظر في تخريجه: كشف الخفاء للعجلوني، ٢/٢٢٠، وكنز العمال، ٨٩/٣.

(٤) للكشاف، ٥٨١/٢-٥٨٢.

النفس إلى ما أفضت بنا إليه، وطمع عدونا في بلادنا، وكاد لنا، وغفلنا بل كللنا، فكان ما كان!!

فلا ينبغي للمؤمن أن يترك عمارة الأرض، فيصبح عائلة على غيره، متكللاً عليه، عاجزاً عن نفع نفسه، متكاسلاً في صنع حياته ومستقبله، منزوياً منكفئاً على نفسه، فيتغلب عليه (الغير)، ويستلبه استلاباً، فيفقد ذاته وميرر بقائه؛ لما في ذلك من الوهن في النفس والمعاش، و«الانحسار الحضاري» للفرد والأمة، بل ولما في ذلك من الوهن في العبادة نفسها!! إذ إن الفقر، في أغلب أحواله، يلهي عن العبادة، بالإضافة إلى أن كثيراً من عبادات الإسلام تحتاج إلى المال الذي هو عصب كل عمران، كالصدقة، والحج، والجهاد، والبر والإحسان إلى (الغير)؛ ومن ثم قال علماء الإسلام: «نعم العون على تقوى الله الغنى»^(١)، كما جاء في الحديث الشريف: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا؟»^(٢) أي: «جاعل صاحبه مدهوشاً، ينسيه الطاعة؛ من الجوع والعري والتردد في طلب القوت»^(٣)، إضافة إلى ما يجلبه الفقر من حرمان، وانحراف للنفوس، قد ينهدم معه بنيان الأمة، يقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَّبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ»^(٤)؛ ومن ثم أوجب فقهاؤنا وجوب سعي الدولة نحو الغنى وكفاية الخلق، لما له من آثار إيجابية في أخلاقهم، وهذا ما بينه الإمام الماوردي، في تحليل نفسي

(١) الإمام الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: الشيخ شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ) ٣٥٥/٥.

(٢) رواه الترمذي في سننه، باب: ما جاء في المبادرة بالعمل، ٥٥٢/٤، حديث رقم: ٢٣٠٦، وقال: «هذا حديث حسن غريب» ورواه الحاكم في المستدرک، ٣٥٦/٤، حديث رقم: ٧٩٠٦.

(٣) المباركفوري، تحفة الأحوذی شرح جامع الترمذي (بيروت: دار الكتب العلمية) ٤٨٨/٦.

(٤) متفق عليه.

يعد من الوثائق الفقهية عالية المستوى، في بيان طبيعة النفس الإنسانية ومحركاتها، وأسباب انحطاطها أو مدارج سلامتها، يقول في بيان القواعد التي تقوم عليها الدولة: «خصب دائم، أي: الوفرة في نتاج الأرض، والممتلكات والأموال، فيها يقل في الناس الحسد، ويتنفي عنهم تباعض العدم، وتتسع النفوس، وتكثر المواساة والتواصل، وذلك من أقوى الدواعي لصلاح الدولة وانتظام أحوالها؛ لأن الخصب يؤول إلى الغنى، والغنى يورث الأمانة والشجاعة»^(١).

فهذا واضح في أن «اليسر المادي» الذي يحققه نمو الإنتاج، واستثمار موارد الحياة، هدف يسعى إليه مجتمع المتقين، وتفرضه النظرية التي يتبناها هذا المجتمع ويسير على ضوئها في الحياة، بعيداً عن أخلاقيات الفقر، ومقتضيات الحاجة والعوز؛ ولعل ذلك كان هو السر في كثرة تعوده ﷺ من «الكسل ورفاقه» كما يقول الصحابي الحليل أنس بن مالك، رضي الله عنه: «كُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُلَّمَا نَزَلَ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبَخْلِ وَالْجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ»^(٢)، ولعل ذلك كان هو السر أيضاً، في كثرة فيه ﷺ عن «التبطل وسؤال الناس» ودعوته إلى «السعي»، في ساحات الحضارة، و«الاحتطاب» من قيمها وأخلاقها وعلومها ومدنيتها ومعاشها، ففي صحيح البخاري: «عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ خَيْلَهُ، فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ»^(٣).

(١) أدب الدنيا والدين، ص ١٢٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الدعوات، حديث رقم: ٦٠٠٢.

(٣) للمرجع السابق، كتاب: الزكاة، باب: الاستغفار عن المسألة، ٥٣٥/٢، حديث رقم: ١٤٠١.

وفيه: «عن عُرْوَةَ بن الزُّبَيْرِ وَسَعِيدِ بن المُسَيَّبِ، أَنَّ حَكِيمَ بن حَزَامٍ، رضي الله عنه، قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قال: يَا حَكِيمُ إِنَّ هَذَا أَمَالَ خَضِرَةَ حُلْوَةَ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَأَلْذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، أَيْدِ الْعُلَيَّا خَيْرٌ مِنَ أَيْدِ السُّفْلَى»^(١)، وقوله عليه السلام: «أَيْدِ الْعُلَيَّا خَيْرٌ مِنَ أَيْدِ السُّفْلَى»، جملة بوركت في أمته ﷺ، وهي ترهّد في المسألة، ومد اليد بالأخذ، ثم هي ترغّب في الثروة، التي يتحقق فيها مد اليد بالعطاء، وحسب المال فضلاً أن تكون اليد به أعلى.

- مفهوم الاستعمار:

واستعمار الأرض، بمفهومه الإسلامي، يعني: الحركة الحية في الأرض؛ لاستثمارها وتعميرها، واستغلال منافعها، وتسخير مرافقها، أي: عمارة الأرض، بمنهج العبودية لله تعالى، والتفاعل مع الكون، علماً بقوانينه، واستثماراً لخيراته، وارتفاقاً بمقدراته، في غير سرف ولا عبث ولا إخلال بنظامه الموزون^(٢).

فهو مفهوم في بنائه الإسلامي، يشير إلى أمرين: أولهما: أنه حركة موصولة بمفاهيم الإسلام عن الكون والحياة والأحياء، وطريقته في تفسير الأشياء، كما أنه مرتبط دائماً وأبداً، ابتداءً وانتهاءً، بمنهج الله تدبراً واعتباراً، تحقيقاً لخلافته، وسعياً لعبادته، وقرباً من رضاه ومحبته، من خلال حركة عمرانية مؤسسة على الوحي، سائرة في صراط الله المستقيم، تقوم على

(١) المرجع السابق، حديث رقم: ١٤٠٣.

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص ٣٤٧، ونجاح العروس، ١٣/١٢٩.

«العلم النافع» و«العمل الصالح»، وتلغي من بنيتها الداخلية كل خصوصية تقوم على «الأنوية» و«الأنانية» و«الظلم» و«التعصب» و«العنصرية»، وقد جمع القرآن هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْلُوكِينَ﴾ (النور: ٣١). وإلى أنموذج أخاهم من حيث القول قال يَنْقُورُ: أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (هود: ٦١)، فـ«الاستعمار» للأرض وفق هذا المفهوم القرآني منظومة تحريك كاملة، واسعة جداً، ينطلق من خلالها المؤمن؛ لكي ينسج علاقاته مع غيره، ومع الطبيعة والأشياء، من زراعة وصناعة وهندسة وبناء، وفق منهج الله في أمره ونهيه، وكل حركة في الأرض لا تكون وفق منهج الله لا تكون «استعماراً» لها، بل هي فساد فيها، والفساد، كما يقول الإمام أبو حيان الأندلسي في تفسيره: (ضد الصلاح، وهو معاندة الله في قوله: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾^(١))، وهكذا يعلم المسلم أن سعيه في الحياة، وحركته في استثمار طاقات الكون، لا ينبغي أن يكون وسيلة لإتلافها، ولا أداة للتمييز عن الآخرين في مظاهر الحياة وزينتها، أو حرمانهم من التمتع بطبيعتها، وإنما هو مسؤولية وخلافة ومشاركة.

ثانيهما: أنه حركة مرتبطة بالعبادة بمفهومها الشامل، وفق المبدأ الإسلامي: «كل تصرف للعبد تحت قانون الشرع فهو عبادة»^(٢)، وهو مبدأ يشمل جميع حركات الإنسان في الكون؛ ولذلك ربطت وظيفة العمران، في أحد أبعادها القرآنية، بعبادة الله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) البحر المحيط، ١٢٤/٢.

(٢) الموافقات، ١٩٤/١.

الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ (التوبة: ١٨)، فيكون سعي العبد في تعمير الأرض، عبادة ، وشعبة من شعب الإيمان البضع والسبعين، احسب منها إن شئت - بين الإيمان بالله والإقرار بوحدانيته، وإماطة الأذى عن الطريق^(١) - كل حركة لتعمير الحياة، من التدبر في آفاق الكون، وسنن الحياة، ومحاربة الاستغلال، وإحسان البنيان، وتصريف الأموال، والكسب الحلال.... وغير ذلك؛ فكل شعبة من شعب الحياة حين يعالجها الإسلام يمزج بينها وبين شعب الإيمان، ويصوغها في إطار من الصلة الدينية للإنسان بخالقه وآخرته!!

بل يعد الاستعمار الإيماني للأرض، والسعي في تحريكها بمنهج الله جهاداً في سبيل الله، وجزءاً من معركة الأمة للاحتفاظ بوجودها وسيادتها وفق المفهوم العام من قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلُمُونَ﴾

(١) كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وألناها إماطة الأذى عن الطريق» كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان، ٦٣/١، حديث رقم: ٣٥. وقد حاول أصحاب السنن حصر هذه للشعب، كما أقام الإمام البيهقي على أساسها كتابه: شعب الإيمان، قال الإمام ابن حجر في فتح الباري، ١/ ٥٢-٥٣: «تكلف جماعة حصر هذه الشعب بطريق الاجتهاد، وفي الحكم يكون ذلك هو المراد صعوبة، ولا يقدح عدم معرفة حصر ذلك على التفصيل في الإيمان، ولم يتفق من عد الشعب على لمط ولحد. وأقربها إلى الصواب طريقة ابن حبان، لكن لم نقف على بيانها من كلامه، وقد لخصت مما أورده ما أذكره هو: أن هذه الشعب تنفرد عن «أعمال القلب» و«أعمال اللسان» و«أعمال البدن».... وفيه جمع المال من حله، وإفلاق المال في حقه، ومنه ترك التبذير والإسراف».

(الأنفال: ٦٠) كما ورد عن ابن عباس، رضي الله عنهما، مرفوعاً: «طلب الحلال جهاداً، وإنَّ الله عز وجل يحبُّ العبدَ المُخترِفَ»^(١)، وفي رواية: «طلبُ أو كسبُ الحلالِ فريضةٌ بعدَ الفريضة»^(٢)، وفي رواية: «طلبُ الحلالِ واجبٌ على كلِّ مسلمٍ»^(٣)، وفي رواية: «إنَّ من الذنوبِ ذنباً لا يُكفِّرُها الصلاةُ ولا الصيامُ ولا الحجُّ ولا العمرةُ. قالوا: فما يُكفِّرُها يا رسولَ الله؟ قال «الهُمُومُ في طلبِ المعيشةِ»^(٤)، ولم يكن في صحابة رسول الله ﷺ، وهم المرجعية والمرتكز الحضاري لهذه الأمة، من يميّز بين الجهادين، جهاد الكسب وجهاد العدو، فقد جاء في ترجمة سعد بن معاذ، رضي الله عنه، «أن النبي ﷺ لما رجع من تبوك استقبله سعد ابن معاذ الأنصاري، فقال: ما هذا الذي أرى بيدك؟ قال من أثر المر والمسحاة، أضرب وأنفق على عيالي، فقبل النبي ﷺ يده، وقال: هذه يد لا تمسها النار»^(٥)، قال الإمام السرخسي معلقاً على ذلك، في لمسة حضارية في غاية الأهمية: «وفي هذا بيان أن المرء باكتساب ما لا بدَّ له منه ينال من الدرجات أعلاها؛ وإنما ينال ذلك بإقامة الفريضة، ولأنه لا يتوصل إلى إقامة الفرض إلا به فحينئذ كان (أي:

-
- (١) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال، باب الاحتراف، ص ٧١، ولورده ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال، ٢٦٣/٦. قال الإمام السخوي في المقاصد الحسنة، ٥٠٥/١: «رواه القضاعي من حديث محمد بن الفضل عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد عنه، وهو عند أبي نعيم في الحلية، ومن طريقه الديلمي عن ابن عمر، وبعضها يؤكد بعضاً لاسيما وشواهدا كثيرة».
- (٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٧٤/١٠، ونحوه في الأوسط، ٣٧٢/٨. ولورده البيهقي في سننه الكبير، ١٢٨/٦، قال: «تفرّد به عباد بن كثير الرملي، وهو ضعيف».
- (٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، ٢٧٢/٨. قال البيهقي في مجمع الزوائد، ٢٩١/١٠: «وإسناده حسن».
- (٤) أخرجه الطبراني في الأوسط، ٣٨/١.
- (٥) الإصلبة في تمييز الصحابة، ٨٦/٣.

السعي في الحياة) فرضاً بمنزلة الطهارة لأداء الصلاة»^(١)، بل ذهب الإمام القرطبي إلى أن تحريك الحياة بالتجارة وكسب المال، والجهاد في درجة واحدة سواء، سوى الله بينهما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُوٌّ وَعَآخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَعَآخِرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (المزمل: ٢٠)، قال القرطبي: «سوى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال، للنفقة على نفسه وعياله والإحسان والإفضال؛ فكان هذا دليلاً على أن كسب المال بمنزلة الجهاد؛ لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله»^(٢)، بل ذهب الإمام محمد بن الحسن الشيباني إلى أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه «كان يقدم درجة الكسب على درجة الجهاد، فيقول: لأن أموت بين شعبي رحلي أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله أحب إلي من أن أقتل مجاهداً في سبيل الله؛ لأن الله تعالى قدم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضله على المجاهدين بقوله تعالى: ﴿وَعَآخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَعَآخِرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾»^(٣).

وبذلك تكون حركة الحياة - عبر التفاعل مع الكون اعتباراً وتعميراً في خط العبودية لله تعالى - تأخذ، في المفهوم الإسلامي، صفة الواجب، ومفهوم العبادة، وتصير إرادة ربانية ينبغي أن يجري معها المسلم، وينحدر في تيارها، إعمالاً لمقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر، وتفعيلاً لمقاصد الشريعة في إعمار الكون، وتحقيقاً لمهام

(١) المبسوط (بيروت: دار المعرفة) ٢٤٥/٣٠.

(٢) تفسير القرطبي، ٥٥/١٩.

(٣) الإمام الشيباني، كتاب: الكسب، تحقيق: د. سهيل دكار، ط ١ (دمشق: دار عبد الهادي حرسوني، ١٤٠٠هـ) ص ٣٣.

استخلاف الإنسان في الأرض؛ باعتبار البناء العمراني، على تعدد أنماطه، مطلباً دينياً شأنه شأن سائر مطالب الدين، يُحاسب المسلم عليه، إن استقال من عمارة الكون، فأخل بواجبات البناء والعمران فيه، قال الإمام الجصاص في بيان قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، يعني أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه، وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض، للزراعة والغراس والأبنية»^(١).

فاستعمار الأرض، واجب ديني، ومطلب من مطلوبات الإسلام، يجب على الفرد المسلم تحقيقه، فإذا هو أخل به، أو قصر في أدائه، فقد قصر في دينه، وأخل بالغاية التي من أجلها وُجد وهي مهمة الخلافة في الأرض، ولعل ذلك هو أحد المعاني التي يشير إليها حديث النبي ﷺ، وهو يعلمنا أبعاد الدور الحضاري وغايته ومده، فيقول في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في المسند^(٢)، والإمام البخاري في الأدب المفرد^(٣): «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ، وَبَيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَلَّا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ، وَفِي رَوَايَةٍ: فَلْيَغْرِسْهَا»، وفي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ: «مَنْ بَنَى بُيْتَانًا مِنْ غَيْرِ ظُلْمٍ وَلَا اغْتِدَاءٍ، أَوْ غَرَسَ غَرْسًا فِي غَيْرِ ظُلْمٍ وَلَا اغْتِدَاءٍ، كَانَ لَهُ أَجْرٌ جَارٍ (وَفِي رَوَايَةٍ: كَانَ لَهُ أَجْرٌ جَارِيًا) مَا انْتَفَعَ بِهِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»^(٤).

فهذان الحديثان، وغيرهما كثير، يشيران إلى أن الدور الحضاري للمسلم في تعمير الأرض، واستثمار طاقات الكون، مستمر منذ لحظة الوعي الأولى وحتى ساعة

(١) أحكام القرآن للجصاص، ٣٧٨/٤.

(٢) حديث رقم: ١٢٩٢٥، ١٨٣/٣.

(٣) حديث رقم: ٤٧٩، ١٦٨/١.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث رقم: ١٥٦٥٤، والطبراني في المعجم الكبير، ١٨٧/٢.

الحساب، وأن الحركة الإسلامية في الأرض ينبغي أن تكون حركة إبداعية مستمرة؛ ترقياً في عبادة الله؛ إذ إن «غراسة الفسيلة في هذه الحالة ليست لغاية الارتزاق وتلبية الحاجة، وإنما هي استجابة لغاية التعمير في الأرض، التي هي غاية في ذاتها مطلوبة بالدين. إن من شأن هذا الوعي أن يدفع بالمسلم إلى آفاق الكون يياشرها بالفكر والعمل، بغاية الارتفاق التعميري باعتبار ذلك ديناً، وليس هو مجرد سد حاجة أو تحقيق رفاه، فيكون الوازع الإيماني في التعمير المادي هو المحرك للنفس كي تنفر في الانتفاع بالبر والبحر وما فيهما من خير، وفي بناء العمران على اختلافه، وفي إقامة التصنيع لإنتاج الكساء والآلة الميسرة للحياة ولطرق العمل للمزيد من الإنتاج. وحينما يكون المسلم واقعاً في نفسه أن ذلك كله إنما الإقدام عليه هو عبادة لله، فإنه سيكون نافرأً إليه كما ينفر إلى سائر العبادات، فإذا نادى داعي العمل في أي مجال كان، لى المسلمون نداءه في نفر جماعي كما تراهم يلبون نداء الصلاة من يوم الجمعة»^(١).

ويؤكد هذا المعنى- أن تعمير الأرض والبناء فيها وفق منهج الله عبادة يجب على المسلم أداؤها، ويثاب على فعلها، ويأثم بتركها- هي النبي ﷺ فيما سبق عن «كلالة النفس» بقوله: «ولا تكونوا كلاً على الناس»، وكذلك ما جاء في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»^(٢)، ففي هذا

(١) عبد المجيد النجار، الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، عوامل الشهود الحضاري، ٢/٢٢٣٨، عماد الدين خليل حول تشكيل العقل المسلم (الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ص ١٣٦.

(٢) سبق تخريجه.

الحديث الشريف دليل على أهمية العمل والسعي الحضاري والتعمير الإيماني للأرض، كما أن فيه دليلاً على فساد ما يذهب إليه بعضهم من الركون والدعة والبعد عن عمران الحياة، بدعوى «الزهد» متذرعين في ذلك بأحاديث من نحو حديث النبي ﷺ: «ارْزُقْ فِي الدُّنْيَا يُحْيِكَ اللَّهُ، وَارْزُقْ فِي الْآخِرَةِ يُمِيتِكَ اللَّهُ»، وحديث: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ»^(١). والحقيقة أنهم فهموا معنى الزهد فهماً سليماً، وهو ترك إعمار الحياة، والسعي في الأرض، وهذا مناف لكل حقائق الإسلام، بل المراد من الزهد هنا كما هو واضح «الزهد الإيجابي» الذي يدعو المرء إلى إعمار الدنيا،

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، ١٣٧٣/٢ كتاب: الزهد، باب: الزهد في الدنيا، حديث رقم: ٤١٠١. والحاكم في المستدرک، ٣٤٨/٤، حديث رقم: ٧٨٧٣، وروايته: «وَارْزُقْ فِي الدُّنْيَا يُحْيِي الْإِنْسَانَ يُحْيِيكَ النَّاسُ» قال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، ٥٦١/٤، حديث رقم: ٢٣٢٢، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وأخرجه ابن ماجه في سننه، ١٣٧٧/٢، حديث رقم: ٤١١٢، أما ما يذهب إليه بعضهم من أن النبي ﷺ كان يلقي عليه أوقات جوع فيها، ولا يجد فيها مالاً؛ مما يعني أنه كان فقيراً، فهذا يحتاج إلى مراجعة؛ إذ الحق أنه ﷺ كان غنياً، وقد أحصى الإمام السيوطي في تفسيره «الدر المنثور»، سورة الحشر، مصادر ثروة النبي ﷺ فظهر أنها كبيرة جداً من الغني والغنم وغير ذلك، بيد أنه ﷺ كان يذخر منها القليل وينفق الباقي على المسلمين، بل كان في غالب أمره لا يبسط منها شيء عنده، كما جاء في صحيح البخاري ٢٩١/١، عن عتبة قال: «صَلَّيْتُ وَرَأَى النَّبِيُّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ الْعُسْرَ فَنَزَلَ، ثُمَّ قَامَ مُسْرِعاً، فَتَخَلَّى رِقَابَ النَّاسِ إِلَى بَعْضِ خُبَرِ نِسَائِهِ، فَفَرَّغَ النَّاسُ مِنْ سُرْعَتِهِ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، فَرَأَى لَهُمْ عَجَباً مِنْ سُرْعَتِهِ، فَقَالَ: فَكَّرْتُ شَيْئاً مِنْ تَبَرُّعِ عَدَنًا فَفَرَّغْتُ أَنْ يَخْضُمَتِي فَلَمَزْتُ بِقِسْمَتِهِ»، وفي صحيح ابن حبان، ٤١٩/٢: «اشْتَدَّ وَجْعُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ سَبْعَةُ نَفَائِرٍ أَوْ ثَمَنَةٍ، فَقَالَ: يَا عَقِشَةُ مَا قَطَعْتَ تِلْكَ الذَّهَبَ؟ فَقُلْتُ: هِيَ عِنْدِي، قَالَ: تَصْنَعِي بِهَا، قُلْتُ فَشَغَلْتُ بِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا عَقِشَةُ مَا قَطَعْتَ تِلْكَ الذَّهَبَ؟ فَقُلْتُ: هِيَ عِنْدِي، فَقَالَ: لَتَنَّتِي بِهَا، قُلْتُ: لَجِئْتُ بِهَا فَوَضَعْتُهَا فِي كَفِّ، ثُمَّ قَالَ: مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ أَنْ لَوْ لِقِيَ اللَّهُ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟».

والسعي فيها، وفق منهج الله في أمره ونهيه، ووفق قيم الإسلام الحاكمة والضابطة لسعي المسلم في الحياة، فلا يمتلك المرء مخيلة ولا بطراً، ولا يتحكم فيه إسراف ولا ترف، ولا يغتر بالدنيا وزينتها فيفسر فيها ظلاماً وطغياناً وفساداً، والذي من شأنه «أن يميت في النفس الاهتمام بالأعمال الصالحة، والمنافسة لاكتسابها، فينحدر به التوغل في الإقبال على اللذات إلى حضيض الإعراض عن الكمال النفساني، والاهتمام بالآداب الدينية»^(١)، بل يكون سيداً للدنيا لا عبداً لها، ومالكاً للطيبات لا مملوكاً لها، مسخرهاً الدنيا لنفسه وفق منهج ربه، وقد كان ذلك منهج نبينا ﷺ وأصحابه الكرام، رضي الله عنهم أجمعين، فقد كان ﷺ يأكل من طيبات هذه الحياة، ولكنه لم يجعلها شغله الشاغل، ولا محور همومه، وكان من دعائه ﷺ دبر كل صلاة: «اللهم أني أعوذُ بك من الكُفْرِ وَالْفَقْرِ»^(٢)، كما كان منه أيضاً: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا»^(٣).

فالمسلمون الذين يمارسون إعمار الأرض بوصفها جزءاً من السماء التي يتطلعون إليها، ويساهمون في تنمية الثروة باعتبارهم خلفاء عليها، أبعد ما يكونون عن «الزهد السلبي» الذي يقعد بالإنسان عن دوره في الخلافة، وأقرب ما يكونون إلى «الزهد الإيجابي» الذي يجعل منهم سادة للدنيا لا عبيداً لها، ويحصنهم ضد التحول إلى طواغيت لاستغلال الآخرين، ونهب خيراتهم، فيكون سعيهم الحضاري في الحياة موطراً بقوله تعالى: ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلَهِكُهُمْ

(١) التحرير والتنوير، ١٧٨/٢٠.

(٢) سنن النسائي: باب: التعوذ في دبر الصلاة، ٧٣/٣، حديث رقم: ١٣٤٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب: الدعوات، باب: التعوذ من فتنة الدنيا، ٢٣٤٧/٥، حديث رقم: ٦٠٧٢.

أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ (المنافقون: ٩)، وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ
 فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال: ٢٨)، والحياة، وفق هذا
 المنهج في السعي، إنما العون على الآخرة، ولا خير فيمن لا يسعى إليها،
 أما حينما يتعد السعي في تحريك الحياة عن منهج الله، وتُتخذ وسيلة للإفساد،
 أو تُعد غاية الغايات، فهذا هو السعي الذي يبعد الإنسان عن ربه، ويخرجه عن
 وظيفة الخلافة في الدنيا؛ ومن ثم يجب الزهد فيها.

ومن أجل أن ينتزع الإسلام من الفرد المسلم هذا التعلق الشديد بالدنيا
 وهو ما أعطى للدنيا حجمها الطبيعي، من حيث هي وسيلة إلى الحياة الآخرة،
 وليست هدفاً في ذاتها، والدنيا حينما تتخذ هدفاً يتعارض مع الآخرة، أي مع
 عملية البناء العظيمة التي تدعو إليها الآخرة وتحت عليها، تتحول من دار للتعبد
 والاستخلاف، إلى أرض للهو والفساد. وأما حينما تتخذ الدنيا طريقاً للآخرة،
 أي: أداة ينمي الإنسان في إطار خيراتها وجوده الحقيقي وعلاقته بالله، وسعيه
 المستمر نحو المطلق في عملية البناء والإبداع والتجديد، فإن الدنيا تتحول في هذه
 النظرة العظيمة من كونها مسرحاً للتنافس والتكالب على المال، إلى مسرح للبناء
 الصالح والإبداع المستمر، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ
 الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ
 وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧).

أبعاد الاستعمار بمفهومه الإسلامي

أولاً: البعد الإيماني والإنجاز الحضاري في الكون:

المسلم في سعيه الحضاري لتعمير الحياة، واستثمار مواردها، ينطلق من إيمانه بالله تعالى، الذي سخر له كل ما في الكون من موارد، وأمره باستثمارها؛ سعياً لعبادته، وتحقيقاً لخلافته، وطلباً لثوابه ورضاه، ففي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعاً، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»^(١)، قال العلامة ابن حجر: «وفي رواية لمسلم» «إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ومقتضاه: أن أجر ذلك يستمر ما دام الغرس أو الزرع مأكولاً منه، ولو مات زارعه أو غارسه، ولو انتقل ملكه إلى غيره.. قال الطيبي: نكر مسلماً، وأوقعه في سياق النفي، وزاد من الاستغراقية، وعم الحيوان؛ ليدل، على سبيل الكناية، على أن أي مسلم كان حراً أو عبداً، مطيعاً أو عاصياً، يعمل أي عمل من المباح، ينتفع بما عمله أي حيوان كان، يرجع نفعه إليه ويثاب عليه»^(٢).

ففي هذا الحديث لمسة حضارية رائعة جاء بها الإسلام في فهم معنى الاستعمار الإيماني للأرض، والدور البشري في ذلك، فاللمسة الحضارية هنا لمستان: النظر الرفيق إلى الحيوان والطير، والنظر التشجيعي إلى كل مسلم إلى السعي والتعمير في الأرض علماً واستنفاعاً؛ ابتغاء الثواب والأجر، حتى ولو كان فاسقاً، تبعاً للتعميم والإطلاق كما شرح الطيبي، بل «وفيه حصول الأجر للغارس

(١) سبق تخريجه.

(٢) فتح الباري، ٤/٥.

والزارع، وإن لم يقصدا ذلك حتى لو غرس وباعه أو زرع وباعه كان له بذلك صدقة؛ لتوسعته على الناس.. وفيه الحظ على عمارة الأرض لنفسه وللمن يأتي بعده» تبعاً للتعميم والإطلاق كما شرح العيني^(١).

فانطلاق المسلم في تعمير الأرض من الإيمان بالله، هو معيار تُقَيَّم على أساسه استقامة حركته في الحياة أو انحرافها، وهذا المعيار يعطي العبد في سعيه الحضاري:

- قوة دفع في «تحريك الحياة» ويمنحه قدرات فوق قدراته الموهودة؛ إذ يسير في إنحازه الحضاري مقترباً بإمداد الرب وتوفيقه، فيتعبد عن الظن أو الوهم، بل يدرك الأشياء على حقائقها، ويفقه منافعها (دفع البصيرة) كما جاء في الحديث: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَافُلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَبِإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْظِيَّتِهِ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعْيِذِكُهُ»^(٢).

- كما يمنحه الإيمان بالله وتقواه للذي يملك الحياة والأحياء، بقاءً وامتداداً لأعماله في الزمان وفي المكان (البركة) قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦)، فهذه الآية الكريمة توقفتنا على مفتاح التوفيق الإلهي، وتقرر أصلاً من أصول التصور الإسلامي للاستعمار الإيماني للأرض، وهو: أن الإيمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية في هذه

(١) عمدة القاري، ١٥٥/١٢-١٥٦.

(٢) سبق تخريجه.

الدنيا، لا يكفل لأصحابه جزاء الآخرة وحده، وإن كان هو المقدم وهو الأقدم، ولكنه كذلك يكفل إصلاح أمر الدنيا^(١).

- كما يمنحه الإيمان بالله السعادة والطمأنينة، فيسير في تحريكه الحياة وهو لا يشوبه قلق، ولا يحيط به اكتئاب، ولا يملوه عبث ولا اضطراب، مهما أصابته شدة، أو رقت في وجهه العوائق؛ إذ يعلم علم يقين أن كل ما في الكون إنما هو بتقدير حكيم رحيم، وأن أي شيء من منفصات الحياة إنما هو ابتلاء من خالقه، أبصر أم يكفر؟ فلا يخشى فقراً، ولا يخاف موتاً، ولا يضعف عند مرض، إذ هو دائماً وأبداً لاجئاً إلى ربه، فيطمئن قلبه وتهدأ حركته، ويحسن سعيه، ويحصل له «أنس» يمدّه بقوة تغذى بها روحه، فكل ما حوله صديق، إذ كل ما حوله من صنع الله الذي هو في حماه، و«سَكِينَةٌ» تمكنه من آداب السعي في الأرض وتعميرها، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)، أي: «تطمئن بإحساسها بالصلة بالله، والآنس بجواره، والأمن في جانبه وفي حماه. تطمئن من قلق الوحدة، وحيرة الطريق، بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير، وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضر ومن كل شر إلا بما يشاء، مع الرضا بالابتلاء والصبر على البلاء. وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة... ليس أشقى ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون؛ لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بما حوله في الله خالق الكون، ليس أشقى ممن يعيش لا يدري: لم جاء؟ ولم يذهب؟ ولم يعاني ما يعاني في الحياة؟ ليس أشقى ممن يسير في الأرض يوجس من كل شيء خيفة؛ لأنه لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شيء في هذا الوجود،

(١) انظر في ذلك: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢٦١/٣-٢٦٣.

ليس أشقى في الحياة ممن يشق طريقه فريداً وحيداً شارداً في فلاة، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين. وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكناً إلى الله، مطمئناً إلى حماه، مهما أوتي من القوة والثبات والصلاة والاعتداد.. ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله، فلا يصمد لها إلا المطمنون بالله»^(١).

- وفي الوقت نفسه يصبح هذا الإيمان بالله ضماناً لعدم تحول هذه الطاقة من طاقة بناء إلى طاقة استغلال، وكفر بالله، وأداة من أدوات التنافس المحموم على هب موارد الأرض، وتدمير مقدراتها، والتفرد بالتمتع بخيراتها، واستعباد الخلق (ضوابط التمكين) قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج: ٤١)، فكل حركة في الحياة تأتي بعيداً عن الإيمان بالله، هي أساس كل انحراف. وحمل هموم الدنيا، بعيداً عن أطر الوحي يؤدي، في النهاية، إلى التخلي عن دور الخلافة الرشيدة على الأرض، والبعد عن القيم المعصومة، التي توجه المسيرة، وتحدد الهدف، وتشد الإنسان إلى السماء، كما نلاحظ ذلك جيداً في النموذج الاستعماري الغربي المنقطع عن هدي السماء، وأخلاقياته في تحريك الحياة.

وهكذا يأتي «البعد الإيماني» في السعي الحضاري، لا لكي يمنح حركة المسلم في تعمير الحياة البقاء والامتداد، ويحميها من التفكك والتبعثر والانحيار، فحسب، بل يمنح سعيه أيضاً ضماناً من التطاول والاستعلاء، واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وفقاً لسنة الله في الحياة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣).

(١) في ظلال القرآن، ٣٦٧/٤.

ثانياً البعد الغائي:

وهو البعد الثاني من أبعاد الاستعمار الإيماني للأرض، وفق المنظور الإسلامي في «تحرّيك الحياة»، فقد تقدم أن خلافة الإنسان في الأرض ليست خلافة مطلقة، بل هي «خلافة اقتدائية» أساسها: الإيمان بالله تعالى، وغايتها: تحقيق «مقصد العبادة في الأرض» وفق مراد الله وحده في أمره ونهيه، وقد اقترنت هذه الغاية بالإنسان منذ لحظة الخلق الأولى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، فهي تجعل الله هدفاً للمسيرة، وغاية للتحرك الحضاري الصالح على الأرض؛ وهذا يقتضي أن يكون المسلم في سعيه الحضاري لقيادة الكون، وإعمار اجتماعياً وطبيعياً، محكوماً بقيم (الاستخلاف الإلهي) التي توطن الإنسان بفلسفة تكريم كلية مستوعبة، والكون والطبيعة بفلسفة تسخير وإعمار لخير الإنسانية، بحيث يستطيع الإنسان أن يتجاوز الماديات، للارتقاء إلى ربط كل المفاهيم بالقيم المطلقة التي حددها الشرع، وطلب الالتزام بها.

وهذا معناه أن الاستعمار الإيماني في الأرض، يتجه وفق غايات مناقضة تماماً لتلك الغايات المنقطعة عن الله عز وجل، فلا تقف غايات الاستعمار الإيماني في الأرض عند «إطار الدنيا» فقط، كما في الفلسفة المادية التي تقوم في مجملها على انتفاء الغائية في الوجود بأكمله، بل هي في عمومها تقوم على اعتبار أن هذه الحياة الدنيا غاية في ذاتها، لا يمتد منها أثر إلى ما وراءها، بل هي عند بعضهم عبثية في وجودها وفي سرورها!! مما أدى إلى «إطلاق العنان للعقل التقني» منفصلاً عن أية قيمة أو غائية، وبعيداً عن أي قيد أخلاقي يمكن محاكمته إليه، كما أدى إلى «التطرف في الشهوانية» و«فقدان التوازن في التعامل مع الأشياء»، بدءاً من المحيط/المجال الصغير، بأزهاره وثماره، وانتهاء إلى الكون/الفضاء الكبير، ببحاره

وأفلاكه وطبيعته وكل شيء فيه، وهو ما أدى في النهاية إلى ما يمكن أن يُطلق عليه: «التخلف الكوني»^(١)، الذي يعد نتيجة أساسية، وإفرازاً طبيعياً لمنظومة «القيم الحداثية» المنقطعة عن الغيب، وقيم الوحي المعصومة.

أما غايات الاستعمار في الأرض، في المنظومة الإسلامية، فهي غايات مشروطة بمراعاة الآخرة، محكومة بقيم تمثل ضابطاً ومنظماً لكل سعي للإنسان في تحريك الحياة، بحيث يكون العبد في تعميره الدنيا، وتحريكه للحياة فيها، ناظراً إلى الآخرة ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧)، فـ«ابتغاء الآخرة» هو المحرك الدائم لفاعليات الإنسان المسلم، في سياق المسؤولية والأمانة والاستخلاف العمراني في الكون، فهي حركة يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة، ويكون فيها الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا، ويكون الإنتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة، فينتقل في حركته من أسر المادة، ويرتفع عن حضيض الحياة الدنيا إلى الحياة العليا^(٢)؛ «إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة»^(٣).

(١) وهو مفهوم اشتقه الدكتور عبد الوهاب المسيري، في مقابلة المفهوم الغربي «التقدم» في إطاره المادي الذي يهدم كل ما هو إنساني؛ ذلك أن هذا «التقدم» بمظهره العلمي الصناعي، المنقطع عن الغائية والقيمة، قد أثر بشكل سلبي في الكون، ومفرداته، واستمرار عطلتها، بل وفي الإنسان نفسه... ينظر: حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري، الثقافة والمنهج، تحرير: مسوزان حزفي، ص ٣١٤-٣٢٧.

(٢) ولعل ذلك هو سبب مشكلة الغرب الثقافية مع الإسلام؛ فهو لا يعرف إلا المادية المتطرفة.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٩٠-١٩١.

كما أنها غايات لا تقتصر على إشباع حاجات الإنسان المادية، من طعام وشراب ومسكن وجنس، باعتبارها هي كل مطالب الإنسان الأساسية، وليس ما وراءها من مطالب العقل والروح إلا مطالب ثانوية!! بل غايات الاستعمار الإيماني في الأرض تنظر إلى مطالب العقل والروح على أنها مطالب لا يجوز إغفالها، أو إنتاج ما يؤدي إلى تدميرها، فهي أساسية للإنسان كالطعام والشراب والمسكن والجنس، فكلها ضروريات لصلاح الإنسان في الدنيا والآخرة جميعاً، بل هي أعلى منها في الاعتبار؛ لأنها هي المطالب الزائدة في الإنسان على الحيوان، أي: المطالب المتعلقة بخصائصه التي تقرر إنسانيته، والتي يهاهدرها لا يُعد الإنسان من الأنعام بل من الأنعام!! فالاستعمار الإيماني في الأرض لا يفرق بين المادي والروحي، حيث المادي مستبطن بالروحي ﴿قُلْ إِن صَّلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢).

وهذا البعد الغائي للاستعمار الإيماني في الأرض، القائم على التواصل الحميمي بين «حق الدنيا» و«حق الآخرة» وإشباع «متطلبات الروح» كما تشبع «متطلبات المادة» يستوجب، في السعي الحضاري الإسلامي، قراءة مدخل «سد الذرائع وفتحها»^(١)؛ لأنه يقوم على اعتبار الحكَم (المقاصد) والمآلات (الغايات) في الأعمال ومسيرتها وتتابعها، أي: النظر في المقصود والغاية من كل حركة، فهو ضابط منهجي يعطينا القدرة على رؤية عمق العلاقات بين الحركات

(١) وهو ما أسميه بمبدأ «التدبير والاعتبار» الذي يوجب الجمع بين «حكمة الأشياء» و«أساليبها» بين «منطلقاتها» و«مآلاتها»، فيأخذ الفعل حكماً يتفق مع ما يؤول إليه، بناء على النظر إلى نتائج الأفعال وثمراتها؛ فيمنع ما يجوز من الوسائل إذا كانت مفضية إلى ما لا يجوز، بالنظر إلى مآلات الأفعال، ومعرفة تداعيات تنزيل الحكم المستقبلية، فتقدر على أساسها المصالح، وتبنى الأحكام.

ومآلاتها، كما يعطينا القدرة على كشف كل حركة عبثية في الحياة لا تتفق وهذا البعد الغائي، فُترض أية حركة في الحياة تركز على الدنيا فحسب، وتجعلها المقصود الوحيد أو الأسمى، كما تُرفض أية حركة تركز على إشباع الحاجيات المادية فحسب، ولا تحاول أن تجمع بين متطلبات المادة ومقتضيات الروح، ومعنى آخر: يُرفض أي سعي في «تحريك الحياة» يكون مقصوده السيطرة على الكون، وإشباع الشهوات، وهزيمة الطبيعة، وتسخير مواردها، وتحقيق هيمنة الإنسان الكاملة عليها، فحسب، بعيداً عن أية غائية إنسانية، فلا يرتبط بقاعدة الحكمة (لماذا)، ولا بقاعدة المآل (وماذا بعد).

إن البعد الغائي للاستعمار الإيماني للأرض من أصوله، إذن، الجمع، في كل سعي، بين الدنيا والآخرة، بين حاجيات المادة ومقتضيات الروح، في سياقٍ متكامل فيه الرؤى، فيربط بين مقاصد الأشياء والقيم المتحركة فيها، من جهة، وبين الحركة في الكون، استخلاقاً وتعميراً وإصلاحاً، ومآلاتها من جهة أخرى، أي: أنه استعمار يمارس كافة أوجه الحياة الدنيا من منظور أخروي، أو بعبارة أدق: منظور ممتد، يصل ما بين الحياة الدنيا والآخرة، وهذا يترتب عليه أمران:

أ- تحقيق التوازن وإقامة العدل في الأرض؛ فالذي ينطلق في تحريك الحياة، استخلاقاً واستعماراً، وفق منهج الله في أمره ونهيه، وتنفيذاً لمراده فيها، وإجراءً لأحكامه عليها، ومن مبدأ أن حياته غاية، ولوجوده معنى مستقبلي، يتجاوز به لحظته الراهنة إلى أمد مقبل، مدركاً أن النعيم المقيم في آخرته مرتبط بما يقدمه من أعمال في الدنيا، الذي ينطلق من ذلك كله تتوازن فيه عناصر المادة مع عناصر الروح، فيعمل لترقية الروح ورفعها، في الوقت الذي يعمل فيه على حفظ الحياة

وامتدادها، كما يتوازن فيه عنصر العقل مع عنصر الأحاسيس والعواطف، فينطلق في عالم الأشواق وعالم النوازع بلا تفريط ولا إفراط، كما يتوازن فيه البعد الفردي مع البعد الجماعي، في قصد وتناسق واعتدال، وهذا كله يدفع إلى التوازن في النمو، والإعمار، واستغلال مسخرات الله في الكون، فلا يعتبر معدلات «الاستهلاك» هي النقطة المرجعية التي يستخدمها في الحكم على الأمور وفق المفهوم المادي الغربي السائد للتقدم حيث مبدأ: «ندرة الموارد ولا نهائية الحاجات»، بل مرجعيته هي مقدار تحقيقه لقيم الإسلام التي تقوم على التوازن في كل شيء، وإقامة العدل بتحقيق التوازن بين كل الأجيال حيث مبدأ: «لا نهائية الموارد وضبط الحاجات»، فلا يسعى جيل بعينه للتمتع والاستفادة، أو الاستئثار بكل طاقات الكون، على حساب آخر، بل يقوم كل جيل بمزيد من الواجبات التي تحفظ حياة الجيل الآخر، وفقاً لمفهوم «الأمة» الذي جعله الله رباطاً جامعاً لعموم المسلمين، على امتداد الزمان والمكان، وموصلاً لعناصر الحركة الواعية في الحضارة الإسلامية ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (المؤمنون: ٥٢)، فليس الوجود الجماعي داخل الأمة تكتلاً من أجل تحصيل مزيد من الحقوق، إنما تجمُعاً من أجل القيام بمزيد من الواجبات، والانصاف بقيم التزكية، فيكون ارتباط الواحد بأبناء أُمته، ممن يعاصره أو ممن يأتي بعده، ارتباط تراحم وإحسان^(١)!! وهذا بخلاف من يعيش لحظته، منقطعاً عن آخرته، فيكون

(١) ينظر في مفهوم «الأمة» وخصائصه، وما يستتبعه من علاقات بين أفرادها: منى أبو الفضل، الأمة للقطب، نحو تأصيل منهجي لمفهوم الأمة في الإسلام، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي، رقم ١٤ (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م)؛ أحمد حسن فرحات، والأمة في دلالاتها العربية والقرآنية (عمان: دار عمار للنشر والتوزيع، ١٩٨٣م)؛ وينظر: طه عبد الرحمن، روح الحدثة، ص ٢٢٧.

همه في تحقيق مطالب يومه، وإشباع غرائزه، فيفقد أية دوافع تدفعه للتوازن في التعامل مع نفسه، أو مع الأشياء، كما هي حركة الحياة الآن^(١).

ب- تحقيق الحياة الطيبة؛ إذ لا شك في أن الاستعمار الإيماني للأرض، بهذه الغائية، يؤدي في النهاية، إلى «الحياة الطيبة» التي يهبها الله لمن كان مستهدياً بهديه، يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧)، و«الحياة الطيبة» لا تعني: «مجموعات الاستهلاك» أو «مجموعات إنتاج الوفرة» أو «مجموعات تتجاوز الحاجات» كما في المنظور المادي، بل هي، في المنظور الإسلامي، حالة من السرور، والكمال يشعر بها الفرد في حياته اليومية، نتيجة استمتاعه بخيرات الحياة على الدوام، فلا حيرة ولا قلق، ولا شرود ولا ضلال، وذلك من خلال حركة حضارية تقوم على: «نفع العلم» و«كمال العقل» و«سعادة الأبد» و«التحكم في أهواء الذات وإصلاح أحوالها» و«التوازن في الانتفاع بالأشياء» و«النظر في الأفعال بعين من يتعظ بأحوالها وأطوارها، ويأخذ العبرة من مآلاتها».

يقول الإمام ابن القيم: و«الحياة الطيبة» هي «حياة القلب ونعيمه، ومحبته وسروره، بالإيمان، ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه؛ فإنه لا حياة

(١) يقول غارودي في كتابه: حفارو القبور، ص ٢٣-٢٤: «فقدت سفينة الأرض، التي نبحر نحن كلنا على متنها اتزانها، وهي مهددة اليوم بعد خمسة قرون من الهيمنة الغربية المطلقة بالسقوط، إذا ما استمررنا في هذا الطريق، لم تكن للتخيل إدارة أسوأ من ذلك لكوكب الأرض» ومصطلح «سفينة الأرض» من المصطلحات المهمة، التي لها امتداد في الهدى النبوي (ينظر: حديث لسفينة) والتي ينبغي أن تشيع في التداول الحضاري، فهو يدل على معاني الاتصال المسؤول، الواعي البناء، لا مطلق الاتصال، أيًا كانت طبيعته ونتائجه.

أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة، كما كان بعض العارفين يقول: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب. وقال غيره: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً. وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح؛ فإنه ملكها، ولهذا جعل الله «المعيشة الضنك» لمن أعرض عن ذكره، وهي عكس «الحياة الطيبة»^(١).

فـ الحياة الطيبة «هذا المفهوم مرتبطة بغائية الإيمان بالله، وتحريك الحياة وفق منهجه في أمره ونهيه، وهي غاية الاستعمار الإيماني في الأرض، إذ فيها الاتصال بالله والثقة به، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه، كما أن فيها الصحة والهدوء والرضا والبركة، وسكن البيوت ومودات القلوب، وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة؛ ففي الوقت الذي تقف فيه» نظريات التنمية السياسية المعاصرة عند تحقيق مجتمع «الاستهلاك» الوفير، أو دولة «الرفاهية» غاية لعملية التنمية، يعتبر الإسلام تحقيق «الحياة الطيبة» - وهي البديل المعتدل للرفاهية- عائداً، أو نتيجة، أو أثراً لتحقيق العبادة الشاملة لله وحده في جميع نواحي الحياة، سعياً للوصول إلى الجنة»^(٢).

ثالثاً: البعد الأخلاقي:

والمراد بالبعد الأخلاقي هنا: جملة القيم (المقاصد) والمعايير (الوسائل) التي تحيط بهذا الاستعمار وتوجهه، فالمسلم في سعيه الحضاري، وتحريكه للحياة، ينبغي أن ينطلق من الفهم المعنوي للحياة، والإحساس الخُلقي بما؛ فكل سعيه فيها يكون محكوماً بقيم الإسلام الحاكمة والضابطة لكل حركاته، في غاياته التي يرمي إلى

(١) مدارج السالكين، ٢/٢٥٩.

(٢) نظريات التنمية السياسية المعاصرة، ص ٢٨٦.

تحقيقها، وفي الطريقة التي يتخذها لذلك؛ إذ هو ليس بالسائب، كما تقدم، بل محكوم ولا بد بقيم الوحي، ذلك... أو التخبیط!!

ويعد تعبير: (الحلال، والحرام وما بينهما من مراتب الندب والاستحسان والكراهية) في الإسلام خير تجسيد للقيم والمثل التي تضبط حركة المسلم في تعمير الأرض، وتحريك الحياة؛ لأن قصة الحلال والحرام في الإسلام تمتد إلى جميع النشاطات الإنسانية، وألوان السلوك: سلوك الحاكم والمحكوم، وسلوك البائع والمشتري، وسلوك المستأجر والأجير، وسلوك العامل والمتعطّل، وسلوك الإنسان مع الأشياء وكل مظاهر الحياة «فكل وحدة من وحدات هذا السلوك هي إما حرام وإما حلال، وبالتالي هي إما عدل وإما ظلم، لأن الإسلام إن كان يشتمل على نص يمنع عن سلوك معين سلبى أو إيجابى فهذا السلوك حرام، وإلا فهو حلال»^(١).

فالمسلم مطالبٌ في كل سعيه لتحريك الحياة، بحفظ الحقوق، ومراعاة الأخلاق، وفقاً للمبدأ الإسلامى العام: «أن لكل خلق حقاً أو حقوقاً تخصه» أوجبها الذي خلقه، وسخر له هذا الكون بكل ما فيه؛ ومن ثمّ تصير الضوابط الأخلاقية، والقيم الحاكمة، شرعاً منزلاً، وعباداتٍ شرعيةً، يجب أن تنبع عن دافع نفسى نير، يدفع الإنسان إلى تحريك الحياة، واستعمارها وفق منهج الله في أمره ونهيهِ، وقيمه الحاكمة الضابطة؛ طلباً بذلك رضا الله تعالى، والقرب منه.

وهذه الضوابط والقيم الحاكمة مجملّة في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

(١) محمد باقر الصدر، اقتصادنا (بيروت: دار المعارف) ص ٣٨٣.

(القصص: ٧٧)، فهي ضوابط أربعة تمثل «قيماً» تتحكم في سعي المسلم في «تحريك الحياة»: «ابتغاء الدار الآخرة» و«أخذ النصيب من الدنيا»، و«الإحسان في حركة الحياة»، و«عدم الفساد في الأرض».

ويمكن تقسيم هذه القيم إلى: قيم تؤثر حركة الإنسان في عمارة الأرض عموماً، وإلى قيم تضبط نظرتة إلى الأشياء، وحركة تعامله معها، على النحو التالي:

أ- القيم الأخلاقية، التي تضبط حركة الإنسان في عمارة الكون عموماً، وهي قيم يتلقاها كل مسلم عادة من الإسلام، ويتكيف بها نفسياً وروحياً، ويحدد سعيه وتحريكه للحياة وفقاً لآدابها، فيكون في سعيه تابعاً لها وموجهاً بها، ويمكن إجمالها في قيمتين جامعتين:

أولاهما: تحصيل «العلم النافع»، و«العمل الصالح»، فليس، في الإسلام، سعي نحو مطلق «العلم» أو مطلق «العمل» لكي يتحكم الإنسان في الظواهر، ويشبع رغباته وملذاته، بل لابد من تقييد الأول بالنفع، والثاني بالصلاح الذي يجلب الرزق الطيب، والعمل المتقبل، كما جاء «عن أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ حِينَ يُسَلِّمُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْماً نَافِعاً، وَرِزْقاً طَيِّباً، وَعَمَلاً مُتَقَبَّلاً»^(١)، ولا تجد آية في القرآن الكريم تذكر الإيمان إلا وتربطه بالعمل الصالح: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٨٢)...

و«العلم النافع» هو ما كان باعثاً على العمل، وفق منهج الله في أمره ونهيه، فلا يطلب المسلم العلم لذاته، بل لما يثمره من المنافع، ولا يقتصر على العلم بظاهر

(١) سنن ابن ماجه، ٢٩٨/١، حديث رقم: ٩٢٥.

الأشياء، بل يتطلع أبداً إلى العلم بباطنها أو آجلها، ومن خلاله يتحكم الإنسان في أهواء الذات وإصلاح أحوالها، أو كما يقول الإمام الشاطبي: «هو العلم الباعث على العمل، الذي لا يخلي صاحبه جارياً مع هواه كيفما كان، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه طوعاً أو كرهاً»^(١)، فهو العلم الذي يحقق الحفاظ على الوجود، والصلاحية والفعالية والاستمرارية للحياة، وما عدا ذلك ليس إلا عطالة حضارية، وفق قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧).

و«العمل الصالح» هو ما كان مؤدياً إلى صلاح البشرية في الحال، وفلاحها في المآل؛ فهو أصل هادف إلى عمران الإنسان في كل تكويناته وعلاقاتها بما يهدف إلى ترقية الوجود في جميع المجالات الحضارية؛ وهذا يتحقق وجوده من خلال^(٢):

- النظر في حكمة الفعل قبل سببه، أي: النظر في المقاصد ومدى تحقيق الفعل لها، فإن وافق مقاصد الشرع، وغاياته الكلية، عُمل به، وإن خالفها ترك؛ إذ «قصد الشارع من المكلف أن يكون قصده في العمل موافقاً لقصده في التشريع.. والمطلوب من المكلف أن يجري على ذلك في أفعاله، وألا يقصد خلاف ما قصد الشارع»^(٣).

- والنظر في مآل الفعل قبل حاله، إذ يجب في الشريعة «اعتبار المآل في تحصيل المصالح، أو درء المفاصد»^(٤)، أي: استشراف الأثر المترتب على هذا الفعل

(١) الموافقات، ٦٩/١.

(٢) ينظر: طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، ص ٨٦، وينظر له: روح الحداثة، ص ٩٣.

(٣) الموافقات، ٣٣١/٢-٣٣٢.

(٤) المرجع السابق، ٢٣٣/٤.

في المستقبل، فإن كان ماله حسناً فُعل، وإن كان قبيحاً بَانَ أدى إلى مفسدة ظاهرة، أو يؤدي إلى مناقضة مقصد شرعي، فهو باطل مردود باتفاق الجميع، حتى ولو بدا نافعاً في الحال والظاهر؛ إذ إن الظاهر لا يعبر عن الحقيقة كلها، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تُطِيعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١١٦)، وقال سبحانه، فيمن يقتصرون على الظواهر: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: ٧).

- ثم إن صلاح العمل، وفق الرؤية الإسلامية وأصولها، لا يقتصر على ما يجلبه من صلاح في الدنيا وحدها، بل يكون في تواصل الدنيا والآخرة معاً؛ ومن ثم فإنه لا يحكم على الفعل بالصلاح بناء على ماله من الظواهر والآثار الدنيوية، حتى يكون على بينة من آثاره الأخروية؛ بناء على أن كل عمل المسلم، حتى ولو كان معاشياً، إنما هو تعبد لله تعالى، وهذا هو معنى «الاستخلاف» وما أراده الإمام القرافي بقوله: «لا يوجد حق العبد إلا وفيه حق الله تعالى»^(١)، وما أكدّه الشاطبي بقوله، مبيناً وجوب نية الامتثال لله في أمره ونهيه في كل حركات العبد؛ لأن «في الأعمال المكلف بها طلباً تعبدياً على الجملة»^(٢)؛ ومن ثم فالأفعال تعرف مصالحها ومفاسدها وتوزن، من حيث تقام الحياة الدنيا للآخرة، لا من حيث أهواء النفوس وشهواتها في جلب المصالح ودرء المفاسد.

إن فهم هذه العلاقة بين وجوب تحصيل «العلم النافع» و«العمل الصالح» والسعي الحضاري في الأرض، يكمن في عبارة دقيقة ساقها الإمام ابن القيم،

(١) للفرق وهوامشه، ٢٥٦/١.

(٢) للموافقات، ٣١٧/٢.

حينما وضع التفاعل في منهج الفقه الإسلامي بين الواجب (القيمة) والواقع، وأن كلاً منهما يجب أن يتنزل على الآخر، علماً نافعاً وعملاً صالحاً، فيقول: «فها هنا نوعان من الفقه لابد للحاكم منهما، فقه في أحكام الحوادث الكليّة، وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس، يُميّز به بين الصادق والكاذب والمُحقّ والمُعطّل، ثم يُطابق بين هذا وهذا، فيعطي الواقع حكمه من الواجب، ولا يجعل الواجب مخالفاً للواقع، وإلا ضاع الواجب والواقع، بين تفلت من الواجب، وغربة من الواقع»^(١)، وبهذا يتبين أن مبدأ «العلم النافع» و«العمل الصالح» يقضي بأن نجعل حداً للهرولة الشديدة إلى التطبيقات التقنية للعلم، بل يقضي بأن نراجع مدلول البحث العلمي نفسه، فنقيه خادماً للحاجات الموجودة، لا خالقاً لها حيث لا توجد، وخاضعاً لقانون المقاصد والمآلات، لا لمنطق الأسباب والأحوال وحده... فليس كل تطبيق نافعاً، ولا كل بحث مشروعاً، وتتجلى هذه الإعادة في تقرير تبعية الأسباب في الأشياء للحكم التي من ورائها، وتبعية أحوالها للمآلات التي تنتهي إليها، ومتى تقررَت هذه التبعية للحكم والمآلات، صار بالإمكان الارتقاء من نطاق الإجراء الآلي، إلى رحاب العمل المقصدي»^(٢)، فاستعمار الحياة، في المنظور الإسلامي، عملية، في أصل مقصودها، تنجّه صوب النفع والصالح؛ ومن ثم لا يمكن تحريكها إلى مناطق هي ضد هذا القصد الأصلي في العمران، إلى عناصر «طغيان» أو «فساد» أو «تخريب» أو «خلل» أو غير ذلك مما هو مفض لتقويض الأصول العمرانية، حتى ولو بدا ذلك تحت دعوى التقدم التقني والبحث العلمي!!

(١) ابن القيم، الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية، ص ٥.

(٢) روح الحديث، ص ٩٤-٩٨.

لثانيتها: ابتغاء الفضل من الله، فالمسلم في سعيه الحضاري لا يعمل بمبدأ السوق القائم على العمل بلا قيد، والتنافس بلا شرط، والربح بلا حد، واعتبار المصلحة المادية الخالصة وفق المنظور الغربي السائد الآن، بل سعيه في تحريك الحياة مشروط بـ«ابتغاء الفضل من الله»، كما قال تعالى، آمراً بالسعي في الأرض: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة: ١٠)، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا ثَلَبُوسًا وَلَكُمْ فِيهَا مَآخِذٌ وَمَأْوَاكُمُ يَوْمَ تَغْشَى السَّحَابَ الْغَلُظُ وَالَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ مِنْهُ رِجَالًا وَحَمَلُوا أَثْقَالًا وَتَنْتَظِرُونَ لِقَا أَعْيُنِكُمْ وَأَصْفَاكُمْ فِي الْأَعْيُنِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَبُونَ﴾ (النحل: ١٤).

فـ«الفضل» ليس مطلق سعي في تعمير الأرض مجرداً من الاعتبار الخُلقي، بل هو السعي المشروط بالخير والإحسان^(١)، ثم إنه فضل من الله؛ تبييناً إلى أنه سبحانه هو المالك الحقيقي، فلا يدخل الإنسان في سعيه بغي ولا طغيان، ولا يتصرف الإنسان في سعيه إلا بما يقربه من حضرة ربه المتفضل عليه، مما يضمن لسعيه: أمرين، الأول: «التوفيق الإلهي» أي التسديد إلى ما فيه المنفعة، فيكون السعي محفوظاً بمقاصد الشرع، موجهاً لها، بعيداً عن مخاصمة الشرع أو مجانبته، والثاني: «العون الرباني» الذي يجلب «دوام الإنتاجية» فترتفع إنتاجيته، وتكثر منفعته، مادياً كان أو معنوياً، وتحصل البركة في السعي امتداداً في الزمان والمكان، وفي هذه الحال يصير سعي العبد في تعمير الحياة، وتحريكها بمنهج الله، عبادة كما هو شائع في القول المأثور^(٢)، فيكون سعيه منتجاً ومسدداً ومؤيداً على الدوام،

(١) ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٥٠٨/٤.

(٢) كما جاء في المواقفات، ٣١٧/٢. الإمام الزيلعي الحنفي، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٣١٣هـ) ٢٢٦/٤.

وفي هذه الحال، أيضاً: «تغدو التجارة، لا تبادل سلع تستنفد قيمتها في الاستهلاك المادي كما هو الشأن في اقتصاد السوق، وإنما تبادل أفضال تعرج بالمستهلكين إلى الأفق الروحي، وهكذا يتبين أن مبدأ «ابتغاء الفضل».. يجعل القيم الأخلاقية والروحية في صلب عملية التنمية الاقتصادية، بحيث لا تكون هذه التنمية نافعة ولا مشروعة، أي لا تكون تزكية بحق إلا إذا سعت إلى تحقيق هذا المقصد الخلقي والروحي، ومتى خالفته وجب مراجعة النظر فيها، بل تركها إلى تنمية أخرى؛ لأنها ليست مقصداً في ذاتها، وإنما وسيلة إلى مزيد التخلق»^(١).

على أن «ابتغاء الفضل من الله»، في تعمير الحياة، يقتضي عدة أمور، تعرف في فقهنا الإسلامي بـ «آداب المكسب»^(٢)، وهي كلها ضوابط أساسية لأي نشاط حضاري فعال، ومدارها إلى «منع الظلم والاحتكار، وتزييف الحسابات وغش المعامل، وترويج البضاعة بالكذب والربا، وتطيف المكيال والميزان، واللعب بالأسعار والتغابن، وسائر أنواع الفساد»^(٣). ومن أبرز هذه الآداب:

١- طلب الحلال، فيجتهد المسلم في سعيه وكسبه، وتحريكه الحياة، في تحرّي الحلال؛ إذ إنه من أهم ما يقرب العبد من ربه، عملاً بقول رسول الله: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾»

(١) روح الحداثة، ص ٩٢.

(٢) ينظر في هذا الباب ما كتبه كل من: الإمام أبو حامد الغزالي في كتبه إحياء علوم الدين، ربيع العادات، كتب: لكسب والمعيشة، والإمام أبو طالب المكي، في كتبه: قوت القلوب، لفصل السلب والأربعون، ذكر حكم المتسبب للمعاش وما يجب على التاجر من شروط العلم. وكان السلف الصالح، رضوان الله تعالى عليهم جميعاً، حريصين على تعليم الناس هذه الأدب، إحياء علوم الدين ٦٤/٢.

(٣) الشيخ عبد السلام ياسين، في الاقتصاد الإسلامي، للبواغث الإيمانية والضوابط الشرعية، ص ٩٠.

(المؤمنون: ٥١)، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (البقرة: ١٧٢)، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَلْغَى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»^(١)، وقد نص علماؤنا على أن من أكل الحرام فقد قتل نفسه، وقتل أخاه؛ لأنه أطعمه إياه، وليس هذا من سبيل المؤمنين؛ فالقلب الصادق المتوجه إلى الله، والمستمسك بأمره ونهيه، لا يكسب إلا الطيب، وليس بينه وبين الخبيث نسب، ولك أن تتصور المجتمع المسلم، وقد قامت فيه حركة الأموال والتنمية وتوظيف الثروات على هذا الأساس الكريم، واجتنب أصحاب رؤوس الأموال مداخل الخبيث والشبهة، وأقاموا حركة ماله على الكسب الطيب؛ ومن ثم جعل النبي ﷺ التساهل في طلب الحلال من علامات آخر الزمان، فقال: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لَا يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ، أَمِنَ الْخَلَالُ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ»^(٢).

٢- إحسان السعي، وذلك بإتقان الصنعة، وصلاحها، وحسن بقائها، مع نهاية في تجويدها وإحكامها، وهي قيمة ذات بعد ذاتي، على معنى أن هذا «الإحسان الحضاري» ليس من مطلوبات الدين، باعتبار ما يتحقق به للإنسان من منفعة آنية ظاهرة فحسب، بل هو مقتضى من مقتضيات الأمر الإلهي؛ إذ العبد مسؤول عن إحسان سعيه أمام ربه يوم القيامة، وهذا مقتضى قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»^(٣)، وقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى

(١) صحيح مسلم، كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، حديث رقم: ١٠١٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: البيوع، باب: من لم يبال من حيث كسب المال، حديث رقم: ١٩٥٤.

(٣) سبق تخريجه.

يحبُّ إذا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقَنَهُ»^(١)، قال الإمام النّاوي: «أي يحكمه، كما جاء مصرحاً به في رواية؛ وذلك لأنّ الإمداد الإلهي ينزل على العامل بحسب عمله، فكل من كان عمله أتقن وأكمل فالحسنات تضاعف أكثر، وإذا أكثر العبد أحبه الله تعالى»^(٢)، وقال أيضاً في موضع آخر: «فعلى الصانع الذي استعمله الله في الصور والآلات والعُدَد مثلاً أن يعمل بما علمه الله عمل إتقان وإحسان، بقصد نفع خلق الله الذي استعمله في ذلك، ولا يعمل على نية أنه إن لم يعمل ضاع، ولا على مقدار الأجرة، بل على حسب إتقان ما تقتضيه الصنعة... فمضى قصر الصانع في العمل لنقص الأجرة، فقد كفر ما علمه الله، وربما سلب الإتقان»^(٣)، وفي حديث ذي دلالة ولمسة حضارية رائعة في أهمية تجويد العمل وتحسينه باعتباره مقتضى إلهياً، بعيداً عن النفع الآني للمشهود، يقول عاصم بن كليب الجرمي: «حدثني أبي كليب أنه شهد مع أبيه جنازة شهدها رسول الله ﷺ وأنا غلام أعقل وأفهم، فانتهى بالجنازة إلى القبر، ولم يُمكن لها، قال: «فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يقول: سَوُّوا لِحْدَ هَذَا، حتى ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ سُنَّةٌ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَمَّا إِنَّ هَذَا لَا يَنْفَعُ الْمَيِّتَ وَلَا يَضُرُّهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مِنَ الْعَامِلِ إِذَا عَمِلَ أَنْ يُحَسِّنَ»^(٤)؛ لأن الفعل الحسن الصالح هو وحده القادر على تشييد وعمارة الحياة التي يريدها خالق الحياة والأحياء، وهذا الفقه من النمط العالي الذي ينبغي أن تُربي عليه الأمة.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم: ٥٣١٢، وهو في المعجم الأوسط، ٢٧٥/١، حديث رقم: ٨٩٧.

(٢) التيسير بشرح الجامع للصغير، ١/ ٢٦٩.

(٣) فيض القدير، ٢/ ٢٨٦-٢٨٧.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٣٣٥/٤، حديث رقم: ٥٣١٥. وروى نحوه الطبراني في المعجم الكبير، ١٩٩/١٩.

٣- السماحة والصدقة، فينبغي للمسلم في سعيه الحضاري، وتعميره الأرض، أن يكون سمحاً، مكثرأ من الصدقة؛ شكراً للنعم الذي وهب، ورحمة بعباده الذين خلق، وأن تكون نفسه يقظة واعية في مباشرتها وتعاملها مع ما يفيض عليها رها من نعم، حتى تزداد هذه النعم ثراء، ويزداد حسننها حسناً، ويزداد عطاؤها عطاء، وهذا معنى جيد وتوجيه بالغ الوعي في «تحريك الحياة»، فقد قال ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ خُلُوَّةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أُعْطِيَ مِنْهُ الْمُسْكِينُ وَالْيَتِيمُ وَابْنُ السَّبِيلِ، أَوْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذْهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيداً عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، ووراء جملة المدح هذه، «فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أُعْطِيَ مِنْهُ الْمُسْكِينُ وَالْيَتِيمُ وَابْنُ السَّبِيلِ»، معنى أنه: بئس المال صاحباً إذا ضيع فيه حق اليتيم والمسكين وابن السبيل، وكأنه سلاح ذو حدين «قال الشيخ أبو حامد: مثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع، وسم نافع، فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز من شرها، وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة، وإن أصابها السوادى الغبي فهي عليه بلاء مهلك»^(٢)، وما أكثر السوادى الغبي في أيامنا هذه!! وإذا كان هذا الحديث يعلمنا «سخاوة العطاء» فإن هناك حديثاً مكملأ له، يعلمنا «سخاوة الأخذ» فعن حَكِيم بن حَزَام، رضي الله عنه، قال سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: يَا حَكِيمُ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ خُلُوَّةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسِ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، الْيَدُ

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري، صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: الصدقة على اليتامى، ٥٣٢/٢، حديث رقم: ١٣٩٦. وصحيح مسلم، كتاب: الزكاة، باب: تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، ٧٢٨/٢، حديث رقم: ١٠٥٢.
(٢) عمدة القاري، ٤١/٩.

الْعَلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»^(١)، وكان «السخاء» في التوجيه النبوي الشريف ملازم للمال، لمعطيه ولآخذه، وإذا تعاملنا مع الثروة بسخاء عطاء، وسخاء أخذ، أي: من غير استشراف، ولا تطلع، ولا حرص، كانت نعم الصاحب، وكانت موضع البركة، وهذا معنى: «بُورِكَ لَهُ فِيهِ»، وقد قال علماؤنا^(٢): إن البركة خلق من خلق الله، يعني حقيقة من حقائق خلقه سبحانه، يعمل بها الدرهم عمل الدينار، وبدونها لا يعمل الدينار عمل الدرهم، والكلام النبوي الشريف يقرن البركة بالسخاوة، وأن المال يسحو، أي: يزيد مع النفس السخية، التي لا تستشرف إليه، ولا تدعه يدب إلى جوهرها، فيجب أن يكون سعي الأمة في تحريك الحياة قائماً على «السماحة في المعاملة، واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحة، والحض على ترك التضيق على الناس في المطالبة، وأخذ العفو منهم»^(٣)، وهذا المقصد، كما يقول العلامة الطاهر بن عاشور^(٤)، من أشرف المقاصد التشريعية، ولقد كان مقدار الإصابة والخطأ فيه هو ميزان ارتقاء الأمم وتدهورها.

فحينما يلتقي الأمران: «صواب التعامل مع الثروة» على الوجه الذي يجلب نفعها ويكف ضررها، ثم «ضبط إحساس النفس» وكف جماحها حتى لا تفترسها هذه «الخنزيرة الحلوة» ترى الثروة تنمو وتتكاثر، وتنفع وتكون ثروة برة بالمسكين واليتيم وابن السبيل؛ ومن ثم حرم الإسلام كل سعي في الحياة، يكون قائماً على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، أيّاً كان.

(١) صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: الاستغفار في المسألة، ٥٣٤/٢، حديث رقم: ١٤٠٣.

(٢) فتح الباري، ٣/٣٢٧، وعدة للقاري، ٥٣/٩.

(٣) فتح الباري، ٤/٣٠٧.

(٤) التحرير والتوير، ٣/٤٥.

- فحرم الربا، قال ﷺ: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»^(١)، قال الإمام المناوي: «أي تسبوا في وقوعه بهم، ولم يقل العذاب، بل زاد الاسم زيادة في التهويل والزجر؛ وذلك لمخالفتهم ما اقتضته الحكمة الإلهية من حفظ الأنساب، وعدم اختلاط المياه، وأن الناس شركاء في النقد والمطعم لا اختصاص لأحد به إلا بعقد لا تفاضل فيه»^(٢).

- وحرم الغش في البيوع والصنائع، وقال علماؤنا: من كثر ذلك منه فهو فاسق، لقوله ﷺ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»^(٣)، وقال ﷺ: «مَنْ بَاغَ غِيًّا لَمْ يُبَيِّنْهُ، لَمْ يَزَلْ فِي مَقْتِ اللَّهِ، وَلَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تَلْعَنُهُ»^(٤)؛ فاستعمارنا الإيمان للأرض لا يحل فيه الغش، ولا الكذب الذي يخلق لدى الإنسان وعياً زائفاً وميلاً لأشياء لا تمثل حاجة حقيقية لديه، ولا تحقق له أي نفع، ومن ثم فالدعاية الكاذبة لا مكان لها، قال أبو طالب المكي، رحمه الله: «لَيَقُ الْبَاغُ مَدْحَ السَّلْعَةِ وَتَنْفِيقَهَا مِنْ خُرْفِ الْكَلَامِ، وَلِيَحْذَرِ الْمُشْتَرِي ذِمَّاهَا وَعَيْبَهَا بِمَا لَيْسَ فِيهَا لِلْخُدَاعِ، وَأَمَّا الْإِيمَانُ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مَعْصِيَةٌ وَمَحَقَّةٌ لِلْكَسْبِ، وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَشْدُدُونَ فِي ذَلِكَ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ مَنْ نَفَرَ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمُ التَّاجِرَ الْفَاجِرَ، وَكُنَّا نَعُدُّ مِنَ الْفُجُورِ أَنْ يَمْدَحَ السَّلْعَةَ بِمَا لَيْسَ فِيهَا»^(٥).

- وحرم الاحتكار، الذي يعني انعدام التداول، وانحسار حيز الخيارات، وخضوع المجتمع لسلطة رأس المال وتوجيهاتها المطلقة، فجعل الإسلام منع الناس

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١/١٧٨، والحاكم في المستدرک، ٢/٤٣.

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير، ١/١١٤.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: قول النبي ﷺ «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» ١/٩٩، حديث رقم: ١٠١.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، ٢/٧٥٥، حديث رقم: ٢٢٤٦.

(٥) قوت القلوب، ٢/٢٣٨.

من تناول حاجياتهم، وحجزها عنهم، صدأ عن سبيل الله، وتعطيلاً لمقصد من مقاصد الشريعة في حفظ النفس وتوابعها، وحفظ العقل وارتباطاته، وحفظ المال وما هو في حكمه، فقال ﷺ: «لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِيٌّ»^(١)، وعن اليسع بن المغيرة قال: «مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِرَجُلٍ بِالسُّوقِ يَبِيعُ طَعَاماً بِسَعَرٍ هُوَ أَرْخَصُ مِنْ سَعْرِ السُّوقِ، فَقَالَ: تَبِيعُ فِي سَوْقِنَا بِسَعَرٍ هُوَ أَرْخَصُ مِنْ سَعْرِنَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: صَبِراً وَاحْتِسَاباً؟ قَالَ نَعَمْ. قَالَ: أَبْشِرْ؛ فَإِنَّ الْجَالِبَ إِلَى سَوْقِنَا كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُحْتَكِرُ فِي سَوْقِنَا كَالْمُلْحَدِ فِي كِتَابِ اللَّهِ»^(٢).

- وحرم بخس الناس أشياءهم، فقال تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْإِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٣)
(الأعراف: ٨٥)، قال القاضي أبو بكر بن العربي: «البخس في لسان العرب هو النقص بالتعيب والتزهد، أو المخادعة عن القيمة، أو الاحتيال في التزيد في الكيل أو النقصان منه»^(٤)، فالبخس قد يكون بالقول تهوياً واستقصاً وإشاعة، وقد يكون بالفعل احتيلاً أو نقصاناً، وكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل.

٤- القصد والاعتدال، وهو الطابع الذي يضبط به الإسلام كل سعي للاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا، والمعيار الذي تقيّم به كل الحركات، والفقهاء العمراني الذي وجه الحضارة الإسلامية بأكملها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مِمَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) صحيح مسلم، كتاب: المساقاة، باب: تحريم الاحتكار في الأوقات، ٣/١٢٢٨، حديث رقم: ١٦٠٥.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک، ١٥/٢، حديث رقم: ٢١٦٧.

(٣) أحكام القرآن، ٣١٨/٢.

الْمُعْتَدِينَ ﴿١﴾ (المائدة: ٨٧) ويقول ﷺ: «مَنْ فَقِهَ الرَّجُلُ رِفْقَهُ (أي: قصده) فِي مَعِيشَتِهِ»^(١)، فالمسلم كما هو مطالب بالتمتع بطيبات الحياة، مطالب كذلك بالاعتدال وعدم الاعتداء في التعامل مع طيبات الحياة انتفاعاً واستثماراً، فيأتي سعيه معتدلاً مقتصداً، بعيداً عن الإسراف والتبذير، واستهلاك ما هو أكثر من المباح، حتى لا تصير الإمكانات التي كان الشأن أن تكون مصدر خير وقوة وغلبة لنا سبيلاً إلى الفساد والإفساد، الذي يحرم البشرية من بركات الأرض وخيراتها، وهذا ملحوظ عجيب، قال تعالى: ﴿يَبْقَىٰ مَادَمٌ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١)، بل يأتي النهي عن الإسراف والتبذير في القرآن الكريم على صورة مروعة، حينما يقرن الله تعالى المبذرين بالشياطين، ويجعلهم إخواناً لهم، فيقول: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢٧)، ومن هذا المداد يأتي قول النبي ﷺ: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَابْسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلُّ مَا شِئْتَ، وَالْبَسْ وَاشْرَبْ مَا شِئْتَ، مَا أَخْطَأْتُكَ اثْنَانِ سَرَفٌ أَوْ مَخِيلَةٌ»^(٢)، وهذا النهي عن الإسراف يشمل الفرد والمجتمع، كما يشمل كل ثروة تناح، فيجب أن تستغل بعقل وحكمة، وإلا كانت وبالاً ونقمة؛ إذ الإنفاق الزائد، والتبذير في الشهوات، غالباً ما يرجع بالضرر على حق النفس بتبديد طاقتها بلا مبرر، أو بتعويدها الطمع «فيخبث وهج الشوق والتطلع إلى العمل، ويقذف بالإنسان إلى التقاعس والكسل، ويفتح أمامه أبواب الشكوى والحسرة في حياته، حتى ليحمله يمين دوماً، تحت مضض الشكوى والسأم، كما أنه

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ١٩٤/٥، حديث رقم: ٢١٧٤٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب اللباس، ٢١٨١/٥.

يفسد إخلاصه، ويفتح دونه باباً للريا والتصنع، فيكسر عزته، ويريه طريق الاستجداء والاستخذاء. أما «الاقتصاد، فإنه يثمر القناعة، والقناعة تنتج العزة، كما أنه يشحذ الشوق بالسعي والعمل، ويحث عليهما، ويسوق سوقاً إلى الكد وبذل الجهد فيهما»^(١)، كما أن في الإسراف اعتداءً على حق الغير بحرمانه مما ينتفع به، إن حالاً للمعاصر، وإن مستقبلاً للأجيال القادمة؛ ولذلك نسب إلى معاوية، رضي الله عنه: «كُلَّ سَرَفٍ قَبَازَاتِهِ حَقٌّ مُضَيَّعٌ»^(٢)، ونسب إلى أبي بكر، رضي الله عنه، أنه قال: «إني لأبغض أهل بيت ينفقون رزق أيام في يوم واحد، وقيل: ما وقع تبذير في كثير إلا هدمه، ولا دخل تدبير في قليل إلا ثمره، وقيل: إنك إن أعطيت مالك في غير الحق يوشك أن يجيء الحق وليس عندك ما تعطي منه»^(٣)، فهذا يثمر على أن الفقر والحرمان ليس نابعاً من الطبيعة نفسها، وإنما هو نتيجة سوء التوزيع والانحراف عن العلاقات الصالحة التي يجب أن تربط الأغنياء بالفقراء، وقد قيل بحق: «رفاهية المستكبرين ثمنها يؤس العالمين»^(٤)، و«ما جاع فقير إلا بما منع غني».

٥- فقه أولويات السعي وأصول العمران، فحركة المسلم في تعمير الحياة ينبغي أن تكون حركة واعية، وذلك بالسعي فيما يحقق إشباع حاجيات الأمة الأساسية، بدرجة من الكفاية، بحسب ظروف الزمان والمكان، وبحسب المقاصد

(١) بديع الزمان النورسي كليات رسائل النور، اللغات، ترجمة: إحسان الصالحى (إستانبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٣م) ص ٢٢٢.

(٢) أدب الدنيا والدين، ص ١٨٧.

(٣) أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق: عمر الطباع (بيروت: دار القلم، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م) ١/ ٥٧٩.

(٤) الشيخ عبد السلام ياسين، في الاقتصاد، ص ٢٠٩.

الشرعية (حفظ الدين الذي هو الإطار المرجعي التأسيسي للأمة/ وحفظ النفس الفردية والجماعية/ وحفظ الكيان واستمراره في إطار العمارة الإنسانية وتنمية الموارد البشرية/ وحفظ المال وما يقوم عليه من عمليات التنمية وال عمران/ وحفظ العقل وما يحمله من عناصر التكوين الثقافي وترسيخ عناصر القيم المتعلقة به) وما لم يتوفر مستوى الكفاية، والحد الأدنى من الأشياء الضرورية، فلا يجوز توجيه هذه الطاقات القادرة على توفير ذلك إلى شيء آخر.

فالعمل واستثمار طاقات الكون، في المنظور الإسلامي، يتم وفقاً لأولويات الواقع، وأولويات الشرع في مقاصده، فيضع الضروريات (ما لا تقوم حياة الفرد إلا به، ولا تستمر إلا بوجوده، بحيث إذا فقد لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وفوت حياة) قبل الحاجيات (جملة الحاجات الإنسانية في مستويات يسبقها مستوى الكفاف الإنساني) ثم ينظر إلى الكماليات (حركة الإحسان الحضارية، التي تحقق قدراً من الرفه غير المفضي إلى الإسراف والتبذير) إذ لا شك، كما يقول ابن خلدون: «أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه؛ ولأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه، ولأن أول مطالب الإنسان الضروري، ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلًا»^(١).

فيجب السعي في الكون انتفاعاً واستثماراً، أولاً فيما يحافظ على أصل وجود الأمة، وثانياً فيما يحافظ على فعلها وحركتها، وثالثاً فيما يحافظ على إحسانها وإبداعها، وهذا ما أقره علماؤنا؛ عند شرح قول النبي ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ،

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ١٢٢.

إلا كان له به صدقة» إذ اختلفوا: أي الأعمال يكون بها الأجر أكثر؟ ثم قال الإمام العيني: «يختلف الحال في ذلك باختلاف حاجة الناس، فحيث كان الناس محتاجين إلى الأقوات أكثر، كانت الزراعة أفضل للتوسعة على الناس، وحيث كانوا محتاجين إلى التجر لانقطاع الطرق، كانت التجارة أفضل، وحيث كانوا محتاجين إلى الصنائع أشد كانت الصنعة أفضل وهذا حسن»^(١)، وهذا من الفقه العالي الذي يحتاج إليه أمتنا في سعيها الحضاري أشد الاحتياج؛ إذ كثير من ثروات الأمة تبدد هنا وهناك فيما لا طائل تحته، وتهدر طاقاتها فيما لا يعود بالنفع الحقيقي عليها، ثم تطلب المعونات بعد ذلك تتكفف الناس!!

ولا شك في أن «فقه أولويات السعي» من «أصول الفقه الحضاري» الذي يقتضي متطلبات عدة، ويعتمد على منظومة من المستلزمات، ومناطق التفكير والتدبير، وإدراك الواقع، وفهم حركته وامتداداته التاريخية والمستقبلية، بجانب القدرة على رسم خارطة أولويات، يُقدم فيها ما حقه التقديم، ويؤخر ما حقه التأخير، وفقاً لقاعدة المراتب المقاصدية: الضروري، فالحاجي، فالتحسيني، وليس للتحسينات أن تتقدم على الحاجيات، أو الحاجيات على الضروريات في مختلف جوانب الحياة، كما يتم فيها الموازنة بين المقاصد المتزاحمة؛ ليختار منها الأولى، والذي يعم نفعه، وتتعدد مصالحه، مثل: المقارنة بين ما يحقق الرفاهية من بعض الصناعات، وما يقتضيه ذلك من إضرار بالبيئة، وتدمير لموارد الحياة، وحينئذ تكون الأولوية، وفق المنظور الإسلامي للحفاظ على البيئة، وموارد الحياة، بل يحرم أي سعي يخالف ذلك، كما سيأتي بيانه.

(١) عمدة القاري، ١٢/١٥٥.

وهذا ليس تمهيناً من الأفعال أو بعضها، ولكن وزناً لها؛ لضبط عملية الأولويات في الأفعال، في مختلف جوانب الحياة... ذلك أو التخبط، بل الضياع!! إذ من نافلة القول تأكيد أن الاختلال في ميزان الأولويات يورث خللاً في السعي الحضاري، وضعفاً في تسخير الكون وتوجيهه حسب الحاجات ووفق القيم، وهذا إما أن يؤدي إلى «الفوضوية» في الممارسة والعمل؛ إذ تسير الأمة في تحريك الحياة على غير هدى، وإما إلى «التقليد والتبعية» (للغير)، فتقدم ما يقدمه هو، وتؤخر ما يراه هو مستحقاً للتأخير، لا حاجة تدفعها إليها، ولكن مجرد التقليد، وإما أن يؤدي في النهاية إلى «الاسترقاقية» بأن تصير الأمة في سعيها الحضاري عبدة لسعي غيرها، الذي يستحوذ على إرادتها، ويقبّ وعيها، ويشل فاعليتها الحضارية، فلا تبتغي «الفضل» بل تبتغي ما عند (الغير)، وهو ما نلاحظه في كثير من سعيها الحضاري المعاصر، حيث «أصبح لفظ العبودية يُقدّم في المجتمع المعاصر في صورة لفظ من ألفاظ الحرية، بحيث أضحي الأفراد لا يشاركون في تحديد حاجاتهم الحقيقية، وإنما تفرض عليهم الحاجات، حسب متطلبات المشروع الإنتاجي، وبحسب التكيف الذهني الذي يتعرضون له عن طريق وسائل الإعلام، حتى أصبح الإنسان يساوي الاستهلاك والعمل، وأصبح المكر ذكاء، واللاهائي كمّاً، والنمو غاية كمية في الإنتاج والاستهلاك»^(١).

والإسلام بهذه القيم والآداب لا يخلق حرية الإنسان في سعيه الحضاري لتعمير الحياة، كما يُظن، وإنما يهذب تلك الحركة، ويضبط نظامها، ويحفظها من

(١) رجاء غارودي، حوار الحضارات، ترجمة: عادل العوا، ط٣ (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٨٦م) ص ٤٢.

التفاسد والتهالك، ويخضعها للرفق والرحمة؛ إذ «ليس المؤمن من يشبع وجارُه جائعٌ إلى جنبه»^(١)، كما أنحر بذلك رسول الله ﷺ، وكما قال في حديث آخر: «مَنْ احْتَكَرَ طَعَاماً أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَقَدْ بَرَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَبَرَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ. وَإِيْمَا أَهْلُ عَرَصَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمْ أَمْرٌ جَائِعٌ فَقَدْ بَرَأَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَعَالَى»^(٢)، فيستعلي الإنسان بذلك، في سعيه، عن الأنانية والأثرة، وفقاً لقاعدة الإسلام الكبرى: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ» كما قال رسول الله ﷺ^(٣). فلا «ضرر» للذات، ولا «ضرار» للخارج عنها، بمراعاة «حقوق النفس» و«حقوق الغير» وهذه قاعدة كبرى أغلق بها رسول الله ﷺ منافذ الضرر والفساد أمام المسلمين. كما أن الإسلام بذلك يعطي «للربح» مفهوماً أرحب من مدلوله في المذاهب المادية الخالصة التي يسير عليها إنسان الحضارة الغربية في حياته فلا يرى غاية وراءها، إذ في الإسلام ليس «الربح» ولا «نمو الثروة» هو الهدف الأصيل، وإن كان مما يستهدفه، بل الهدف الأصيل هو التقرب من الله، ونيل رضاه، والفوز بجمته «ابتغاء الفضل منه»؛ ومن ثم يقيم للمثل الأخلاقية العليا المقام الأول في قبول أية حركة.

وهذا الهدف الأصيل تصبح كثير من النشاطات (كالصدقة، والعفو، والإحسان إلى الناس، وبذل الفضل لهم، وترك استغلالهم) التي تعتبر خسارة بمنظار غير إسلامي، رجحاً ما بعده ربح، فقد قال ﷺ: «إِنَّ هَذَا أَمَالَ خَضِرَةَ خُلُوةٍ، فَتَنَمَّ

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، ٣١/٥، حديث رقم: ٥٦٦٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ٣٣/٢، حديث رقم: ٤٨٨٠، وأورده الحاكم في المستدرک، ١٤/٢، حديث رقم: ٢١٦٥.

(٣) سبق تخريجه.

صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أُعْطِيَ مِنْهُ الْمَسْكِينُ وَالْيَتِيمُ وَابْنُ السَّبِيلِ»^(١)، وقال أيضاً: «مَا نَقَصَ مَالٌ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ»^(٢)، بل يبارك الله له في الدنيا ما يجبر نقصه الحسي، ويثيبه عليها في الآخرة، كما جاء في الحديث المتفق عليه^(٣): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلٍ ثَمَرَةً مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرِيهَا لَصَاحِبِهَا كَمَا يُرِيَّ أَحَدَكُمْ فَلَوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»، يقول العلامة ابن حجر: «الصدقة نتاج العمل، وأحوج ما يكون النتاج إلى التربية إذا كان فطيماً، فإذا أحسن العناية به انتهى إلى حد الكمال، وكذلك عمل بن آدم، لاسيما الصدقة؛ فإن العبد إذا تصدق من كسب طيب لا يزال نظر الله إليها يكسبها نعت الكمال حتى تنتهي بالتضعيف إلى نصاب تقع المناسبة بينه وبين ما قدم نسبة ما بين الثمرة إلى الجبل»^(٤)، وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: «كَانَ أَخْرَاجُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ وَالْآخَرُ يَحْتَرِفُ، فَشَكَى الْمُحْتَرِفُ أَخَاهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ»^(٥).

وحينما يكون «تحريك الحياة» مؤطراً بعقيدة الخلافة، وما تقتضيه من «تزكية النفس»، و«التعمير الإيماني في الأرض»، لا يصبح القيد الذي يقرب من الرب، في حقيقته قيداً، بل هو، في إطار المنظومة القيمية الإسلامية، ضابط لصلاح

(١) صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: الصدقة على اليتامى، ٥٣٢/٢، حديث رقم: ١٣٩٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، ٦٢/٤، حديث رقم: ٢٣٢٥، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) واللفظ للبخاري في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا يقبل إلا من كسب طيب، ٥١١/٢، حديث رقم: ١٣٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: قبول

للصدقة من الكسب الطيب وترتيبها، ٧٠٢م، حديث رقم: ١٠١٤.

(٤) فتح الباري، ٢٧٩/٣.

(٥) المرجع السابق، حديث رقم: ٢٣٤٥، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

الحال بتحقيق الخلافة وفق منهج الله في أمره ونهيه، و زاد إلى فلاح المآل حيث الجنة ونعيمها!! وعلى هذا الأساس قد يصبح «الربح» و«الثروة» أحياناً خسارة، عند المحسن اليقظ الواعي، إذا حال دون الظفر برضا الله، والتقرب من حضرته سبحانه، كما قد يصبح ترك ذلك ربحاً في الحقيقة، إذا أدى إلى قرب العبد من مولاه، وكسب الآخرة.

أما النظرة المادية الخالصة التي لا تملك سوى مقياس الربح والخسارة في الدنيا، فيتهددها شيخ الفقر دائماً، وتفزع بمجرد التفكير في تسخير الملكية الخاصة لأغراض أعم وأوسع من دوافع الشره والأنانية؛ لأن شيخ الفقر المرعب، والخسارة الآتية، يبدو لها من وراء هذا اللون من التفكير، وقد نسب القرآن هذه النظرة المادية الضيقة إلى الشيطان، فقال: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٨).

ب- القيم التي تضبط علاقة الإنسان بالأشياء، والبيئة المحيطة به:

إذا كانت الحضارة هي: ثمرة التفاعل بين الإنسان في سعيه لتحريك الحياة، وعالم الأشياء، فقد جاءت حقائق الوحي لتوطين حركة المسلم في هذا السعي الحضاري، وتهدبها، وتقومها، وتحدد كيفية تعامله مع الكون المحيط به، بكل مكوناته المتنوعة، الحية وغير الحية، المادية والروحية، المشاهدة والغيبية، والخاضعة لتسخيره، فيكون هذا التعامل تعاملاً إيجابياً فاعلاً، وفق مسلمة ثلاث، تمثل تأصيلاً إسلامياً فريداً، وفقهاً حضارياً مميزاً، للتعامل مع الكون بكل ما فيه، استثماراً وانتفاعاً:

أولاً: وحدة الإنسان والكون (العلاقة الوجودية)^(١)، باعتبار الإنسان جزءاً من رحم كوني واسع، وأنه عنصر في موكب كبير من التسييح، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَقْنَاهُ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: ٣٨)، فالإسلام يقيم علاقة بين الإنسان ومكونات هذا الكون وموجوداته، تقوم على وحدة^(٢):

- في الأصل؛ إذ جميع الكون بكل ما فيه من إنس، وكل ظواهر الوجود هي من خلق الله تعالى، ومن المشمولين برعايته وتسييره، ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ^{١٥} الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ^{١٦} وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ^{١٧} وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ^{١٨} (الزخرف: ٩-١٢).

- وفي الوظيفة؛ ففي مشهد كوني عظيم يصور لنا القرآن الوظيفة الحقيقية للكون بكل أطيافه وألوانه، وهي عبادة الله: ﴿يَسْجُدُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْجُدُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا خَلْقًا عَفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤)، فالكون بكل ما فيه من مخلوقات «كل حصة وكل

(١) ينظر في ذلك ما كتبه الدكتور عبد المجيد النجار، في كتابه القيم: قضايا البيئة من منظور إسلامي، ص ٧٠ وما بعدها، طبعته وزارة الأوقاف، قطر، ١٩٩٩م، وكتابه: الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، فقه للتحرير، ١/١٢٨.

(٢) مع تمييز قيمي للإنسان في إطار تلك الوحدة.

حجر، كل حبة وكل ورقة، كل زهرة وكل ثمرة، كل نبتة وكل شجرة، كل حشرة وكل زاحفة، كل حيوان وكل إنسان، كل دابة على الأرض، وكل سابحة في الماء والهواء، ومعها سكان السماء، كلها تسيح الله وتتوجه إليه في علاه»^(١).

- وفي المصير؛ فالكل مخلوق لله، ومرجه إلى الله، يتساوى في ذلك الإنسان مع كل مفردات الكون، وإن اختلف عنها فيما بعد ذلك من مسؤولية وحساب. قال تعالى ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٨).

- وفي الافتقار، فقد خلق الله عز وجل الكون مفتقراً إليه سبحانه وتعالى، في الكينونة، وفي الحركة، وفي المصير: خلقاً وتدبيراً، وسيطرة وحكماً. ومفتقراً بعضه إلى بعض، يحتاج كل شيء فيه إلى الآخر، فليس في الكون موجود، كائناً من كان، لا يحتاج إلى دفع شيء عنه، أو جلبه له؛ ومن ثم كانت العلاقة متبادلة بين كل أفراد الكون، يمد كل منها الآخر، ويحوطه بعطائه، يقول الإمام المناوي، في ملحظ دقيق، عند حديثه عن الزكاة ووجوب أدائها: «واعلم بأن الوجود كله متعبد لله بالزكاة، انظر إلى الأرض التي هي أقرب الأشياء إليك، تجدها تعطي أقرب الخلق إليها، وهم من على ظهرها، جميع بركاتها لا تبخل عليهم بشيء مما عندها، وكذا النبات يعطي ما عنده، وكذا الحيوان والسماء والأفلاك، الكل متعاون بعضه لبعض، لا يدخر شيئاً مما عنده في طاعة الله؛ لأن الوجود كله فقير بعضه إلى بعض، قد لزم الفقر وشمלתه الحاجة»^(٢).

(١) في ظلال القرآن، ٢٤/٥.

(٢) فيض القدير، ٥٠٥/٥.

وتأسيساً على هذه المسلمة «وحدة الإنسان والكون» تكون علاقة الإنسان بالكون وما فيه من أشياء، في المنظور الإسلامي، هي علاقة ذات بعد وجداني وروحي، ممتلئة بوشائج الأخوة والقربى، وما يتجلى فيها من معاني الحب والسود، والرأفة والرحمة، بعيداً عن أي معنى من معاني العداوة والصراع، والقهر والسيطرة!! فيشعر بوشائج بينه وبين الكون، حتى كأنه يملك روحانية مثل روحانيته، يقول رسول الله ﷺ في جبل أحد، وهو ليس إلا رمزاً لعالم الأشياء كله: «جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»^(١)، ويقول ﷺ: «أَكْرَمُوا عَمَتَكُمْ؛ فَإِنَّمَا خُلِقَتْ مِنْ فَضْلَةِ طِينَةِ أَبِيكُمْ آدَمَ»^(٢).

وأي تصور للعلاقة بين الإنسان والكون خارج هذه «الوحدة» وبعيداً عن «وشائج القربى» لابد أن يؤول، ولا شك، إلى فساد، وهذا ما نراه الآن من علاقة غير سوية بين الإنسان والكون، ابتداءً من التصور الفلسفي لهذه العلاقة، وانتهاءً بالتعامل السلوكي الشاذ مع الكون، وهي علاقة قائمة في مجملها، على التحدي والصراع، والنزوع الجامع للسيطرة على الكون وما فيه من أشياء، وفق منظور «براهماتي» يعن في استنزاف خيرات الأرض ومقدراتها، وفي سياق نزاع إلى «تسليع» كل شيء يقوم على الهدم والتدمير، ويوجه الرغبة في إشباع الشهوات، بناء على غلط إنتاج استغلالي عنيف، وهو العنف الذي يعكس أكبر ضعف إنساني في التاريخ، حتى أصبح الكون يوشك أن يمتنع عن العطاء!! وهذا ما أقره فلاسفة الغرب، ومفكروه، في تناولهم الأزمة البيئية الحالية، وما يعانيه كوكب الأرض من طغيان الإنسان، وعدائه لعالم الأشياء، وعلى رأس هؤلاء

(١) صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: خرص التمر، ٥٣٩/٢، حديث رقم: ١٤١١.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده، من حديث سيننا علي بن أبي طالب، ٣٥٣/١، قال في كشف الخفاء، ١٩٥/١: «وفي سنده ضعف ولقطاع».

آل جور، نائب الرئيس الأمريكي الأسبق، في كتابه: «الأرض في الميزان» الذي أداره كله على: اعتبار أن السبب الأصلي في الأزمة الكونية التي يشهدها العالم الآن هو علاقة الانفصال، والجفوة بل الصراع، القائمة بين الإنسان وعالم الأشياء، ومحاولة تكيف الكون للإرادة البشرية، وهو المنطق المعاصر لحضارة العالم، كما يقول آل جور.^(١) وفي عبارة ذات دلالة موحية، يقول بيلت: «إذا كان القرن التاسع عشر قد قتل الإله، وقتل القرن العشرون الإنسان، فقد بقي على القرن الحادي والعشرين أن يقتل الطبيعة!!»^(٢)، وهذا أمر حتمي في المناهج التي تقطع ما وصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذي يعيشون به وفيه!! أما إذا كانت علاقة القربى هي التي تتحكم في علاقة الإنسان بما حوله من الأشياء، كما قرر الإسلام، فإن هذا يقتضي تصرفاً أخلاقياً بين الإنسان والكون، يكون كتصرف الإنسان مع أخيه الإنسان، عدلاً وتراحماً وإحساناً، وفقاً للمبدأ

(١) ومن بين ما عبر به آل جور عن فكرته تلك قوله: «إننا عندما نعتبر أنفسنا شيئاً منفصلاً عن كوكب الأرض، فإننا نجد من السهل علينا أن نحط من قدره... إننا عندما نتصور أننا منفصلون عن كوكب الأرض، فهذا معناه أنه ليس لدينا أدنى فكرة عن كيفية تلاؤم وضعنا في دورة الحياة الطبيعية، ولأننا لا نفهم عمليات التغير في الطبيعة، تلك العمليات التي نتأثر بها، والتي تؤثر فيها بدورنا، إن هذا يعني أننا نحاول أن نحدد مسار حضارتنا، متخذين من أنفسنا النقطة المرجعية الوحيدة، فلا عجب إذا فقتنا الطريق، وأصلبنا التشويش والضياغ، ولا عجب أن يشعر الكثيرون بضياغ حيثهم، إن نوعنا الحي تعود على النمو والازدهار داخل رحم الحياة المحكم القلم على مفهوم الاعتماد المشترك، ولكننا اخترنا أن نخرج من الجنة، بتصور أنفسنا منفصلين عن كوكب الأرض. وما لم نعتز على طريقة تغير بها على نحو جذري حضارتنا، وطريقتنا في التفكير فيما يتعلق بالعلاقة بين الجنس البشري وكوكب الأرض، فإن أولادنا سيرثون أرضاً خراباً» الأرض في الميزان، الإيكولوجيا وروح الإنسان، ص ١٦٧. وينظر ما كتبه في ذلك كل من: جان ماري بيلت، في كتابه: عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، ترجمة السيد محمد عثمان، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٤، وروبرت أم. أغروس، وجورج ن. ستانيسو، في كتابهما: العلم في منظوره الجديد، ترجمة: د. كمال خلايلي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع ١٤٣.

(٢) عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، ص ٢٢.

الإسلامي: «أن لكل خلق حقاً أو حقوقاً تخصه»!! وهذا ما لحظه علماء الإسلام، فقد تقدم في شرح حديث النبي ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»^(١)، أن العلامة ابن حجر، قال: «قال ابن بطال: فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق، فيدخل المؤمن والكافر، والبهائم المملوك منها وغير المملوك»^(٢). ومن أبرز روائع حضارتنا الإسلامية في ذلك، ما عرف بـ«وقف الكلاب الضالة» وهو «وقف في عدة جهات، ينفق من ريعه على إطعام الكلاب التي ليس لها صاحب؛ استئذاً لها من عذاب الجوع، حتى تستريح بالموت، أو الاقتناء»^(٣)، ومن ذلك أيضاً: «الوقف الذي كان مخصصاً لجحافل الحمام، التي استوطنت أروقة وزوايا جامع الزيتونة بتونس، وقد كانت أيضاً، تخصص دوريات راتبة، تحت راية ما يعرف بنظام الحسبة، تجوب المدن الإسلامية والبوادي؛ لتمنع الناس من تحميل الدواب أكثر من طاقتها، ومن الاعتداء عليها بالضرب والتجويد»^(٤)، وإذا علم أن هذه الأوقاف هي عمل شعبي، وليس حكومياً تبين مدى الوعي الحضاري الذي بلغه المسلمون أيام شهودهم الحضاري، بل وصل الأمر في حضارتنا أن قرر الفقه الإسلامي جملة من الحقوق للبهائم والحيوانات على الإنسان، مما يُعد من نوادر الحضارات!! يقول العز بن عبد السلام، في كتابه «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»^(٥): «حقوق البهائم والحيوان على الإنسان، وذلك: أن ينفق عليها

(١) سبق تخريجه.

(٢) فتح الباري، ١٠/٤٤٠.

(٣) يوسف القرضاوي، تاريخنا المفترى عليه، ط٢ (دار الشروق، ٢٠٠٦م) ص ١٤٢.

(٤) عبد المجيد النجار، مراجعات في الفكر الإسلامي، ط١ (تونس: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٨م) ص ٢٨٧.

(٥) ١٤١/١.

نفقة مثلها ولو زمنت أو مرضت بحيث لا ينتفع بها، وألا يحملها ما لا تطيق، ولا يجمع بينها وبين ما يؤذيها من جنسها أو من غير جنسها، بَكَرٌ، أو نطح، أو جرح، وأن يحسن ذبحها إذا ذبحها، ولا يمزق جلدها، ولا يكسر عظمها حتى تبرد وتزول حياتها، وأن لا يذبح أولادها بمرأى منها، وأن يفردها، ويحسن مباركتها وأعطائها، وأن يجمع بين ذكورها وإناثها في إبان إتيانها، وأن لا يحذف صيدها ولا يرميه بما يكسر عظمه أو يرديه بما لا يحل لحمه».

فلم تكن العلاقة، يوماً، بين المسلم والكون، علاقة عداء أو طغيان، أو مغالبة وعنف، بل كانت علاقة قرى وأخوة، بل ضرباً من ضروب العبادة لله تعالى، والقرب منه، باعتبار الكون، بكل ما فيه من أشياء، مظهراً من مظاهر الإبداع الإلهي المتجلي في دقة صنعه، وجمال منظره، وحسن تقديره، و بليغ الحكمة في تفاصيل جزئياته، وكليات السنن الجارية عليه^(١). وهذا هو مقتضى قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت: ٢٠)، وقوله: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُفْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذِيرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: ١٠١)، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ (فِي آيِ حَدِيثِهِ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف: ١٨٥)، وغير ذلك من الآيات التي فيها حث على النظر والاستدلال، والتفكر في صنع الله وخلقه وتديره، وكان ذلك

(١) عبد المجيد التجار، قضايا النبوة من منظور إسلامي، ص ٢٢٧.

هو الدافع لكل علماء المسلمين في حسن تعاملهم مع الكون، وبلغ إصغانهم لعالم الأشياء فيه، يقول الجاحظ، في كتابه «الحيوان» بعد أن أنهى حديثه عن الكلب وما جاء من مناظرة بينه وبين الديك: «فليس لقدّر الكلب والدّيك في أنفسهما، وأثماهما، ومناظرهما، ومعلّهما من صدور العامّة، أسلفنا هذا الكلام، وابتدأنا بهذا القول، ولسنا نقف على أثماهما من الفضّة والذهب، ولا إلى أقدارهما عند الناس، وإنما ننظر فيما وضع الله عزّ وجلّ فيهما من الدّلالة عليه، وعلى إتقان صنّعه، وعلى عجب تدبيره، وعلى لطيف حكّمته»^(١).

ثانياً: التسخير (العلاقة الوظيفية)^(٢)، وهذا هو الأصل الثاني، في ضبط علاقة الإنسان بالكون، فإذا كانت هناك وحدة بين الإنسان والكون، وفق المنظور الإسلامي، أصلاً وغاية ومصيراً، فإن هناك تميزاً قيمياً للإنسان في إطار هذه الوحدة، وهو تسخير الله الكون للإنسان، انتفاعاً واستثماراً، باعتباره خليفة في الأرض، ومهمة الكون أن يستجيب للإنسان؛ لأداء المهمة الحضارية التي جعل الكون مسرحاً لها، وهي تعمير الأرض وتحريكها وفق منهج الله في أمره وهيمه، ووفق سننه وقوانينه الثابتة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿١٥﴾﴾

(١) الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون (بيروت: دار الجيل، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م) ١٠٩/٢.
(٢) «التسخير» هو: «صياغة إلى الغرض المختص قهراً، فالتسخير هو المقبض للفعل»، المفردات في غريب القرآن، ص ٢٢٧، وهناك مصطلحان آخران يتناولان في القرآن الكريم مع «التسخير» للدلالة على إخضاع هذا الكون للإنسان، وهما: أ- التثليل، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥) ب- التمكن، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمُ فِيهَا مَغْنَمًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف: ١٠).

لَكُمْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَيْنِ وَسَحَرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَمَا تَنْكُم
 مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ
 لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ (إبراهيم: ٣٣-٣٤)، فإن هذه الآيات الكريمة، وغيرها كثير،
 تقرر أن الكون كله، بكل ما فيه من عالم الأشياء، مهياً في أصل صنعه من قبل
 صانعه قيمة مقدرة، بحيث يستجيب للإنسان، بقدر، فيما يخص به من مهمة في
 الحياة، إذا ما اتجه الإنسان بكل ما أوتيته من فكر وقدرات إلى ذلك، فكل «ما في
 السماوات من شمس وقمر ونجم وسحاب، وما في الأرض من دابة وشجر وماء
 وبحر وفلك، وغير ذلك من المنافع، يجري ذلك كله لمنافعكم ومصالحكم، لغذائكم
 وأقواتكم وأرزاقكم وملاذكم، تتمتعون ببعض ذلك كله، وتنتفعون بجميعة»^(١).
 وهذا الأصل «التسخير» الذي يضبط علاقة الإنسان بالكون، يشير، في
 بنائه، إلى أمور ثلاثة:

- أن الإنسان لا يملك من ذلك الكون، على وجه الحقيقة، أي شيء،
 إنما هو مستخلف فيه، ووكيل من قبل الله الذي يملك الكون وجميع ما فيه ومن
 فيه، وهو المعنى المستبطن في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٨٩)، وقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 وَأَنِفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (الحديد: ٧)، فكل إنفاق في الكون،
 إنما هو إنفاق مما استخلف الله فيه العبد، ومعنى ذلك: أن الإنسان ليس سيد هذا
 الكون، وإنما هو سيد فيه، وسيادته في الكون إنما هي نعمة أنعم بها عليه سيد هذا

(١) تفسير الطبري، ٧٧/١-٧٨.

الوجود، وهو الله تعالى، وفضل إلهي لمعونة الإنسان في حركته الحضارية؛ تكريراً له، وتمكيناً من القيام بمهام الاستخلاف في عمارة الكون، والعبودية لخالقه. وبذلك يزُيف الإسلام، بكل اطمئنان وثقة، تلك العلاقة التي تقوم بين الإنسان والكون، في النموذج الغربي التائه، والتي تنطلق من أن الإنسان يسود الطبيعة، ويملك الأرض وما عليها، وأن الطبيعة أمة للإنسان، وليست أمّاً له، وكانت النتيجة أن بدأت الأرض تموت!! إذ أصبح في تحريكه للحياة «إما محاولاً غزو طبيعة معادية والسيطرة عليها، وإما ساعياً وراء نعيم مادي مثالي على الأرض»^(١).

- أن تسخير الله الكون للإنسان ليس مجانياً، بحيث يمكن للإنسان أن ينتفع بمفردات الكون ومعطياتها بلا سعي منه، بل هو تسخير، في غالبه، مرتبط بحركة الإنسان في الكون، وسعيه في الانتفاع بمقدراته، وتعامل الإنسان مع الأرض بضروب مختلفة من التعمير، لا تكون له ثمرة إلا بما تقدم له هي من عطاء؛ ومن ثم كان من القيم التي يربي عليها الوحي المسلم: أن تعمير الأرض والبناء فيها، وفق منهج الله، عبادة يجب على المسلم أداؤها، ويثاب على فعلها، ويأثم بتركها، وهذا هو مقتضى مفهوم «الاستخلاف»، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (المالك: ١٥)، فقوله تعالى: ﴿فَاقْشَرُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ دعوة إلى الفعل الدؤوب، والحركة المستمرة في الاستفادة من خيرات الأرض، وعطاءات الكون، ووفق هذا التصور يُعتبر الإنسان الذي لا يفجر ينابيع الأرض، ولا يستغل طاقات الكون

(١) عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، ص ١٠٥.

المسخرة له، عاصياً لله، ناكلاً عن الوظيفة التي خلقه الله لها، ومعطلاً لرزق الله الموهوب للعباد، يُسأل عنه الإنسان يوم القيامة، ففي الحديث: «يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيقول الله له: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعاً وَبَصَراً وَمَالاً وَوَلَدًا، وَسَخَّرْتُ لَكَ الْأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ، وَتَرَكْتُكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعٌ؟ فَكُنْتَ تَطْنُ أُنْكَ مَلَأَ فِي يَوْمِكَ هَذَا؟ فيقول: لَا. فيقول له: الْيَوْمَ أَلْسَاكَ كَمَا نَسِيتِي»^(١)، وفي هذا إشارة إلى أن التقصير في الانتفاع بما سخر الله تعالى صفة من يكذب بلفظه تعالى، ولا يهتدي إلى وحدانيته!! ومن ثم قال عمر ابن الخطاب، رضي الله عنه: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، يقول: اللهم ارزقني؛ فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة»^(٢)، إذ قاعدة الإسلام في ذلك: «ليس العبادة أن تصف قدميك، وغيرك بقوت لك، ولكن ابداً برغيفيك، أولاً، ثم تعبد»^(٣).

- أن هذا التسخير ليس مطلقاً، بإطلاق يد الإنسان في الكون، بلا ضوابط، بل هو تسخير مضفور بالواجب، المنوط بالإنسان في تعمير الحياة، والسعي في الكون، انتفاعاً واستثماراً، واستخدام المسخرات لتحقيق الخلافة وفق منهج الله، وكل حركة في الحياة لاستخدام «مسخرات» الله على غير منهجه، بالإفساد والإنلاف، تعد عصياناً لله، وغصباً لمسخراته!! و«التسخير» بذلك المفهوم، يعد قوة ضابطة في مجال السلوك، وقيداً صارماً يفرض على الإنسان، في تعامله مع الكون

(١) أخرجه الترمذي في سننه، ٦١٩/٤، حديث رقم: ٢٤٢٨، وقال: «هذا حديث صحيح غريب» و«شريع»: أي تأخذ ربع الغنيمة، كناية عن الملك؛ لأن الملك كان يأخذ ربع الغنيمة في الجاهلية دون أصحابه، ويسمى ذلك الربع: «المرباع»، وفي رواية: «ترتبع» أي: تتنعم. وروى نحوه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرقائق، ٢٢٧٩/٤، حديث رقم: ٢٩٦٨.

(٢) إحياء علوم الدين، ٦٢/٢.

(٣) المرجع السابق.

وعالم الأشياء، الالتزام بمنهج الخالق الذي سخرها له، والذي إن شاء، انتزعها منه في أية لحظة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ (النساء: ١٣١-١٣٣)، فيجب على الإنسان أن يلتزم في تعامله مع المسخرات بمنهج الله تعالى، وذلك «يتم من خلال منظومة مفاهيمية، تمثل ضابطاً، ومحددًا لكيفية الاستفادة من البيئة أو المسخرات، وهذه المنظومة تشمل على مفاهيم، مثل: التوحيد، الخلافة، الأمانة، الحلال، الحرام، العدل، الاعتدال. وذلك في إطار الإيمان بأن هذه المسخرات مخلوقات، تسبح بحمد الله وتعبده، وتشكل أمماً كاملة مثل الأمم البشرية؛ ومن ثم فإن على الإنسان أن يراعي حقوقها، كأمر أخلاقي من ناحية، وكأمر تشريعي من ناحية أخرى»^(١).

ثالثاً: الائتمان الكوني (العلاقة الارتفاقية)^(٢)، وهذا أصل الأصول، والقيمة الجامعة التي تتحكم في كل سعي المسلم، وتعامله مع الحياة والأحياء؛ فالإنسان، وفق المنظور الإسلامي، إذ سخر الله له الكون، واستخلفه فيه، فهو مؤتمن عليه، وعلاقته بالكون، في جوهرها، ليست علاقة مالك بملوك، وإنما هي علاقة أمين على أمانة استؤمّن عليها، وفق مفهوم التسخير، ومقتضيات الاستخلاف.

(١) نصر محمد عارف، نظريات التنمية السياسية المعاصر، ص ٤٠٠.

(٢) «الارتفاق» مفهوم يعود في مدلوله اللغوي إلى معنيين أساسيين، هما «الرفق» و«الانتفاع» كما جاء في لسان العرب، مادة: (رفق). وجاء في مقليس للغة، لابن فارس (٤١٨/٢): أن هذه المادة «أصل واحد يدل على موافقة، ومقاربة بلا عطف» فتكون العلاقة «الارتفاقية» هي الضبطة لتعامل الإنسان وفق المنظور الإسلامي مع الكون، انتفاعاً بالمقدرات المودعة فيه، ووفقاً بهذا الكون أن يناله الفساد. ينظر: الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، فقه التحضر، ١/ ١٢٧.

و«الانتماء الكوني» مفهوم حاولنا تركيبه؛ لما يحمله من معان ودلالات مستبطنة في تعاليم الوحي، قرآنًا وسنة، من حيث وجوب التزام الإنسان، مادياً وأخلاقياً، نحو كل الموجودات والأشياء في الكون، فيما له هو منها، وما لها هي منه، ولما يضيفه هذا المفهوم من وعي حضاري في «تحريك الحياة»، ذلك أن المسلم، وفق هذا المفهوم، ليس مطالباً باستشراق الكون، رؤية وتخطيطاً فقط، بل هو مؤتمن على الكون، حاضراً، ومستقبلاً أيضاً! ولعل في حديث النبي ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبَيَدُ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَلَّا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»، وفي رواية: فَلْيَغْرِسْهَا»^(١)، خير دليل على أن المسلم مؤتمن على مستقبل هذا الكون، يقول الإمام المناوي في شرح الحديث، بعد أن ذكر خفاء الحكمة منه على بعض من الأئمة الأعلام: «والحاصل: أنه مبالغة في الحث على غرس الأشجار وحفر الأنهار؛ لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدّها المحدود المعلوم عند خالقها، فكما غرس لك غيرك فانتفعت به، فاغرس لمن يجيء بعدك لينتفع، وإن لم يبق من الدنيا إلا صباغة»^(٢).

وهذا المفهوم «الانتماء الكوني» في بنائه الإسلامي، بما يفيد من «حفظ الحقوق» و«مراعاة الأخلاق» يقوم على أبعاد ثلاثة في غاية الأهمية، تمثل فيما تليق بعالم صادر عن الله، ومتجه إلى الله، وصائر إلى الله في نهاية المطاف، وهذه الأبعاد:

١ - التفاعل الإيجابي مع مفردات الكون ومعطياته، تفاعلاً يكون للقيم الأخلاقية فيه النصيب الوفير في توجيه حركة الإنسان في تعامله مع الكون المؤمن عليه، انتفاعاً بالمقدّرات المودعة فيه، ووفقاً به، وحفاظاً له من أن يناله فساد،

(١) سبق تخريجه.

(٢) أي بقية غير جذيرة بالنظر لقلتها، فيصن للتقدير، ٣٠/٣.

وبعيداً عن أي معنى من معاني القهر والصراع «بحيث تنتفي منه معاني الاستهتار واللامبالاة، كما تنتفي معاني الأنانية والأثرة، ومعاني الحقد والتسلط والاحتقار»^(١)، وهذا التفاعل الإيجابي يقتضي «الاستثمار النافع» و«العمل الصالح» اللذين هما أساس كل الفاعليات الحضارية في الإسلام، وقاعدة الإسلام الكبرى في ذلك، قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾ (الأعراف: ٥٦)، وقوله عز وجل: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٢).

وفي سياق هذا البعد «التفاعل الإيجابي مع مفردات الكون ومعطياته»:
 - نهي الإسلام عن تعطيل أي من ثروات الكون، وسحبها عن مجالات الانتفاع والاستثمار، واعتبر الإسلام فكرة تعطيل هذه الثروات أو إهمالها، لونهاً من ألوان الجحود، وكفراناً بالنعمة التي أنعم الله بها على عباده، يقول تعالى في معرض إبطال مزاعم أهل الجاهلية، فيما حرموه من اللباس والطعام: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٢).

- اعتبر الإسلام أن الأرض لمن يزرعها ويقوم باستثمار منافعها، وهو ما يعرف في الفقه الإسلامي بـ«إحياء الموات» أي: خدمة الأرض وبناءها، فقد جاء في صحيح البخاري: «بَابُ مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَوَاتاً، وَرَأَى ذَلِكَ عَلَيَّ فِي أَرْضِ الْخَرَابِ بِالْكُوفَةِ مَوَاتٌ، وَقَالَ عُمَرُ: مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَيِّتَةً فَهِيَ لَهُ، وَيُرْوَى عَنْ

(١) عبد المجيد النجار، قضايا للبيئة من منظور إسلامي، ص ١٩٧.

عمرو بن عوف عن النبي^(١)، قال ابن حجر: «الموات» الأرض التي لم تعمر، شبهت العمارة بالحياة، وتعطيها بفقد الحياة، و«إحياء الموات» أن يعمد الشخص لأرض لا يعلم تقدم ملك عليها لأحد، فيحييها بالسقي، أو الزرع، أو الغرس، أو البناء، فتصير بذلك ملكه، سواء كانت فيما قرب من العمران أم بعد، سواء أذن له الإمام في ذلك أم لم يأذن. وهذا قول الجمهور^(٢)، وفي هذا يقول الإمام ابن حزم: «كُلُّ أَرْضٍ لَا مَالِكَ لَهَا، وَلَا يُعْرَفُ أَنَهَا عُمِّرَتْ فِي الْإِسْلَامِ، فَهِيَ لِمَنْ سَبَقَ إِلَيْهَا وَأَحْيَاهَا»^(٣).

- جعل ﷺ تعطيل ثروات الأرض، أو إهمالها، سبباً في نزعها من صاحبها، فقال ﷺ: «من كانت له أرضٌ فَلْيَزْرِعْهَا، فَإِنْ لَمْ يَزْرِعْهَا فَلْيَزْرِعْهَا أَخَاهُ»^(٤)، ومن ذلك ما ورد أن رسول الله ﷺ أقطع بلال بن الحارث أرضاً، فاحتجها ولم يعمرها، فلما كانت خلافة عمر، رضي الله عنه، قال له: «يا بلال، إنك استقطعت رسول الله ﷺ أرضاً طويلة عريضة فقطعها لك، وإن رسول الله ﷺ لم يكن يمنع شيئاً يُساله، وأنت لا تطيق ما في يدك. فقال: أجل. فقال: فانظر ما قويت عليه منها فأمسكه، وما لم تطق وما لم تقو عليه فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين، فقال: لا أفعل، هذا شيء أقطعني رسول الله ﷺ فقال عمر: والله لستفعلن، فأخذ منه ما عجز عن عمارته، فقسمه بين المسلمين»^(٥).

(١) صحيح البخاري، ٨٢٣/٢.

(٢) فتح الباري، ١٨/٥.

(٣) المحلى (بيروت: دار الأفاق الجديدة) ٢٣٣/٨.

(٤) متفق عليه، واللفظ لمسلم، كتاب: البيوع، باب: كراء الأرض، ١١٧٦/٣، حديث رقم: ١٥٣٦.

وصحيح البخاري، كتاب: الهبة وفضلها، باب: فضل المنية، ٩٢٧/٢، حديث رقم: ٢٤٨٩.

(٥) يحيى بن آدم للقرشي، الخراج، ط ١ (لاهور، باكستان: المكتبة العلمية، ١٩٧٤م) ص ٦١٠.

- ومن ثم فهم الإسلام عن «الجمي» وهو اكتناز أرض وحيازتها بالقوة، بلا أية حركة لإحيائها واستثمارها، فقد سئل النبي ﷺ عَنِ الْجَمَى، فقال: «لَا جَمَى إِلَّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ»^(١). وفي حديث ذي دلالة موحية على منع كل حركة في الحياة تؤدي إلى تعطيل ثرواتها، أو منع غنائها، يقول عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما: «فهي رسول الله ﷺ عن إخصاء الخيل والبهايم، وقال ابن عمر: فيها نماء الخلق»^(٢)، ومن ذلك قول النبي ﷺ لمضيفه الأنصاري الذي أراد إكرامه بذبح شاة: «إِيَّاكَ وَالْحُلُوبَ»^(٣)، لما في ذلك من قطع للانتفاع بحليها، مع أن في ذبح غير الحلوب ما يعني عن ذبحها، وفي ذلك كله، دلالة على أنه لا يجوز أن تعطل معطيات الكون عن: «دورها الإيجابي في الإنتاج، بل يجب أن تظل دائماً عاملاً قوياً يساهم في رخاء الإنسان، ويسر الحياة، فإذا حال الحق الخاص دون قيامها بهذا الدور، ألغى هذا الحق، وكيف بالشكل الذي يتيح لها الإنتاج»^(٤).

٢- القوامة وضرورتها في تنظيم علاقة الإنسان بالكون المستخر له، وهذا هو البعد الثاني في مفهوم «الالتئام الكوني» فعلاقة الإنسان بالكون وما فيه من عالم الأشياء، وفق المنظور الإسلامي، هي علاقة «قوامة».

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٨٢/٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٢٤/٢، حديث رقم: ٤٧٦٩.

(٣) صحيح مسلم، كتاب: الأضاحي، باب: جواز استئناجه غيره إلى دار من يتقرب برضائه بذلك، ١٦٠٩/٣، حديث رقم: ٢٠٣٨.

(٤) محمد باقر الصدر، اقتصادنا، ص ٦٥٥، وينظر: عبد المجيد النجار، مقاصد الشريعة بلبعد جديدة، ط ١ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٦م) ص ٢٣١؛ يوسف القرضاوي، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ص ١٦١، وما بعدها.

و«القوامة» مفهوم إسلامي يدل في بنائه على «آداب سلوكية» تقوم على: «الرعاية والإشراف» و«المحافظة والإصلاح» و«اتقاء عناصر التهديم والتدمير»^(١)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (النساء: ٣٤)، قال ابن عطية في تفسيره: «قَوَّامٌ: فَعَّالٌ، بِنَاءٌ مَبَالِغَةٌ، وَهُوَ مَنْ: الْقِيَامُ عَلَى الشَّيْءِ، وَالْإِسْتِبْدَادُ بِالنَّظَرِ فِيهِ، وَحِفْظُهُ بِالْاجْتِهَادِ»^(٢).

ووفق هذا المفهوم «القوامة» فإن علاقة المسلم بالكون، باعتباره قِيَمًا عليه، موطورة بأصول وقيم، مشتقة من الفطرة الإنسانية في خيريتها، ومحددة بتعاليم الشريعة في مسالكها، على النحو التالي:

- الرفق والرحمة، فالتراحم، في المنظور الإسلامي، لا يقوم بين الإنسان وأخيه الإنسان فحسب، بل يقوم أيضاً بينهم وبين الأشياء من حولهم، فينبغي أن تكون أخلاق الإنسان مع الكون بكل مظاهره غاية الرحمة، رحمة الإنسان بأخيه الإنسان نوعاً وقدرًا؛ ليس حفظاً لقيمة الوجود، واحتراماً لوحدة الأصل، فحسب، بل أيضاً لأن الكون لا ينفك يبادلنا هذه الرحمة، وقد غمرنا بعباءاته ورحماته، وما يزال يغمرنا!! وقاعدة الإسلام الكبرى في ذلك: قول النبي ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(٣)، قال العلامة المناوي: «بصيغة العموم، يشمل جميع أصناف الخلائق، فيرحم البر والفاجر، والناطق والمبهم، والوحش والطير»^(٤)، وفي هذا السياق يأتي حديث عبد الرحمن

(١) لسان العرب، مادة (قوم).

(٢) المحرر الوجيز، ٤٧/٢.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) فيض القدير، ١/٤٧٣.

ابن عبد الله عن أبيه، قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سَفَرٍ، فَأُتِيَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمْرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمْرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بَوْلَدَهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا، وَرَأَى قَرْيَةً تَمْلِكُ قَدْ حَرَقْنَاهَا، فَقَالَ: مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ؟ قُلْنَا: نَحْنُ. قَالَ: إِنَّهُ لَا يَتَّبِعِي أَنْ يُعَذَّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ»^(١)، ولهذا قرر علماؤنا أن «الرفق بالدواب في ركوبها والحمل عليها، وكذلك سائر الموجودات، واجب سنة، وهذه مسألة عظيمة الأجر والعقاب، وكذا تحميل الدواب أكثر مما تقدر عليه بحسب العادة، وغير ذلك. وذلك كله من نزع الرحمة من القلوب»^(٢).

- المحافظة والحماية، ف «قوامة» الإنسان على الكون تقتضي الاجتهاد في نماء مفرداته، وتتميرها، وإيصال المنافع إليه، وصيانتها، والحفاظ عليه من كل حركة تعبت بمعطياته، أو تستهتر بمقدراته، أو تعطل منافعه، وقد قرر علماء الإسلام «أن مقصد الشريعة من التشريع: حفظ نظام العالم، وضبط تصرف الناس فيه، على وجه يعصم من التفساد والتهالك»^(٣)؛ ومن ثم جعل الإسلام تنمية الكون بالعباءة فيه من أوكد العبادات، حتى وإن قامت الساعة لا يتخلى عنها الإنسان، كما جاء في حديثه ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَيَدٌ أَحَدَكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَلَّا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ، وَفِي رَوَايَةٍ: فَلْيَغْرِسَهَا»^(٤)، كما جعل «إمطة الأذى عن الطريق» عبادة، وشعبة من شعب الإيمان، كما جاء في صحيح مسلم^(٥)، عن

(١) سنن أبي داود، ٥٥/٣، حديث رقم: ٢٦٧٥.

(٢) للشيخ عبد الحي الكتاني، الترتيب الإداري لنظام الحكومة النبوية، ١٥٢/٢-١٥٣.

(٣) للشيخ الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص ٢٣٠.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان، ٦٣/١، حديث رقم: ٣٥.

أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»، وهذا يؤسس لفقه شغوف بـ«حسن المجاورة لنعم الله تعالى وحراستها».. ومن التوجيهات النبوية ذات الدلالة في هذا الشأن ما روته أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، قالت: «دخل رسول الله ﷺ يوماً، فرأى كسرة ملقاة، فمشى إليها فأخذها فمسحها ثم أكلها، ثم قال: يا عائشة، أحسني جوار نعم الله؛ فإنها قل ما تزول عن أهل بيت، فكادت أن تعود إليهم»^(١)، وقوله ﷺ، فيما يرويه أنس، رضي الله عنه: «إذا سقطت لقمة أحدكم فليمسكها بها الأذى، وليأكلها ولا يدعها للشيطان، وأمرنا أن نسلك القصعة (تتبع ما بقي فيها من الطعام) قال: فإلكم لا تذرون في أي طعامكم البركة»^(٢)، فهذان الحديثان، وغيرها كثير، يدلان على وجوب «حسن المجاورة لنعم الله، من تعظيمها، وتعظيمها شكرها، والرمي بها من الاستخفاف بها، وذلك من الكفران، والكفور ممقوت مسلوب، فارتباط النعم في شكرها، وزوالها في كفرها، ومن عظمها فقد ابتدأ في شكرها، ومن صفرها أو استخف بها فقد تعرض لزوالها»^(٣).

والحفاظة والحماية للكون وما فيه من عالم الأشياء يأتي وفق القاعدة الإسلامية الكبرى: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ» وفروعها (الضرر يزال قدر الإمكان، ويتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام، ودفع المفسد مقدم على جلب المصالح،

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ٢٩٣/٦، حديث رقم: ٦٤٥١، وللحديث روايت ذكرها الإمام المعجلوني في كشف الخفاء، ٢٨٠/١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: الأشربة، حديث رقم ٢٠٣٣.

(٣) الحكيم الترمذي، نوادر الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد الرحمن عميرة (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢م) ٧/٢٦٤.

والضرر لا يزال بالضرر، وارتكاب أخف الضررين، وما جاز لعذر بطل بزواله) والتي تضبط كل تحركات المسلم في الحياة، بكل تنوعاتها وامتداداتها، لا يُستثنى من ذلك مجال، وفي مجال التعامل مع الكون قد تحولت إلى أصول وقواعد تجب مراعاتها ضمن عناصر الفلسفة الكامنة فيها، حتى تكون حركة الإنسان في الكون حركة واعية، وفاعلة، وذات بصيرة؛ ومن ثم:

- نهي الإسلام عن «إضاعة المال» وهو رمز لإهمال معطيات الكون، وعدم حمايتها، وترك المحافظة عليها، فقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ: عُقُوقَ الْأُمِّهَاتِ، وَوَادَ الْبَنَاتِ، وَمَنْعَ وَهَاتٍ، وَكَرِهَ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ»^(١)، وأظهر ما قيل في بيان «إضاعة المال» أن المراد به: سوء قيام الإنسان على ما يملكه، بأن يتركه من غير حفظ له فيضيع، أو يتركه حتى يفسد، أو يرضى بوضعه في غير حقه^(٢)، وكان عمر، رضي الله عنه، دائم القول، في لفظة تعد من أصول الفقه الحضاري: «لا يقل شيء مع الإصلاح، ولا يبقى شيء مع الفساد»^(٣)، قال الإمام الطاهر بن عاشور، مبيناً الحكمة من وجوب حفظ أموال الأمة وصيانتها من العبث: «والمقصد الشرعي أن تكون أموال الأمة عدة لها، وقوة لابتناء أساس مجدها، والحفاظ على مكائدها؛ حتى تكون مرهوبة الجانب، مرموقة بعين الاعتبار، غير محتاجة إلى من قد يستغل حاجتها، فيبتز منافعها، ويدخلها تحت نير سلطانه»^(٤).

(١) صحيح البخاري، كتاب: الأئمة، باب: عقوق للوالدين، ٨٤٨/٢، حديث رقم: ٢٢٧٧.

(٢) ينظر: الإمام العيني، عمدة القاري، ٦١/٩.

(٣) ابن رشد، البيان والتحصيل، ٥٩٨/١٧.

(٤) التحرير والتطوير، ٧٩/١٥. ورعاية لهذا المعنى عدت الشريعة كل جاهل لحفظ ماله والاعمال على تبذيره، سفيها يجب الحجر عليه في جميع تصرفاته، رعالية لمصلحته، ومنع ضرره عن غيره. ينظر: عز الدين بن زغبة مقلد الشريعة الخاصة بالتصرفات المالية، ط١ (دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ص ١٥٣.

- كما نهى الإسلام عن استخدام معطيات الكون في غير ما هي له، أو إتيانها في غير مآتيها، مما يعطل منافعها، ويبدد مقدراتها في غير وجه، ففي إشارة تمثل أصلاً جامعاً من أصول الفقه الحضاري في الإسلام، يقول النبي ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى بَقَرَةٍ، انْتَفَتَتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا؛ خُلِقْتُ لِلْحِرَاءَةِ»^(١)، وفي رواية: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً، قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا، فَانْتَفَتَتْ إِلَيْهِ، فَكَلِمَتُهُ، فَقَالَتْ: إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا وَلَكِنِّي خُلِقْتُ لِلْحَرَثِ»^(٢)، فهذا من أصول الفقه الحضاري في الإسلام؛ حيث يأمر بالانتفاع بمفردات الكون من حيث ما ركبت عليه من سنن يكون بها عطاؤها، قال العلامة ابن حجر: «استدل به على أن الدواب لا تستعمل إلا فيما جرت العادة باستعمالها فيه»^(٣)، إذ لو عوملت الأشياء من غير وجهها فإنها لا تعطي شيئاً، بل أحياناً تنتقم لنفسها فتعطي ضرراً من حيث أريد منها النفع.

- وكذلك نهى الإسلام عن أي حركة تؤدي إلى إتلاف مقدرات الكون بغير حق، فيقول ﷺ: «مَنْ قَتَلَ عَصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بغير حقها، سَأَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا حَقُّهَا؟ قَالَ: حَقُّهَا أَنْ تَذْبَحَهَا فَتَأْكُلَهَا، وَلَا تَقْطَعَ رَأْسَهَا فَيُرْمَى بِهَا، وَفِي رَوَايَةٍ: مَنْ قَتَلَ عَصْفُورًا عَبَثًا عَجَّ إِلَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّ فَلَانًا قَتَلَنِي عَبَثًا وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِنَفْعَةٍ»^(٤)، وفي سنن أبي داود

(١) صحيح البخاري، كتاب: المزارعة، باب: استعمال البقر للحراثة، ٨١٧/٢، حديث رقم: ٢١٩٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل حديث رقم: ٣٤٦٣.

(٣) فتح الباري، ٥١٨/٦.

(٤) سنن السنن الكبرى، ٧٣/٣، حديث رقم: ٤٥٣٤، و٤٥٣٥.

عن النبي ﷺ: «مَنْ قَطَعَ سِنْرَةَ صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ»، فـ«الشارع» كما يقول ابن القيم: «يَسُدُّ الطَّرِيقَ إِلَى الْمَفَاسِدِ بِكُلِّ مُمَكِّنٍ»^(١).

- الزهد أو «الإيثار الكوني» وليس المراد هنا الزهد بمفهومه السليبي، الذي يُعنى به: الاستقالة من دور التعمير في الكون، والهروب من السعي الحضاري في الحياة، فهذا مناقض لمقاصد الإسلام في «الاستخلاف» و«الاستعمار الإيماني للأرض» بل المراد: «الزهد الإيجابي» القائم على «التقلل» و«الاعتدال» في التعامل مع مقدرات الكون، وموارده، تعامل القيم الراعي المحكوم بمقاصد الشرع، لا تعامل الشهواني المستهتر، المحكوم بمقتضيات الشهوة. فيتنفع بعطاءات الكون وفق ما تقتضيه وظيفته الاستخلافية من جهة، وتحمله مقدرات الكون من جهة ثانية، ووفق رؤية لا تكون فيها هذه الحياة الدنيا هي كل الحياة، لا من حيث الوجود، ولا من حيث الأثر المترتب على الدور الوظيفي، وإنما ستتلوها حياة أخرى بعدها أعلى منها شأنًا من جهة ثالثة، مما يضمن الحفاظ على مقدرات الكون ومعطاته، وتواصل عطائها، وسيرورة نموها وإثمارها.

فمفهوم: «الزهد» أو «الإيثار الكوني» في المنظومة الإسلامية، مناقض تمامًا لمفهوم التقدم المستمر واللائيحي، في منظومة الحضارة الغربية، القائمة على «الاستنزاف» للمدخر لموارد الحياة، والنهب الأهوج المرهق لخيرات الأرض ومواردها، والتبذير التلطف لما لا يعوض منها، بدافع الأنانية والأثرة، وتضخم الذات، بل بدافع اللعب واتباع الهوى في إنتاج واستهلاك لا يقوم على مقاصد محددة، ولا يبالي إن كان فيه منفعة للإنسانية، أو لم تكن فيها، بل لا يراعي إن

(١) إعلام الموقعين، ١٥٩/٣.

كانت تتحمله مقدرات الكون أم لا، وفق رؤية تؤمن بأن هذه الحياة هي كل الحياة، ينتهي بانتهائها كل وجود للإنسان، وينتهي أيضاً كل أثر لدوره الوظيفي فيها، فلا يبقى إذن إلا أن تكون العلاقة بالكون وما فيه من عالم الأشياء هي علاقة استهلاك بالقدر الأكبر من الاستهلاك، وذلك لإشباع الشهوات في أقصى حد ممكن من الإشباع، كما نرى في النموذج الغربي التائه، المسيطر على الحياة، وهو نموذج انتهى إلى نوع جديد من «الإدمان»^(١).

فـ«الزهد» أو «الإيثار الكوني» مفهوم حضاري إسلامي، ليست الحضارة العالمية بأصوليتها المادية بأقل احتياجاً إليه من الحضارة الإسلامية، بعد أن ارتفعت صيحات تنبئ بأن العالم قد استنفد طاقات الحياة بصورة قد لا تدع للمستقبل شيئاً؛ ومن ثم لا يحتاج العالم اليوم إلى شيء حاجته إلى أن يحمي هذا المفهوم، وأن يخرج الإنسان، في سعيه الحضاري، من طلب حظوظ السيادة على

(١) يقول آل جور: «إنني أعتقد أن حضارتنا الحديثة، في الواقع، أدمت استهلاك الأرض ذلتها، وتلهينا هذه العلاقة للقائمة على الإدمان، عن الشعور بالألم من جراء ما فقدناه.. إن للسطحية والسعار اللذين يميزان الحضارة الصناعية، يحجبان إحساننا المرير بالوحشة، إزاء صلة حميمة تربطنا بالعالم... إن حضارتنا تتشبث بطريقة أكثر إحكاماً، بعادتها في استهلاك كميات أكبر وكهرب كل عام، من القمح، والنفط، والهواء النقي، والماء، والأشجار، والطبقة السطحية للتربة، وألف مادة أخرى نقتطعها من قشرة الأرض، لتحويلها جميعاً، ليس إلى ما يقيم أودنا، ويوفر لنا الملأى الذي نحتاجه، ولكن بدرجة أكبر إلى ما لا نحتاجه: كميات هائلة من التلوث، ومنتجات نفق المليارات في الإعلان عنها لنقتع أنفسنا بأننا نريدها.. ويبدو أننا نزداد شغفاً بفقدان تولقاتنا في الأشكال المختلفة للثقافة والمجتمع والتكنولوجيا ووسائل الإعلام وطقوس الإنتاج والاستهلاك، إلا أن لثمن الذي ندفعه هو ضياع حياتنا.. إن النشاز في علاقتنا بالأرض، والذي يرجع في جزء منه إلى إدماننا لنمط من الاستهلاك يقوم على استنفاد كميات أكبر وأكبر من موارد الأرض الطبيعية، أصبح يعلن عن نفسه الآن من خلال الأزمات المتتالية، وكل منها يبطوي على تصادم مدمر بين حضارتنا وعالم الطبيعة»، الأرض. في الميزان، ص ٢٢٣-٢٢٥.

الكون، إلى أداء حقوق العبودية لسيد الكون سبحانه، فيكون انتفاعه به، وفق منهج الله في أمره ونهيه، والمنظومة الإسلامية في ذلك يمكن أن تشكل نقطة انطلاق للوقوف ضد «السعار الاستهلاكي» و«التكالب على كل شيء» الذي ثبت أنه سيودي بالعالم!!

وقد تراوحت تعاليم الإسلام في ذلك، بين أمرين، يضبطان الكم والكيف، هما:
 أولاً: الدعوة إلى الانتفاع^(١) بمعطيات الكون وفق الحاجة، وعلى مقتضى التقلل والاعتدال، مما يحفظ توازنه، ويصون كفاءته في إعالة الحياة، قال تعالى، في صفات عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧) و﴿قَوَامًا﴾ أي: معتدلاً في النفقة «فأدب الشرع فيها: ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقاً آخر أو عيلاً ونحو هذا، وألاً يضيع أيضاً ويقتّر حتى يبيع العيال ويفرط في الشح. والحسن في ذلك هو القوام، أي: المعتدل. والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله وخفة ظهره وصبره وجلده على

(١) نستخدم مصطلح «الانتفاع» لبيان علاقة الإنسان بمقدرات الكون ومعطياته، وهو مفهوم قرآني، مشتق من «النفع» قال الإمام الراغب (المفردات، ٥٠٢): «النفع ما يستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يتوصل به إلى الخير فهو خير» فهو مفهوم في بنائه يدل على: طلب ما فيه خير من الكون، والمعنى في الانتفاع به، دون الإضرار به. بخلاف مصطلح «الاستهلاك» فهو مشتق من «هلك» و«استهلك الشيء» بمعنى: ففقه وفقدّه (لسان العرب، مادة: هلك) وهو بهذا مفهوم يخالف الطبيعة التي ينبغي أن يكون التعامل بها مع معطيات الكون، وهو الانتفاع بها وخيراتها، لا إهلاكها وإفادها، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فهو مصطلح خذاع، كما يقول آل جور (الأرض في الميزان، ص ١٥١) إذ يفترض أن المواد التي يتم استهلاكها على اختلاف أنواعها يختفي آثارها تماماً، ومن ثم لا يُعبأ بآثارها، والحقيقة أن الأمر ليس كذلك، بل يترتب عليها ألوان كثيرة من الفضلات، التي لم يكن يُلَفَت إليها، حتى أصبحت تشكل أزمة وجزءاً لا يتجزأ من أزمة الحضارة الصناعية بصفة عامة.

الكسب، أو ضد هذه الخصال، وخير الأمور أوسطها»^(١)، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩)، ومن مداد ذلك قوله ﷺ: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ الْآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صَلْبَهُ، فَإِنْ غَلَبَتِ الْآدَمِيَّ نَفْسُهُ، قَتَلَتْ لِلطَّعَامِ، وَتَلَّتْ لِلشَّرَابِ، وَتَلَّتْ لِلنَّفْسِ»^(٢)؛ ومن ثم كان من دعائه ﷺ: «اللهم ارزُق آلَ مُحَمَّدٍ قُوتًا»^(٣)، وكان يقول ﷺ: «قد أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرَزِقَ كَفَافًا، وَفَتَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ»^(٤)، قال العلامة ابن حجر: «والكفاف: الكفاية بلا زيادة ولا نقصان، وقال القرطبي: هو ما يَكْفٍ عن الحاجات، ويدفع الضرورات، ولا يلحق بأهل الترفهات. ومعنى الحديث: أن من اتصف بتلك الصفات حصل على مطلوبه، وظفر بمغروبه في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال ﷺ: اللهم ارزُق آلَ مُحَمَّدٍ قُوتًا، أي: اكفهم من القوت بما لا يرهقهم إلى ذل المسألة، ولا يكون فيه فضولٌ تبعث على الترفه، والتبسط في الدنيا»^(٥)، وقد بين النبي ﷺ أن «الأمن» و«العافية» و«الكفاية» هي جماع أمور الدنيا، فقال: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافٍ فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَائِرِهَا»^(٦).

(١) المحرر الوجيز، ٢٢٠/٤.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، باب: ما جاء في كراهية كثرة الأكل، ٥٩٠/٤، حديث رقم: ٢٣٨٠، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»؛ وأخرجه ابن ماجه في سننه.

(٣) متفق عليه.

(٤) صحيح مسلم، كتاب: الزكاة، باب: في الكفاف والقناعة، ٧٣٠/٢، حديث رقم: ١٠٥٤.

(٥) فتح الباري، ٢٧٥/١١.

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، حديث رقم: ٣٠٠؛ وأخرجه الترمذي، واللفظ له، حديث رقم: ٢٣٤٦، وقال: «هذا حديث حسن غريب»؛ وابن ماجه في سننه، ١٣٨٧/٢، حديث رقم: ٤١٤١.

ثانياً: النهي عن الإسراف والتبذير^(١)، فالمسلم إذا كان مطالباً، في إطار قوامته على الكون، واستنفاعه بمقدراته، بالقصد والاعتدال، فهو مطالبٌ أيضاً، في إطار هذه القوامة، بعدم الإسراف والتبذير في التعامل مع عطاءاته، وذلك بألا يكثر مما لا خير فيه، وألا ينفقه في غير حقه، أو في غير ما تلبية لحاجة من حاجاته الحقيقية، بل يضيق منافذ الانتفاع بعطاءات الكون، وفق مقاصد الشرع، ناظراً إليها على أنها «نعمة لا يجوز إهدارها، مع تحديد حاجات الإنسان، والقضاء على المبالغة في الاستخدام والتلذذ بالأشياء، مما يضعف مفهوم «تعدد الحاجات» الذي روجت له وسائل الدعاية والإعلان، إلى حد جعل الإنسان في خدمة «الاستهلاك»، أي أن يكون «الاستهلاك» أصبح غاية أو نقطة جذب يسعى إليها الإنسان، رغم أنه قد لا يكون محتاجاً إليها»^(٢)، وذلك كله وفق قاعدة الإسلام الكبرى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١)، وقد بين الإمام الطاهر بن عاشور الحكمة من نهي الإسلام عن «السرف» و«التبذير» بأن القصد والاعتدال ضامن للمرء في غالب الأحوال، بالنسبة إلى من هم أصحاب كفاف «أما أهل الوفرة والثروة؛ فلأن ذلك الوفرة آت من أبواب اتسعت لأحد فضاقت على آخر لا محالة؛ لأن الأموال محدودة، فذلك الوفرة يجب أن يكون محفوظاً لإقامة أود المعوزين، وأهل الحاجة، الذين يزداد عددهم بمقدار وفرة

(١) الإسراف والتبذير لفظان مترادفان عند جمهور أهل اللغة، بمعنى: مجاوزة الحد في الاعتدال، (تاج العروس، ٤٢٨/٢٢). وقد جادل الموردي للفرقة بينهما، فقال: «اعلم أن السرف والتبذير قد يترق مناهما، فالسرف: هو الجهل بمقدار الحقوق، والتبذير: هو الجهل بموقع الحقوق وكلاهما منقوض، وبم التبذير أعظم؛ لأن المسرف يخطئ في الزيادة، والمبذر يخطئ في الجهل، ومن جهل موقع الحقوق ومقدارها يملأ ولخطأها، فهو كمن جهلها بفعله فتداهما، وكما أنه بتبذيره قد يضع الشيء في غير موضعه، فهكذا قد يغفل به عن موضعه»، لب الدنيا والدين، ص ١٨٧.

(٢) منير شفيق، الإسلام في معركة الحضارة، ط ١ (بيروت: دار الكلمة للنشر، ١٩٨٢م) ص ٦٦.

الأموال التي بأيدي أهل الوفرة والجدة، فهو مرصود لإقامة مصالح العائلة والقبيلة وبالتالي لصالح الأمة»^(١).

ومن ثم كان تهذيب النفس، وترويضها على التقلل والاعتدال، وعدم التبذير والسرف، في المأكل والمشرب والملبس والبنيان وسائر مظاهر الحياة، أصلاً من أصول الفقه الحضاري في الإسلام، وشرطاً من شروط تحريك الحياة في كل مظاهرها، ولعل من أبرز الدلالات على نهج الإسلام عن «الإسراف» ما رواه ابن ماجه من حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: «قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنَ السَّرْفِ أَنْ تَأْكُلَ كُلَّ مَا اشْتَهَيْتَ»^(٢)، وكذلك ما رواه أيضاً من طريق عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِسَعْدٍ، وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَقَالَ: مَا هَذَا السَّرْفُ يَا سَعْدُ؟ فَقَالَ: أَفَبِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ»^(٣)، وقوله ﷺ: «وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ» يدل على أن نهج الإسلام عن «الإسراف» في التعامل مع موارد الحياة، إجراء إسلامي ممتد في حياة المسلم، ولا يتعلق بـ«الوفرة في هذه الموارد أو بالقلة، ولا بالصفة المالية أو عدمها، وإنما كان إجراء عاماً في كل الأحوال والأوضاع، سواء كانت الموارد وفيرة أو ضئيلة، أو كانت مالاً أو ليست بمال، ومقياسه الوحيد هو حد الكفاية في قيام الإنسان بوظيفته التعميرية في يسر، وذلك هو الحد الذي ينخرط به في دورة البيئة انخراطاً لا يسبب لها إرهاقاً، وهو حد «الاقتصاد» وما تجاوزه من استهلاك فهو «الإسراف» الذي جاء التغليظ في النهي عنه، والابتعاد منه»^(٤).

(١) التحرير والتنوير، ٧٩/١٥.

(٢) سنن ابن ماجه، ١١١٢/٢، حديث رقم: ٣٣٥٢.

(٣) المرجع السابق، ١٤٧/١، حديث رقم: ١٤٧.

(٤) عبد المجيد النجار، مقاصد الشريعة بلبعد جديدة، ص ٢٢٥.

وهكذا فإن «القوامة» مفهوماً إسلامياً، القائم على «الرفق والرحمة» و«الحفاظة والحماية» و«الزهد والإيثار الكوني» تعطي بُعداً جديداً في تعامل الإنسان مع معطيات الكون ومفرداته؛ مما يحفظ توازنها في الحال، ويبقي عطاءها للأجيال القادمة، فتبقى شريكاً معطاء.

وليست الحضارة العالمية بأصوليتها المادية الآن بحاجة إلى شيء مثل حاجتها إلى ترسيخ تلك القيمة فيها، بدلاً من «منطق القوة» السائد في تعاملها مع معطيات الكون (من خلال عملية غزو إمبريالية للكون تتم لحساب الإنسان الغربي وحده، وإن كان يتأثر بنتائجها كل سكان الأرض!!) ذلك المنطق الذي يسحق «الآن الغابات، والمحيطات، والغلاف الجوي، والمياه العذبة المتجددة، والرياح والمطر، والتنوع الثري للحياة ذاتها»^(١)؛ فالبشرية تحتاج اليوم إلى أن تتعلم كيف تقيم علاقة «قوامة» مع الكون، تحفظ له حرمة؛ حتى لا تعرض نفسها والكون من حولها للهلاك، بسفها وتجاوزاتها الأخلاقية، واندفاعها النهم والشهه وراء الاستهلاك، مما يهدد الحياة والبيئة والأرض جميعاً، وذلك ما أشار إليه آل جور - في معرض تحليله النقدي لما أفضت إليه الحضارة الغربية من أزمة بيئية، بفلسفتها المنفصلة عن كوكب الأرض - قال: «إن مستقبل الحضارة الإنسانية يتوقف على قوامتنا على البيئة، وبنفس الدرجة من الأهمية على قوامتنا على الحرية، وإن القوى الطاغية التي تعارض هذه القوامة واحدة في الحالتين: ألا وهي الجشع، والاهتمام بالمصالح الشخصية، والتركيز على الاستغلال في المدى القصير على حساب سلامة النظام البيئي نفسه في المدى البعيد»^(٢).

(١) الأرض في الميزان، ص ٢٨١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٣.

٣- المسؤولية والمحاسبة، وهذا هو البعد الثالث الذي يقوم عليه مفهوم «الائتمان الكوني»، بل يُعد من القيم المحورية التي يدور عليها منهج الإسلام في «تحريك الحياة»؛ إذ الإنسان، وفق المنظور الإسلامي كما تقدم، ليس بالسائب، بل مسؤول مسؤولية كاملة، عن مصيره، ومصير الكون المؤمن عليه، فهو يحمل مسؤولية استخدام مقدراته وعطاءاتها، وهذا الإحساس بالمسؤولية من شأنه أن يجعل الجميع يحافظون على الكون، بالقصد في الانتفاع، وبالصيانة من الخراب على حد سواء، وهذا هو المعنى المستبطن في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۚ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۚ﴾ (الزلزلة: ٦-٨)، كما أنه المعنى المستبطن في كل الآثار الشرعية التي أوردناها في هي الإسلام عن أي حركة تؤدي إلى إتلاف مقدرات الكون بغير حق، مثل قوله ﷺ: «من قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها، سأل الله عز وجل عنها يوم القيامة، قيل: يا رسول الله، فما حقها؟ قال: حقها أن تذبحها فتأكلها، ولا تقطع رأسها فيرمى بها، وفي رواية: من قتل عصفوراً عبثاً عجز إلى الله عز وجل يوم القيامة، يقول: يا رب، إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني لمنفعة»^(١)، وقوله ﷺ: «عَذَّبْتُ امْرَأَةً فِي هِرَّةٍ حَبَسْتُهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً، فَدَخَلْتُ فِيهَا النَّارَ...»^(٢).

ثم إن هذه «المسؤولية» تقتضي المحاسبة والمجازاة، عن كيفية استخدام مفردات الكون وعطاءاتها، واستغلالها، وإعمار الكون بها، وفق منهج الله في

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

أمره ونهيه، في وجوب «الانتفاع بنفع النافع، وإزالة ما في بعض النافع من الضرر، وتجنب ضرر الضرر، بالتهذيب أو بالإزالة.. فإذا غير ذلك النظام، فأفسد الصالح، واستعمل الضرر على ضرره، أو استبقي مع إمكان إزالته، كان إفساداً بعد إصلاح»^(١)، يتحمل الإنسان مسؤوليته، وبحاسب عليه، يقول رسول الله ﷺ: «لَا حَقَّ لَابْنِ آدَمَ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: طَعَامٌ يُقِيمُ صُلْبَهُ، وَتَوْبٌ يُوَارِي غَوْرَتَهُ، وَبَيْتٌ يُكِنُّهُ، فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ»^(٢)، أي: أن الإنسان إذا أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب، وفيما زاد عليه، إن لم يعص الله متعرض للحساب، وإن عصى الله فهو متعرض للعقاب^(٣)، ليس في الآخرة فحسب، بل يناله شقاء ما كسبت يده في الدنيا، قبل أن يجازى على فساده في الآخرة.

ومن الأمور المقررة أن هذه «المسؤولية» وما يترتب عليها من «محاسبة» تتعلق بالفرد وبالجماعة على حد سواء، فالحفاظ على الكون ومفرداته، والترقى بمعطياته، لا يُسأل ويُحاسب عليه الفرد وحده، بل إنه يمتد إلى دائرة الجماعة والأمم، فهناك كتاب يحصي على الأمة عملها: ﴿وَرَوَى كُلُّ أُمَّةٍ جَانِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ نَدَعَى إِلَى كِنْيَتِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية: ٢٨-٢٩)، كما كان هناك كتاب يحصي على الفرد عمله: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا

(١) التحرير والتوير، ١٧٣/٨-١٧٤.

(٢) قال الإمام العراقي في تخریج أحاديث إحياء علوم الدين: «أخرجه الترمذي من حديث عثمان ابن عفان، وقال: «وجلف الخبز والماء» بدل قوله: «طعام يقيم صلبه»، وقال: «صحيح» إحياء علوم الدين، ٢٠٩/٤. ورواية الترمذي: «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وتوب يوارى غورته، وجلف الخبز والماء» سنن الترمذي، ٥٧١/٤، حديث رقم: ٢٣٤١، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) إحياء علوم الدين، ٢٠٩/٤.

يَلْقَهُ مَشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا ﴿١٤﴾ (الإسراء: ١٣-١٤)،

فهذا كتاب لكل فرد، وذاك كتاب لكل أمة، وبين الكائين فرق كبير، وهذا المفهوم يعطي قيمة أكثر فاعلية في الممارسة والصيانة والحماية لفردات الكون ومعطياتها، فيكون الفرد مسؤولاً في الحفاظ عليها أمام الأمة بل والإنسانية جميعاً، كما أن الأمة مسؤولة عنها أمام الفرد بل والإنسانية جميعاً!!

إن مفهوم «المسؤولية» و«المحاسبة» عن الكون المؤمن عليه الإنسان، التي ربي عليها الوحي المسلم، من القيم التي لا بد من شيوعها بين العالم، في مقابل انعدام المسؤولية غير المسبوقة التي يشهدها العالم الآن في التعامل مع معطيات الكون وعطاءاتها، غروراً واستكباراً^(١)؛ إذ تمكن هذه القيمة الإنسان من مزيد المراقبة لأفعاله، وتعقب آثارها، والنظر في مآلاتها، فينهض إلى نقد نفسه، وتحمل مسؤولياته إزاء الأحياء والأشياء على الوجه الذي ينبغي، مؤدياً حقوقها بما يحفظ كيانها، ويضمن استمرار عطاءاتها، وديمومتها وتمتع الأجيال من بعده بها، فيأتي بكل فعل من أفعاله وهو يعي، على أكمل وجه، أن آثار فعله ومسؤوليته فيه، لا تقف عند جيله وذريته، بل تتعداهما، لا إلى الأجيال والذريات من بعده، وإنما إلى مستقبل يمتد إلى الأبد؛ ومن ثم يعلم أنه بتقصيره في أداء حقوق الكون، حماية وحفظاً، إنما يقصر في أداء حقوق نفسه هو أولاً، ثم في حقوق غيره ثانياً؛ إذ إن

(١) يقول آل جور، في الأرض والميزان، ص ١٧٤: «إننا نلاحظ تعدداً للمسؤولية، يدعو للدهشة في مواجهة الأزمات الخطيرة غير المسبوقة.. وبدلاً من تحمل المسؤولية عن اختياراتنا، فإننا ببساطة نحيل تلاماً ضخمة من الديون، وأسباب التلوث إلى الأجيال القادمة»، ثم أضاف قائلًا: «إن أماننا كحضارة، قد يكمن في قدرتنا على أن نتكيف مع إحساس صحي إزاء أنفسنا، بوصفنا نشكل حضارة عالمية بحق، حضارة تتسم بإحساس ناضج بالمسؤولية نحو صنع علاقة جديدة، ومثمرة، بيننا وبين كوكب الأرض»، ص ٢١٦.

تبعات أفعاله الحالية غير محدودة الآثار في القادم من أجيال الإنسان، وفي المكنون من عالم الأشياء^(١) !!

وهكذا، فإن الإسلام بهذه الأصول الثلاثة التي تضبط علاقة الإنسان بالكون: «وحدة الإنسان مع الكون»، و«التسخير»، و«الائتمان الكوني» وما تولد عنها من جملة القيم، يؤسس لفقه «الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا»، كما يرتقي بالمسلم في منهجية تحريكه للحياة، وتعامله مع الكون وعالم الأشياء من حولنا، استنفاعاً واستثماراً، إذ هي أصول كلها تقضي بإيجاد عالم تكون فيه العلاقات بين الأحياء والأشياء علاقات بين أقرباء، أقرباء فيما بينهم، وأقرباء من الرحمن الذي يتجلى عليهم، لا بقهره، وإنما برحمته، فيصير تعامله معها تعامل قوامه وتراحم، لا تعامل عداً ومغالبة، فيؤدي حقوقها أداء القريب لحقوق قريبه^(٢)؛ رفقاً بها، وتلطفاً في كيفية استثمارها، وحفاظاً عليها وصيانة مقدراتها، وذلك بحفظها من الفساد أولاً، وبالاقتصاد في الانتفاع بخيراتها ثانياً، وتنميتها ثالثاً، وفقاً للمبدأ الإسلامي: «أن المخلوقات كلها، على تفاوتها، بعضها قريب لبعض»، و«أن لكل خلق حقاً أو حقوقاً تخصه» فيأتي فعل الإنسان الحضاري معها متصفاً بـ«مشروعية المنطلقات» و«سلامة المآلات».

(١) أشار الصندوق العالمي لحماية البيئة في تقريره لعام ٢٠٠٦م، الذي حمل عنوان: «الكوكب الحي» إلى أن مستوى استهلاك البشرية للموارد الطبيعية يفوق بنسبة ٣٠% ما تستطيع الطبيعة تجديده، وإذا ما استمر الوضع على هذه الوتيرة، فإن سكان المعمورة في عام ٢٠٥٠م الذين سيصل عددهم قرابة ٩ مليارات نسمة، سيحتاجون لضعف الإنتاج الذي يمكن للكوكب الأرضي أن يوفره!! وهو ما يهدد قدرة الأرض على العطاء، كما يهدد مستقبل الأجيال القادمة، وقدرتها على الحياة والبقاء.

(٢) ينظر: طه عبد الرحمن، روح الحداثة، ص ٢٥٣.

رابعاً: البعد السنني (الاستعمار الإيماني للأرض بين القيم الحاكمة، والسنن القاضية):

«السنّة» مفهوم يدور في معانيه المعجمية حول: «الأمر المطرد»، و«الطريقة الدائمة»، و«القانون الثابت»^(١)، والمراد بـ«البعد السنني»: هو ذلك البعد الذي يراعي «عادات» الله المألوفة، و«قوانينه» الثابتة التي تتحكم في حركة الحياة والأحياء، والاعتبار بها، والتجانس معها؛ إذ إن ما وقع منها في الماضي يقع في الحاضر، ويُتوقع حدوثه في المستقبل، إذا تشابهت الأحوال^(٢)؛ فـ«الأمر لا تمضي في الناس جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً؛ فهناك نواميس ثابتة تتحقق، لا تبدل ولا تحول. والقرآن يقرر هذه الحقيقة، ويعلمها للناس؛ كيلا ينظروا إلى الأحداث فرادى، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصلية، محصورين في فترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان، ويرفع تصورهم لارتباطات الحياة، وسنن الوجود، فيوجههم دائماً إلى ثبات السنن واطراد النواميس، ويوجه أنظارهم إلى مصداق هذا فيما وقع للأجيال قبلهم؛

(١) يقول ابن فارس (معجم مقاييس اللغة، ٦٠/٣): «السين والنون: أصل واحد مطرد، وهو: جريان الشيء واطراده في سهولة».

(٢) ولا شك في أن المراد هنا: «السنن التاريخية» أو «الاجتماعية» التي تقف وراء الأحداث والظواهر العمرانية، والمرتبطة بحركة البشر والأمم في الحياة، صعوداً وهبوطاً، بقاءً وزوالاً، مثل: «سنة النصر»، و«سنة الدفع»، وغالباً ما يختص هذا المفهوم في الفكر الإسلامي بـ«السنن الإلهية». بخلاف: «السنن الكونية» التي لا يملك الإنسان أن يغير ظروفها، أو يبدل من شروطها، أو يمنع من وقوعها، فهي تجري عليه شاء أم أبى، مثل: «الموت» و«الحياة»... ومثل: «مسخرات الكون» التي يستفيد منها الناس، كل وفق جهده وسعيه في اكتشافها، والاستفادة من تسخيرها.

ودلالة ذلك الماضي على ثبات السنن واطراد النواميس»^(١)، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء: ٢٦).

إن «السنن» وفق هذا المفهوم تمثل «تحليلاً إيمانياً» لحركة الحياة، و«قيماً» مطردة تتحكم في مسارات الأفعال فيها، كما أنها من أهم أبواب الفقه الحضاري لفهم الأفعال الحضارية، على تنوع تلك الأفعال وتداخلها وتفاعلها، فهي تقدم أصولاً لحركة الاستخلاف، ومسارات العمران البشري؛ ومن ثم تمكنا من: - التعرف على ذاكرة الأمة وتواتر أحداثها، والقدرة التفسيرية لواقعها، وفقه العواقب والمآلات، وامتلاك الرؤية على تصويب الخلل وتجنب الإصابات؛ إذ من خلال قراءة هذه السنن والتبصر فيها، يجمع المسلم عقولاً في عقله، وتجارب في تجربته، ويضيف أعماراً إلى عمره، مبصراً العلل التي لحقت بالأمم السابقة، متقياً الإصابات المحتملة؛ وفقاً للقاعدة الحضارية: إن للعمران طبائع معروفة لو كشفناها لأمكننا تقدير المآلات، يقول تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٧-١٣٨).

- قراءة مستقبل الأمة في ضوء المدخل السنني؛ إذ الاعتبار يرشد إلى الصوابية في بناء الحاضر، ويمنح القدرة على عبور الماضي والحاضر إلى «استشراف المستقبل»، ثم التمكن من تشكيل المستقبل والمداخلة في بنائه، في إطار تواصل فيه حلقات الزمان، وتتفاعل ضمن مناهج التفكير والاعتبار.

(١) في ظلال القرآن، ٧٠٨/٦.

والتأمل في حديث القرآن الكريم عن هذه «السنن» يستخلص مجموعة من الحقائق، لها أهميتها القصوى في البناء الحضاري، والاستعمار الإيماني للأرض^(١):

الحقيقة الأولى: أنها سنن مطردة، لا عشوائية، ولا تتخلف، بل تنقسم بالنظام والانتظام، فكل حركة حضارية، مهما بدت جزئية أو صغيرة، محكومة بسنن فاعلة وقاضية، لا يقع فيها النسخ إبدالاً أو تحويلاً، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٧)، وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٢).

وهذا الاطراد والثبات في سنن الله المتحركة في حركة الحياة والأحياء، يُحدث لدى المسلم شعوراً واعياً، ومتبصراً لا عشوائياً ولا ساذجاً بضرورة قراءة هذه السنن، والتبصر بمسالكها التي تسير بموجبها الأمم، صعوداً وهبوطاً، تقدماً وتخلّفاً، وجوداً وذهاباً؛ للوقوف على مسار أمته ومصيرها فيما مضى، والتفاعل الإيجابي فيما يُستقبل من تاريخها، متحرّكاً في مساحات «السببية» بعيداً عن أوهام العبثية، أو المصادفة، أو الفوضوية ومساحات الخرافة والأسطورية، وبعيداً عن حديث «النهايات» الذي لا ينقطع، وحديث «المابعديات» الذي لا يتوقف، تأصيلاً لمفهوم «الأمر الواقع» (مثل مقولة فرانسيس فوكوياما: «نهاية التاريخ» أو «ما بعد التاريخ» والتي يعني بها أن التاريخ قد توقف عند النموذج الحضاري الغربي، واعتباره خياراً وحيداً لمستقبل الإنسانية، إن رغباً وإن رهباً) إذ في «البعد السنني» تسقط «الاحتمالات

(١) ينظر: محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ص ٤١-٤٧.

الجبرية» التي حاول فلاسفتها أن يخضعوا البشر لها كما أخضعت المادة، وتبقى حركة الإنسان وفاعليته رهينة بمحتمية السنن الإلهية وعملها.

الحقيقة الثانية: أن تلك السنن «ربانية» مرتبطة بالله سبحانه وتعالى، فكل قانون من قوانين الحياة هو كلمة من الله، وقرار رباني ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ قُلْ هَٰذَا هُوَ الْقَوْمُ لَا يَكَاذُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٧٨)، وهذا من جهة، يشعر المسلم بأن استعانتة بالنظام الكامل لمختلف الساحات الكونية، والاستفادة من مختلف مفردات الكون وعطاءاتها، ليس انعزالاً عن الله؛ إذ قدرة الله تتجلى من خلال هذه السنن التي تمثل حكمته وتديره في هذا الكون، فيبقى الإنسان دائماً وأبداً مشدوداً إلى الله، في حركة فاعلة وراشدة، ومن جهة أخرى فإن اتصاف هذه السنن بكونها «ربانية» يمنع الإنسان من «وقاحة الاستعلاء» التي هي تحد للإنسانية؛ إذ يعلم أنه لولا تسخير الله للكون له، وسيره وفق قوانين ثابتة أودعها الله فيه، لما استطاع أن يتمتع بإمكاناته في العطاء والإبداع، كما يمنع عن الإنسان «وقاحة الإحاطة» التي هي تحد للألوهية؛ إذ يعلم الإنسان أنها قوانين الله المتحركة في حركة الحياة والأحياء، فلا يتوقع على الله بمنازعة سعة علمه، وليس للإنسان من سبيل إلى الانفكاك عن هذه «الوقاحة» المهلكة إلا إذا نظر إلى هذه السنن باعتبارها «آيات ربانية» محكومة بإرادة الله، تحتها قيم توجب الإيمان بالذي يسع علمه كل شيء، ويمكر بكل من نازعه علمه.

الحقيقة الثالثة: أن هذه السنن لا تجري من فوق الإنسان، بل من تحت يده، باختياره وإرادته؛ إذ عطاء السنن محكوم بالعدل الإلهي الذي يجعل سنن

الفعل والتغيير مرهونة بشروطها، وجوداً وعدمًا، بعيداً عن توهمات بعضهم من أن هناك تناقضاً بين حرية الإنسان واختياره، وبين سنن الله في كونه وأقداره النافذة، فإما أن نقول: إن للحياة سننها وقوانينها، وإما أن نسلم بأن الإنسان حر مريد مختار، وهذا الوهم قد عاجله القرآن الكريم، مبيناً أن هذه القوانين والسنن ربانية، مقررة وحياً من الله، ومثبتة في آيات كتابه، ولكن محورها هو إرادة الإنسان، فاختيار الإنسان له موضعه الأصيل فيها، والآية العمدية في ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ لَعَنَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٦٥)، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٥٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (الرعد: ١١)، ومعنى ذلك: أن السنن مع كونها «ربانية» فإنها تدور مع فعل الإنسان الحضاري، إن سلباً وإن إيجاباً، إن قوة وتمكيناً وإن وهناً وهواناً، فهي سنن «قاضية» بحكم ربانيتها، ولكنها «اختيارية» بحكم ارتباطها بفعل الإنسان وإرادته؛ ومن ثم فهي تأخذ عادة، في القرآن الكريم، صورة قضية شرطية، تربط بين حادثتين، أو مجموعة من الحوادث، باعتبارها «سنتاً شرطية» تحرك الفعل فيها بشرطه كذلك الجواب، بحيث متى تحقق الشرط تحقق الجزاء والعكس، مما يعبر عن إرادة الإنسان واختياره الفاعل؛ إذ هو منوط به تحقيق فعل الشرط، حتى يتحقق الجواب،

كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَالِمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (فصلت: ٤٦)، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ١٨٢، والأنفال: ٥١).

إن ثمرة هذا «البعد السنني» تظهر في أمرين، يمثلان قimaً بالغة الأثر في الاستعمار الإيماني للأرض:

أولهما: قيمة التذكر والتدبر و«الاعتبار بأيام الله»^(١) (فقه الواقع الكوني)؛ فهذا الأمر الإلهي المتكرر بالسير في الأرض، وتعقل سنن الأولين وتبج عاقبتهم (عاقبة المكذبين، وعاقبة المتقين)، ومعرفة سنن الله في الآفاق وفي الأنفس، وفهم أسرار الحياة ومنطقتيها، وحركتها ومحركاتها، والتعرف على «خزنة» السنن المتحركة في تقلبات الأمم الحضارية بين حال «العز» و«التمكين» وحال «الغنائية» و«الهوان» ليؤكد أن حركة الحياة خاضعة لسنن قاضية، توطر سعي الإنسان فيها، وأن هذه السنن ليست مجرد أحداث محكومة بقوانين، بل هي أيضاً آيات مقرونة بقيم، يجب تذكرها والاعتبار بها في «تحريك الحياة»، فذلك قوله تعالى أمراً بالاعتبار: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَحُ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١)، فلا يمكن أن تتحقق عناصر «الاستخلاف»، و«التزكية» و«الاستعمار الإيماني للأرض»، ضمن منظومة القيم الحضارية في الإسلام، إلا من خلال الوعي بهذه السنن، والعمل

(١) وفق قوله تعالى: ﴿وَتَذَكَّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم: ٥).

بها ولها، بالإضافة إلى الوعي بجوهرها وأصولها، تذكراً وتدبراً، باعتبارها مقدمات لعناصر السعي الحي في «تحريك الحياة»، ونتائج لمكونات «الحياة الطيبة»، وباعتبارها «أساس الاستبصار» في إقامة نظام العمران، وصلاح أحوال المعاش، ومحك أفعال البشر في بيان صوابها أو خطئها، بما يوصل عناصر فاعلية حقيقية، وليس عبارة عن أمانٍ؛ ومن ثم لا نبعد إذا قلنا: إن غياب «الشهود الحضاري» للأمة المسلمة، أو «الانحسار الحضاري» الذي تعاني منه الأمة الآن، إنما كان أحد أهم أسبابه: تعطيلها النظر في السنن والاعتبار بسياقاتها وتأثيراتها وتفاعلاتها، وعدوؤها عن فهم واستخلاص «التدبيرات الإلهية» في تشكيل الحياة، أو قراءتها هذه السنن في سياق «الغفلة» أو «الإلف» أو «تزييف الفهم لها» تشويهاً وتفرغاً، أو مخادعة وتمويهاً.

ذلك أن السنن هي «كليات مرجعية» تحكم الحركة الحضارية عامة للناس كافة، فهي فاعلة على المسلم والكافر، لا تحايي أحداً في محك التعامل معها، بعيداً عن أي وهم أو ادعاء كاذب يحاول تفسير قيام الحضارات أو انهيارها، أو يحاول ربط سنن التغيير أو التقدم أو العماراة أو البناء بدور «العرق» أو «اللون»^(١)، وبذلك يمتلك المسلم «المعيار» الذي «يُقوّم» به حركته الحضارية، تفسيراً وتقويماً، فيحاكم فعله الحضاري إلى «السنن الإلهية» وعياً بها، وسعياً إلى الاستثمار الإيجابي لها، والعبور من خلالها نحو عناصر الفاعلية والتمكين، فإذا كان تشابه بين أمة اليوم، ووضع أمم سابقة عليهم، فعلياً أن نعلم أن «سنة الأولين» قد انطبقت أو لابد أن تنطبق يوماً عليهم، ففي حديث زياد بن لبيد،

(١) سيف الدين عبد الفتاح، مدخل القيم، ص ١٩٢.

قال: «ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئاً، فَقَالَ: وَذَلِكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ وَتَحْضُرُ الْقُرْآنَ، وَتَقْرُؤُهُ أَبْنَاءُنَا، وَيَقْرَهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: تَكَلُّنَكَ أُمَّكَ يَا ابْنَ أُمِّ لَيْدٍ، إِنْ كُنْتَ لِأَرَاكَ مِنْ أَفْقِهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ؛ أَوْ لَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالتَّصَارِيُّ يَقْرَوْنَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ لَا يَنْتَفِعُونَ مِمَّا فِيهِمَا بَشْيءٌ!؟»^(١)

فَقَوْلُهُ ﷺ: «أَوْ لَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالتَّصَارِيُّ يَقْرَوْنَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ لَا يَنْتَفِعُونَ مِمَّا فِيهِمَا بَشْيءٌ!؟» مفسراً بما واقعاً في المستقبل، يدل على أنه ﷺ كان يرى المستقبل من خلال السنن التي تعم الجميع، فالذي انطبق على أهل الكتاب السابقين، سينطبق على أمة القرآن، إذا ما تشابهت الأفعال^(٢)، مما يجعل «السنن» أهم عمليات «أصول الفقه الحضاري» في المنظور الإسلامي، بما تمثله من «معياري» علمي سديد منضبط يتفهم عناصر الظاهرة الإنسانية في تشابهاها وخصوصياتها، كما يجعلها «ناظماً معرفياً» للجمع بين قراءة «الوحي» وقراءة «الكون»؛ إذ مدخل «السنن» في «الاستعمار الإيماني للأرض» يجعل قراءة «الوحي» موصولة بالكون وواقعه، فهماً وتنزيلاً، إذ إنما تستوعب جملة الأفعال الحضارية في امتدادها وتراكمها، كما يجعل قراءة «الكون» موصولة بالوحي وضوابطه، رصدًا وتقويمًا، وسيورة ومالاً، وهذا الجمع هو الذي يفهم

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ١٦٠/٤، حديث رقم: ١٧٥٠٨، وروى نحوه الإمام للحاكم في المستدرک، ٦٨١/٣، حديث رقم: ٦٥٠٠، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»

(٢) جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، بحث في سنن تغيير النفس والمجتمع (ممشق، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ص ١٢٠.

من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤).

ومن خلال هذه القراءة الجامعة بين «الوحي» وضوابطه، و«الكون» وواقعه، نقف على جملة من «السنن الإلهية» التي تكون «منظومة» تتحكم في الفعل الحضاري، كما تحكم عناصر الصلة بين الداخل والخارج، و(الذات) و(الغير)، نحاول أن نشير إلى أهمها على النحو التالي^(١):

- سنن التغيير والتبديل، التي تشير إلى أن الإنسان حقيقة قابلة للتغيير في كل آن وحين، وأن هذا التغيير لا يمكن أن يتم إلا بالتعرف على «منظومة الأبعاد» الداخلية للأفراد والأمم التي تروم هذا التغيير، والتعرف على الشروط الظاهرة والكامنة التي تسهم في تشكيل الأحداث وصناعتها، والوقوف على آثارها ومآلاتها (قراءة السنن قراءة واعية)، والآية العمدية في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا يَأْنِفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

وهذا التغيير وإن كان مسؤولية الإنسان الفرد، الذي يشكل نقطة البدء فإنه، باعتباره سنة اجتماعية، لا يؤدي ثماره إلا إذا كان على محيط المجتمع بكل

(١) ينظر في تصنيف هذه السنن وتعدادها: عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية؛ إبراهيم بن علي الوزير، على مشارف القرن الخامس عشر الهجري، دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر؛ الطيب برغوث، مدخل إلى سنن للصيرورة الاستخلاقية، قراءة في سنن التغيير الاجتماعي، الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية؛ محمد هيثور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها؛ راشد سعيد شهوان، السنن الربانية في التصور الإسلامي.

عناصره، والوضع الاجتماعي بكل تداخلاته وما يلابسه من «آليات» في تحريك الحياة، فالآية تربط التغيير، بتغيير ما «يقوم» وليس بفرد واحد^(١)، إن التغيير، إذن، فعل اجتماعي، وإنجاز أمة؛ لتقوم به من عطائها، وإلا سقطت جميعها، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ٢٥)، وهذا ما بينه النبي ﷺ حينما سأله أم المؤمنين، زينب بنت جحش، رضي الله عنها، «رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكَ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟» قال: نعم، إذا كَثُرَ الْخَبْثُ^(٢).

إن التغيير «إرادة» حقيقية، و«عُدة» للخروج من حـ ل «الكل» حيث «العطالة الحضارية» إلى حال «العُدل» حيث «الاستقامة الحضارية»^(٣)، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ (التوبة: ٤٦)، ومن هذا المداد تأتي الإشارة النبوية الدقيقة، حينما سئل النبي ﷺ: «مَتَى السَّاعَةُ؟» فقال: وَمَاذَا أَعَدَدْتَ لَهَا؟^(٤)، فالإعداد والعدة هي التي تصوغ المستقبل، لا فعل الأمان! فإذا غابت «الإرادة» امتنع «الخروج»، وضاعت «العدة» أو ضُيِّعت، وإذا تعاظمت «الإرادة» كان ذلك مفتاح «الخروج»، واستثمرت «العدة» أو عُظِّمت، بعيداً عن أي وهم أو ظن قد يرسخ في الأذهان، فتعتقد أن «العطالة الحضارية» التي تعيشها الأمة، ليس لها من دون الله كاشفة، وأن سعي العالمين في

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم، ص ٣٣.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الفتن وأشراف الساعة، باب: اقتراب الفتن، ٢٢٠٧/٤، حديث رقم: ٢٨٨٠.

(٣) راجع: جوبت سعيد، الإيمان كلاً وعدلاً (دمشق: دار الفكر المعاصر).

(٤) صحيح البخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: مناقب عمر بن الخطاب، ١٣٤٩/٣، حديث رقم: ٣٤٨٥.

ضلال، وأن تغيير «الأمر الواقع» محال، مما يقطع عن الناس أسباب النهوض والتغيير، فهذا الوهم خروج عن مقتضيات «الاستخلاف» و«التركية» و«الاستعمار الإيماني للأرض» وإغفال لهذه السنة الدقيقة المحكمة، التي تقضي أن الله لا يغير ما بقوم، حتى يقوموا هم أولاً بتغيير ما بأنفسهم، وأن القدرة على التغيير لا يمكن أن تُرد على القوم من خارجهم، بل لابد أن تنبعث من داخلهم، من عزمهم وإرادتهم واختيارهم، «فالإنسان لا يمكن أن يغير شيئاً في الخارج إن لم يغير شيئاً في نفسه، وحينما نقول هذه الكلمة نقولها باعتبارها «علماً»، ولا نقولها فقط تبركاً بآية، نقولها «علماً» ونعلم مقدارها من الصحة العلمية والمعارية الدقيقة، إذاً لا يستطيع مسلم أو غير مسلم أن يغير ما حوله، إن لم يغير أولاً ما بنفسه، فهذه حقيقة علمية يجب أن نتصورها كقانون إنساني وضعه الله عز وجل في القرآن، كسنة من سنن الله التي تسير عليها حياة البشر»^(١).

- سنن العطاء الإلهي، فهو مبدول لكل البشر، للإنسان من حيث هو إنسان، وهذا قانون الله العادل في الخلق، لا يحايي أحداً، فبمقدار فعل الإنسان ووعيه وتفاعله وتفعيله لسنن الله الكونية، واستثمار مكوناتها في العمران، وبمقدار ما يكشف منها ويلتزم بها، بمقدار ما تعطيه هذه السنن من نتائج تناسب وفعله الحضاري، من غير نظر إلى لونه، أو عرقه، أو حتى كفره بالذي سخر له الكون، وهذا من سنن العمران التي لا تتخلف ولا تبدل، قال تعالى:

﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾

(١) مالك بن نبي، دور المسلم ورسالاته في الثلث الأخير من القرن العشرين، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٦هـ) ص ٥٢.

(الإسراء: ٢٠)، وإن كان القرآن يقرر طرفاً آخر لسنة الله الجارية في العطاء، وهو: أن «العطاء الحضاري» إذا كان مقروناً بالإيمان بالله تعالى كان «بركة» و«امتداداً» في الزمان والمكان، ضمن مدارج الترقى والبناء والعمارة الحضارية ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦)، ﴿وَالْوَلِيُّ اسْتَغْنَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ (الجن: ١٦)، أما إذا غاب عن العطاء الإيمان بالله كان في النهاية «زخرفاً» و«زينة» ولا بد من أن ينقلب إلى ضد مقاصده، إن عاجلاً أو آجلاً، هنا أو هناك.

- سنن الابتلاء (وما يتعلق معها من مفاهيم إسلامية من نحو: «الفتنة»

التي تختبر إيمان الناس وصدقهم/ و«المصيبة» التي تذكر الناس بما كسبت أيديهم ومسؤوليتهم عن اختياراتهم الحضارية، و«الإنذار» الذي ينبه الناس إلى عقاب قريب، أو حساب مهين/ و«الصبر» الإيجابي الفعال الذي يدفع الإنسان إلى تجاوز المحن^(١)، وهي حال ملازمة للحركة الحضارية للإنسان ما كانت الحياة واستمرت، اختباراً وتذكيراً، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّن دُونِ الْأَرْضِ رَفَعَ بِعَصَمِكُمْ فَوْقَ دَرَجَتٍ لَّيَبْلُوكُم فِي مَا ءَاتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّكُمْ لَفُوقُونَ رَجِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٦٥)، فالحياة ليست، كما يُظن، متاعاً دائماً، بل هي، في الحقيقة، نضال دائم، والإنسان فيها مبتلى في سعيه، إما للصبر، والشكر، والأجر، وإما للتوجيه، والتأديب، وللتمحيص والتقويم، في

(١) وهي مفاهيم تحمل في طياتها قيماً تدعو إلى ضرورة العودة إلى منهج الاستخلاف الصحيح، وتذكر الإنسان بحقيقة بغية الحضاري؛ ومن ثم نرى ضرورة إحلالها محل مفهوم «الأزمة» ببناؤه المادي، الخالي من كل هذه القيم.

إطارٍ من فاعلية الأمة، وبحثها عن عناصر التمكين، وفي إطارٍ من مواجهة التحديات و«الضغوط الحضارية» التي تواجهها الأمة على مختلف الجهات (تحديات: البقاء، والبناء، والنماء)، (وتحديات: التنازع بين أحوال القوة والضعف، والعزة والوهن، والعُثَاثِيَّة والتمكين)، (وتحديات: الفتن، والشهوات) باعتبار ذلك كله «بلاء» يجعل اليقظة الفعالة، والنشاط الحيوي، عمليتين حاضرتين في وعي المسلم وسعيه، قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

- سنن التدافع والتداول: فالتدافع بين «منظومة قيم الحق» و«منظومة قيم الباطل» بين جملة القيم الإيجابية الفاعلة للحركة الحضارية، وما تشكله من إضافة عمرانية إلى الكون بما فيه صلاحه وإصلاحه، وجملة القيم السلبية التي تفسد الحركة الحضارية، وما تشكله من أنماط التخريب والطفيان والإفساد في الكون، هذا «التدافع» بين المنظومتين من سنن الله الممتدة في خلقه، القائمة إلى يوم القيامة، ولولا هذا «التدافع» لفسدت الأرض، وانتقض العمران، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْكَامِلِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١)، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُرُوعٌ وَيَبُعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠)، وفي هذا «التدافع» تبقى سنة الله في قيام الحضارات وتداولها ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ﴾

وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُذَوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ (آل عمران: ١٤٠)، فالحضارة تاريخياً حركة متدافعة متداولة، ولكن من موازين هذا «التدافع» و«التداول» الدائمة في الحياة: أن «الدولة» وإن كانت مرة للمُبْطِل، فلا بد أن تكون العاقبة للمصلح إذ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٨١)، ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَذْهَبَ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمَا بَكَ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (الرعد: ١٧)، ومن ثم كان الأمر الإلهي ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: ٤٩)، إن قانون الله ماضٍ، وستته سارية ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة: ٢١).

إن مفهوم «التدافع» و«التداول» الحضاري، هو البديل الإسلامي لمقولات راجت في الساحة العالمية من نحو: «صراع الحضارات» و«صدام الحضارات» و«حروب الثقافات» و«نهاية التاريخ» وهي مقولات تم استدعاؤها، في الشرق والغرب، لرؤية الأحداث من خلالها عند كثير من الناس، في الآونة الأخيرة (وخاصة بين الغرب والإسلام)، وكلها مقولات تعبر عن «رؤية» واحدة للعلاقة بين «الذات» و«الآخر»، هي رؤية «العداوة» و«التناحر» لكل رؤية تؤمن بالتجاوز وترفض الحتميات المادية من جهة، و«الطغيان» و«الاستئثار العالمي» من جهة أخرى.

إنها مقولات تعبر عن «رؤية» تتضخم فيها «الذات» لتصبح المركز، وتمتد وفقاً لحركتها ومصالحتها على كامل مساحة المعمورة، و«الآخر» فيها ليس أمامه إلا اللحاق أو الإلحاق بالركب الحضاري، إن استطاع في ظل معادلات ظلمة، أن

يحقق ذلك. بخلاف مفهوم «التدافع» و«التداول» باعتباره أصلاً دافعاً لعملية الحراك الحضاري، فهو حركة متنوعة الأشكال، قد تكون «المجاهدة». بمفهومها الإسلامي، أحد أشكالها- حينما يجور الآخر، ويحاول فرض رؤيته، تنميظاً واستتباعاً، أو تحريماً وتدليساً، وليس لمجرد اختلاف الملل أو تباين الحضارات- ولكن «الإحسان» و«التراحم» و«التعارف» و«التعاون» من أشكالها أيضاً، وفق قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤)، ووفق قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: ١٣)، فجملة ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ تمثل «مقصداً» من مقاصد الوجود البشري، في المنظور الإسلامي، مما يجعل «الصراع» بضوابطه وموازينه الشرعية، جزءاً من الوجود البشري، وليس محور الوجود كله، كما تروج له هذه المقولات.

إن مفهوم «التدافع» و«التداول» وفق هذه الأشكال، والمقاصد الإسلامية، ليس رؤية لإقصاء (الآخر)، أو استبعاده، أو القضاء عليه، بل يعبر «عن رؤية تأسيسية للعالم، يحتل فيها (الآخر) مساحة مهمة، لا تقوم على تصنيفه المؤبد في دائرة «العدو» إلا إذا اعتبر هو، أي: (الآخر) أن ذلك خياره في أن يكون «عدواً»؛ فعالمية الاستخلاف (التي يدعو إليها الإسلام) تقوم بالأساس على مراعاة حق (الغير)^(١).

(١) سيف الدين عبد الفتاح العولمة والإسلام، ص ١٣٢.

- السنن التحذيرية «سنن السقوط الحضاري»، وهي التي توضح جملة من الأفعال والصفات التي ينبغي أن تحذر منها الأمم، لما لها من آثار سلبية في سعيها الحضاري، فتصيبها بالضعف والوهن، أو تؤثر جملة في كيانها الحضاري ذاته، مما يؤذن بخراجها؛ ومن ثم تعد من أهم أنواع السنن؛ إذ تشكل نوعاً من «القلق الحضاري» و«الوقاية الحضارية» في آن واحد، فهي في بنائها تشير إلى أن^(١): الفعل السلبي سيؤدي حتماً إلى جملة من النتائج السلبية، وأن الفطنة لسلبية الفعل ونتائجه، لا بد من أن تحرك عناصر: الاعتبار، وتدبر العاقبة، والفعل الإيجابي، وأن أول عناصر الفطنة في نطاق السنة التحذيرية، إنما يحرك أصول التفكير والاتعاظ والاعتبار، وتحقق «الوقاية الحضارية». مثل ما جاء في القرآن الكريم من التحذير من^(٢): «فساد القمة»، و«الانغماس في الترف»، و«الاستبداد والطغيان»، و«التكبر والاستعلاء»، والتحذير من «الظلم» و«الركون» إلى الظالمين، وهو في النهاية ما يجعل من الأمم «قوماً بوراً» على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ (الفرقان: ١٨)، ﴿وَوَيْتَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظُرُوبَ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ (الفتح: ١٢).

ويعتبر ما صح من «باب الفتن» و«النبوءات» في كتب السنة النبوية، والتي تتناول «سنن ظهور الإسلام» و«سنن غربته» و«أسباب نصر المسلمين» و«أسباب ضعفهم» و«شبكة العلاقات الاجتماعية» من المفاتيح العظيمة لفهم هذه السنن التحذيرية؛ إذ موضوعاتها متعلقة بمستقبل الأمة، ومواجهتها لتغيرات

(١) سيف الدين عبد الفتاح، مدخل القيم، ص ١٩٩.

(٢) ينظر في مكونات هذه السنة التحذيرية: محمد الصداق عرجون، سنن الله في المجتمع من خلال

القرآن، (الرياض: الدار السعودية للنشر، ١٨٩٤م) ص ٣٣-٣٦.

شاملة، وتحذيرها من أن تكون هذه التغيرات، والمتغيرات، سبيلاً إلى تفريطها في شيء من شريعتها، ومنهاجها الذي جعلها الله لها، مثل قوله ﷺ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قَلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كُفَّاءُ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»^(١)، ونحو قوله ﷺ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْمَعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذُنَ ابْنِ الْبَقَرِ، وَرَضَيْتُمْ بِالزُّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»^(٢)، فإن هذه الأحاديث، وغيرها من باها، يمكن قراءتها على أنها تنبيه للمسلمين من أن يقعوا في مثل هذه الأفعال الدالة على فساد الزمان، بل يجب تتبعها بالمواجهة والإصلاح، أي: أنها «منبهات» و«محفزات» حضارية، تبصر بالمصائر التي سوف يصير إليها من يعيشون بعيداً عن الهدى الإلهي. فهي تقدم نقداً لواقع سيكون؛ تحذيراً وتخويفاً من الوقوع في برائن ذلك الواقع أو الرضا به، وتحفيزاً للمسلمين، وإثارة لفاعليتهم؛ للاستعداد للتعامل مع هذا الواقع، وتحقيق مقتضى الاعتبار من «الإنذار النبوي»^(٣)، فلا تنزلق

(١) أخرجه أبو داود في سننه، ١١١/٤، حديث رقم: ٤٢٩٧، وروى نحوه الإمام أحمد في مسنده، ٢٧٨/٥، حديث رقم: ٢٢٤٥٠.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، ٣٧٤/٣، حديث رقم: ٣٤٦٢، والبيهقي في سننه الكبرى، ٣١٦/٥، حديث رقم: ١٠٤٨٤، وروى نحوه الإمام أحمد في مسنده، ٢٨/٢، حديث رقم: ٤٨٢٥.

(٣) وذلك في إطار وظائف النبوة الأربعة: و«وظيفة الشهادة»، و«وظيفة البشارة» و«وظيفة التنذرة» و«وظيفة الدعوة»، والفهم الصحيح لهذه الوظائف، وتنزيل أحاديث النبي ﷺ عليها، هو العاصم من الخلل؛ إذ «فهم وظيفة البشارة؛ لحفز الفعل الحضاري للإيمان لئلا ييأس، وفهم وظيفة التنذرة؛ لدفع الفعل الحضاري، لئلا يركن أو يغل، وفهم وظيفة الدعوة التي تحرك فاعليات الإيمان المسلم في كل علاقاته وفاعلياته»، سيف الدين عبد الفتاح، الدراسات المستقبلية في عالم المسلمين، ص ٤٤٣.

حركة المسلم إلى انحراف، أو تنوّه عن الطريق؛ ذلك أن التعرف على «الفتن» لا يمنح الإنسان القدرة على تمييزها فحسب، وإنما يمنحه قدراً كبيراً من التحكم فيها، والتخفيف من آثارها السلبية، ومغالبة قدر بقدر، والفرار من قدر إلى قدر، وإلا كان الوقوع فيها، أو بمعنى آخر: إن هذه الأحاديث، إذا أحسنّا قراءتها بأبجدية صحيحة، فسوف تشكل لنا المناعة، وامتلاك الإمكان الحضاري، والعصمة من الوقوع في الفتن، والقدرة على المواجهة والإصلاح، وفي ظني أن هذا هو الغرض الأكبر منها، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُمْ عُدَّةً﴾.

وفي هذا السياق يستطيع العقل المسلم الواعي أن يقرأ أحاديث «الفتن» و«أشراط الساعة» و«التنبؤات» واستخلاص مجموعة من الصفات والأفعال الحضارية، في دلالاتها المباشرة وغير المباشرة، لحالة «القوة» و«الوهن» و«النصر» و«الهزيمة» وغيرها، وبذلك نشكل رؤية كلية لمنظومة التحديات الحضارية، مما يمكننا من رؤية الخريطة المستقبلية، وفقاً لأقوال الصادق المصدوق (عليه السلام)، بعيداً عن مواقف اليأس والقنوط، وبعيداً عن القراءات المتأزمة، الصادة عن الفعل، المعطلة للفاعلية، والتي تقرأ هذه الأحاديث بأبجدية تقلب المعاني، فلا ترى فيها تحذيراً من برائن واقع ينبغي لنا أن نبصره ونجاهده، بل إخباراً عن وقائع حادثة لا محالة، وما علينا إلا انتظار وقوعها، ولو كان الأمر كذلك، فهذا يعني أن الإنسان مسير، وليس مخيراً، وهذا هو المعنى الذي قصده علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، حين قال: «ويحك لعلك ظننته قضاء لازماً، وقدراً حاتماً، لو كان ذلك لسقط الوعد والوعيد، ولبطل الثواب والعقاب، ولا أنت لائمة من الله المذنب، ولا محمداً من

الله لمحسن، ولا كان المحسن أولى بثواب الإحسان من المذنب، ذلك مقال إخوان عبدة الأوثان، وجنود الشيطان، وخصماء الرحمن»^(١).

- سنن التلازم: وهي تشير إلى عدة قوانين متلازمة في حركة الحياة، فهوذاً وسقوطاً، مثل^(٢):

- التلازم بين الطاعة والنصر، والعصيان والهزيمة، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ الْآزِلُ أَعْمَلْتُمْ ذَاكَ إِنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلْتُمْ ﴿١﴾ أَفَلَا تَبْسُرُونَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَرَأَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَشْرَأُهَا ﴿٢﴾ ذَاكَ إِنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿٣﴾ (محمد: ٧-١١).

- التلازم بين الأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية، امتلاكاً وتحصيلاً وإعداداً واستعداداً ومقاصد، والشهود الحضاري للأمة، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠).

(١) كنز العمال، ١٨٠/١.

(٢) بسبب المساحة المتاحة، فقد تم الاكتفاء في هذه المتلازمات بإثبات الفكرة الرئيسة وأكثر النصوص دلالة عليها دون التفاصيل، وهو ما يمكن استدراكه في طبعات أخرى (الناشر).

- التلازم بين التنازع والفرقة، وفشل الأمم وهزيمتها، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦)، وقال ﷺ مبيناً تلازم هذه السنة واطرادها: «لَا تَخْتَلَفُوا؛ فَإِنْ مَن كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا»^(١).

- التلازم بين الاستكبار والاستلاب الحضاري، والاستضعاف والاستخفاف، قال تعالى، في حديثه عن فرعون واستلابه لقومه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ (الزخرف: ٥٤-٥٦).

- التلازم بين الظلم والطغيان، وهلاك الأمم، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَمَلَكْنَا مِنْ قَرَبٍ بِطَرَفِ يَدَيْهِمْ فَلَمَّا فَسَّخْنَاهُمْ مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمَةٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص: ٥٨-٥٩).

- التلازم بين الانهيار الحضاري للأمم، وانحلالها الأخلاقي، فإنتاجية الأمم وبقاؤها يكون على قدر أخلاقيتها، مهما كانت لهم القوة والمنعة المادية، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الاستقراض، باب: ما يذكر في الأشخاص والملازمة، ٨٤٩/٢، حديث رقم: ٢٢٧٩.

الْقَوْلَ فَدَمَرْنَهَا تَذَمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ
يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ (الإسراء: ١٦-١٧).

- التلازم بين اختلال الموازين، وفساد الأعمال (الوهم الحضاري)، قال
تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُخْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ
فَخَبِطَ أَعْمَالَهُمْ فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٥).

- التلازم بين معاودة إخراج الأمة واسترداد فاعليتها والتمكين لها، وإدراكها
أبعاد رسالتها، ومعرفة طريقها، وإقامة الحمايات والحراسات على هذا الطريق، قال
تعالى: ﴿كُتِبَ خَيْرَ أَمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ
مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ (آل عمران: ١١٠).

فهذه «السنن» و«المتلازمات الحيوية» وما يتوالد عنها من «سنن فرعية»
إنما هي شيء قليل من كثير نفهم به حركة الحياة، ونقف به على جملة من
طابعها وظواهرها، وعوامل الاختلال فيها، ونحرك من خلاله إمكانات بحثة
وتفسيرية لما تمر به أمتنا الآن، والمسلم اليقظ الواعي، في استعمار الإيماني
للأرض، و«تحريكه الحياة» وفق منهج الله في أمره ونهيهِ، مطالب بأن يحيط
علماً بهذه الظواهر، تدبراً واعتباراً، سواء ما تحدث عنه الوحي، قرآناً وسنة،
أو ما اكتشفه السلف من المؤمنين، أو ما يمكن أن نكتشفه نحن، أو ما يمكن أن
يكتشفه غيرنا مما يتفق مع مسيرة الحياة وسيورها؛ حتى يأتي سعيه متجانساً مع
«حركة الحياة» دون «تمويه»، أو «استقالة»، أو «إحالة على الغير» ﴿قُلْ هُوَ

مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴿﴾ إن هذه «السنن» و«المتلازمات» تمثل «ميزان الله» في الأرض، وهو ميزان لا يحيد عن مساره، ولا يخطئ غايته، إنه ميزان «العواقب» و«المالات» التي لا تخطئها عين ﴿﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿﴾ (يوسف: ٢١).

وبذلك يتبين أن وظيفة القيم الحضارية في الإسلام، من خلال «فقه السنن» ليست فقط تصويب الحاضر، وتقويمه بقيم الدين، وإنما قراءة الماضي، وإعادة معايرته، والاعتبار به؛ حماية للحاضر «التقوى الحضارية»، وحسن بناء وتقويم للمستقبل.

فانيهما: وثاني الثمرتين المترتبتين على «البعد السنني» في الاستعمار الإيماني للأرض، هو تعميق قيمة: «الائتمان على المستقبل»^(١)، فالمسلم من

(١) شاع في الدراسات الحضارية، في الآونة الأخيرة، مصطلح: «استشراف المستقبل» للدلالة على وجوب مراعاة المستقبل، والنظر في مآلات الأفعال، والتخطيط الواعي للحركة الحضارية. وقد أثرت التعبير عن ذلك بـ«الائتمان على المستقبل»؛ إذ إن كلمة «الائتمان» تحمل في طياتها من الدلالات ما لا تحمله كلمة «الاستشراف» فالأخيرة في بنائها المعجمي تدل على معاني: النظر إلى الشيء، والبصر به، والتطلع إليه، والنفو منه، وتوقعه (ينظر: تاج العروس، ٥٠٥/٢٣ وما بعدها) أما كلمة «الائتمان» فهي مأخوذة من «الأمانة» أي: ما يؤتمن عليه الإنسان، وما يقتضيه ذلك من الحفاظ عليه، والقيام بحقه حتى يتم تأنيته، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَلَاةَ يَأْمُرُهُمْ أَنْ يُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا آلِهَةً وَأَوْسَادًا تَتَخَلَّفُونَ عَنْكُمْ وَتَأْمُرُونَهَا أَنْ لَا تَمْسَسُوا بِهَا﴾ (الأنفال: ٢٧)، فيحمل بذلك مصطلح «الائتمان على المستقبل» ما يحمله مصطلح «استشراف المستقبل» من النظر إلى المستقبل والوعي به، بالإضافة إلى ما يزيد عليها من معاني: «الفاعلية» و«المسؤولية» و«المحاسبة» التي يقتضيها لفظ «الائتمان»، فيكون المستقبل وديعة يحاسب حاملها على التقريط فيها! ولا شك أن هذه المعاني لها دلالتها في الحركة الحضارية، بالإضافة إلى ما تتعلق معه من مفاهيم: «الامتثال» و«التزكية» و«الاستعمار الإيماني للأرض» فيكون مصطلح «الائتمان على المستقبل» أكثر ارتباطاً بـ«منظومة المفاهيم الإسلامية» من مصطلح «استشراف المستقبل» لخالي من معاني: «الفاعلية» و«المسؤولية» و«المحاسبة».

وبذلك يكون «الائتمان على المستقبل» مفهوماً حضارياً إسلامياً، نحتاج إلى الوعي به وتقويله في سعينا لتحريك الحياة، بعد أن ارتفعت صيحات تنبئ بأن العالم قد استنفذ طاقات الحياة بصورة قد لا تدع للمستقبل شيئاً، والله أعلم..

خلال قراءة هذه السنن وفقهها، والتحليل الإيماني لها^(١)، يصبح مستوعباً لقوانين الحركة في الحياة، عارفاً بقوانين السقوط والنهوض، قادراً على تشكيل مستقبله وامتداد فعله؛ ذلك أن مفهوم «التدبر» و«الاعتبار» في البعد السنني، لا يشير إلى معايرة الحاضر بمعايير السنن الإلهية رصداً وتحليلاً وتفسيراً وتقويماً، فحسب، بل يتطلب، أيضاً، تصويب التوجه إلى المستقبل، بإدراك الغايات والمآلات، أي: العبور بالفعل إلى دائرة أكثر فهماً ووعياً وسعيًا، فينظر المسلم - بمقتضى «السنن الإلهية» و«المنظومة الحركية» المرتبطة بها - في «المآلات» و«عواقب الأمور»، وكلها عناصر من أصول التفكير في «المستقبل»، فيبني حركته الحضارية من خلالها، فلا يكفي المسلم النظر، من خلال السنن، في عوامل الفساد المؤدية إلى «وهن» الأمم و«غثائتها» ومن ثم انهيارها، وعوامل الصلاح والقوة المؤدية إلى الحركة الفاعلة فيها ومن ثم بقاؤها وامتدادها، بل يجب أن يُتبع ذلك سعيًا وحركةً حضارية فاعلة بناءة، ضمن قيم «الاستخلاف» و«التركية» و«الاستعمار الإيماني للأرض» فيكون تدبر السنن فعلاً مستقبلياً، يقدر للفعل عواقبه، ويبحث عن سننه الفاعلة، وعياً وسعيًا؛ فإن عُدِم هذا السعي، وذاك التفاعل البناء، عُدَ النظر في السنن عبثاً لا قيمة له؛ إذ الوقوف عند السنن الحاكمة، والاكتفاء بالنظر فيها، قصور منهجي، لا يقل خطراً عن إغفالها أو التغافل عنها.

وبذلك النظر في «السنن» و«الاعتبار بها» و«العمل وفق مقتضاياتها» بمنح الإسلام المسلم منهجية صادقة وراقية وفاعلة في التعرف على المستقبل، والوعي بحركته، والمشاركة في صنعه، دافعاً إياه نحو «رؤية» مستقبلية شديدة العمق

(١) بخلاف النظرية الاستشرافية الغربية، بفلسفتها المادية الخاصة، البعيدة عن الإيمان، والاعتبار بيلم الله؛ ومن ثم فإن علم «المستقبلات» فيها، يشوبه الكثير من النقص، والكثير من التحيز والطغیان، وخاصة في تلك النظرة الاستشرافية التي تضبط الصلة بين الداغل والءارء، والذات والءفر..

والفاعلية، حيث القدرة على «استشراف المستقبل» و«فقه المآلات» التي سوف يصير إليها، و«مغالبة الأقدار».

ومعنى ذلك: أن المسلم، في المنظور الحضاري الإسلامي، ليس مطالباً باستشراف المستقبل رؤية وتخطيطاً فقط، بل هو مؤمن عليه أيضاً!! قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (الحشر: ١٨)، ففي قوله تعالى: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، أمر بالنظر إلى ما يقدمه الإنسان لبناء مستقبله «لغد» ذلك «الغد» الذي قد يكون قريباً، وقد يمتد حتى اليوم الآخر، في حركة مستقبلية موصولة^(١). ولعل في حديث النبي ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ إِلَّا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ، وَفِي رَوَايَةٍ: فَلْيَغْرِسَهَا»^(٢) خير دليل على الشعور بالمسؤولية تجاه حركة المستقبل، يقول الإمام المناوي في شرح الحديث، بعد أن ذكر خفاء الحكمة منه على بعض من الأئمة الأعلام: «والحاصل: أنه مبالغة في الحث على غرس الأشجار وحفر الأنهار؛ لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدّها المحدود المعلوم عند خالقها، فكما غرس لك غيرك، فانتفعت به، فاغرس لمن يجيء بعدك ليتنفع، وإن لم يبق من الدنيا إلا صباغة»^(٣)، وكذلك الإشارة النبوية الدقيقة، حينما جاءه رجل فسأله: «مَتَى السَّاعَةُ؟»، فقال النبي ﷺ: «وَمَاذَا أَعَدَدْتَ لَهَا؟»^(٤) ففي ذلك إشارة إلى

(١) سيف الدين عبد الفتاح، الدراسات المستقبلية في عالم المسلمين، ص ٤٤٨.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أي: بقية لا قيمة لها، فيض التقدير، ٣٠/٣.

(٤) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: مناقب عمر بن الخطاب، ١٣٤٩/٣، حديث رقم: ٣٤٨٥. وصحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: المرء مع من أحب، ٢٠٣٢/٤، حديث رقم: ٢٦٣٩.

أن العناية بالمستقبل، إنما تكون بالإعداد والعدة له، وأن الإنسان المسلم مؤتمنٌ على ذلك!!

ويؤكد هذا الشعور بالمسؤولية تجاه حركة المستقبل في «منظومة القيم الإسلامية» كل ما أوردناه، سلفاً، من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، توطر حركة المسلم في تعامله مع الحياة والأحياء، أمراً بالتفاعل الإيجابي مع مفردات الكون ومعطياته، والانتفاع بها على مقتضى الثقل والاعتدال، ونهياً عن كل عبث بها إسرافاً وإفساداً، واعتبار المسلم «مؤتمناً على الكون» حاضراً ومستقبلاً، «مأموراً بالزهد والإيثار الكوني» للأجيال من بعده، بل إن السنة النبوية تؤكد أن المسلم قادر على تشكيل مستقبله وامتداد فعله حتى بعد الموت، وذلك بالولد الصالح، نبت المستقبل، والصدقة الجارية، استمرار الامتداد والفعل والأثر بعد الموت؛، والعلم المستدام الدائم العطاء، فقال ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(١).

إن مسؤولية المسلم تجاه حركة المستقبل، استشرافاً واثماناً، ليست رجماً بالغيب المنهي عنه، ولا مؤسسة على عناصر معاندة للقدر، ولا خرقاً للزمن والواقع، كما قد يُظن، بل هي مسؤولية تحمل، في جوهرها، عناصر حركة تفكيرية وعملية، تنطلق من الوعي بالسنن الفاعلة، والحاكمة لحركة الحياة والأحياء، تدبراً واعتباراً، إلى السعي لتشكيل المستقبل، وفق «رؤية» الإسلام للعالم، و«مقاصده» في عمارة الكون، و«قيمه» في تحريك الحياة، في سياق «الاستخلاف» الذي يحدد مسار هذه الحركة، «والتزكية» المتحكمة في

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الوصية، ١٢٥٥/٣، حديث رقم: ١٦٣١.

وسائلها، و«الاستعمار الإيماني للأرض» الذي يشكل المقصد الأساس لحركة المسلم على امتدادها في الأزمان، عبادةً لله، وتعبيداً الدنيا له.

وهكذا، من خلال الاستعمار الإيماني للأرض، بأبعاده الأربعة، يحقق المسلم معنى «الاستقامة» التي أمر بها النبي ﷺ حينما سئل عن قول جامع في الإسلام، فقال: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ، فَاسْتَقِم»^(١)، وعن عبد الله ابن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما: «أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ أَرَادَ سَفَرًا، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَوْصِنِي، قَالَ: اعْتِدِ اللَّهَ لَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا. قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، زِدْنِي، قَالَ: إِذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زِدْنِي، قَالَ: اسْتَقِم، وَلْيَحْسِنْ خُلُقُكَ»^(٢) فـ«الاستقامة» هي انضباط حركة المسلم في هذه الحياة وفق منهج الله وشرعته، فتكون حركته، علماً وعملاً، منطلقة من معارف الوحي، ومنضبطة بمقاصده، ومناهج الاستمداد منه، فتكون كل أقواله وأفعاله، وأحواله ونياته، واقعة لله، وبالله، وعلى أمر الله^(٣)، وبهذا يمكن «للإسلام، وبربطه كل شيء بالله، أو بنظرته القائمة على ارتباط كل شيء بالله.. أن يكون خيرة تحرر ونضال ضد كل أشكال التسلط والعبودية، المفروضة على الإنسان، بحجة أطروحات مزيفة تبعده عن أصلاته ومركزه»^(٤).

(١) أخرجه الإمام مسلم، باب: جامع أوصاف الإسلام، من حديث: «سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك، وفي حديث أبي أسامة غزيرك، قال: قل آمنت بالله فاستقم»؛ وأخرجه الترمذي، باب: ما جاء في حفظ اللسان، وروايته: «قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِم». ثم قال: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن سفيان بن عبد الله الثقفي.

(٢) صحيح ابن حبان (٢/٢٨٣)، باب: ذكر الإخبار بأن على المرء تعقيب الإساءة بالإحسان ما قدر عليه في أسبليه، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين؛ والمستدرک (١/١٢١)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد من رواية البصريين ولم يخرجاه.

(٣) مدارج السالكين، ١٠٥/٢.

(٤) روجيه غارودي، الإسلام دين المستقبل، ترجمة: عبد المجيد بارودي (بيروت: دار الإيمان) ص ٦٩.

الخاتمة

القيم الحضارية في الإسلام من إشكالية القراءة إلى إشكالية التفعيل

- القيم والواقع: خطأ القراءة، وخذلان التفعيل:

لا أبعد إذا قلت: إن هذا الكتاب قائم في كل بنائه على الإجابة عن سؤال واحد، ألا وهو: كيف نحرك الحياة، انتفاعاً واستثماراً، بحركات يحبها خالق الحياة، ووفق مراده في أمره ونهيهِ؟ والإجابة عن هذا السؤال تقتضي أمرين، يشيران إلى طبيعة «الإشكالية» التي تعيشها الأمة الإسلامية اليوم: أولهما: ضرورة قراءة حركة الحياة، في مسيرتها وصيرورتها، بـ«أبجديات» إسلامية مأصولة، قادرة على تحديد عوامل «النهوض» و«السقوط»، والوقوف على مواطن «الإصابة» و«الانحراف»، والتعرف إلى أسبابهما، من خلال قيم الوعي المعصومة.

إذ إن جزءاً كبيراً من «كالاتنا الحضارية» - أو «عطائنا الحضارية» أو «انحسارنا الحضاري» - اليوم، يعود إلى أن كثيراً من القراءات - في خضم استعجال التقدم الحضاري - إنما تتم بعيداً عن قيم الوعي، إما جهلاً به، وإما سوء فهم للتعامل معه، وإما جنوحاً عنه، فتتخذ من قيم الحضارة القريبة، و«كلياتها»، و«حداثها»، ومصطلحاتها، معياراً للقراءة والتثقل، ومقياساً للمقاربة والمحاكاة، ومن ثم محاكمة حركتنا في الحياة بقيم غير قيمنا، استبعاداً وتميطاً، أو تخريباً وتدنيساً، وتزداد الإشكالية خطورة حينما يصر إلى تقرير أن الطريق الوحيد لخروج الأمة مما تعانيه هو التمثيل بقيم الآخرين، ومحاولة إيجاد الحلول في أوعيتهم الفكرية، وأنساقهم المعرفية،

وسعيهم في تحريك الحياة، احتجاجاً بعدم صلاحية قيمنا الإسلامية لاحتكام الواقع إليها، أو احتجاجاً بأن «مشروع الحداثة الإسلامي» هو بعينه «مشروع الحداثة الغربي» بعد إضافة بعض القيم إليه^(١)، فلم تزد الأمة بذلك إلا تخلفاً وتراجعاً، وهدرًا لطاقتها، وعجزاً عن تمثل إمكاناتها، وعناصر القوة فيها، حتى أصبحت لا هي بمستوى إسلامها، ولا هي بمستوى عصرها. فالواقع خير شاهد على أن إسقاط قيم الإسلام من «القرأة» و«البناء الحضاري» للأمة، لم «يهتمش» وجود الأمة فحسب، بل قد «هشمه» أيضاً!!

وثانيهما: ضرورة تفعيل قيم الإسلام في حياة المسلم «الإيمان الحي»، بمعنى: تحويل النظرية إلى ممارسة، والفكر إلى فعل، والقيم إلى برامج، وتقديم المعيار العملي لتحكيم قيم الإسلام في الواقع، وتقوم سلوك المجتمع الإسلامي بها، وتحقيق مقاصد الدين من خلال أصولها ومتطلباتها، فيكون إيمان المسلم، وكذلك الأمة المسلمة، يقيم الوحي إيماناً حياً يصدق العمل، وقولاً يصدق الفعل. باختصار: لا يكون هذا التفعيل إلا إذا كان كل سعي للمسلم في «تحريك الحياة» على وفق القيم العملية لدينه، والتقيّد بها في التعامل مع حركة الحياة والأحياء، باعتبارها: «إطاراً مرجعياً» بحيث تصبح قيم الإسلام، وعطاءات الوحي، روحاً سارية في أفكار الأمة وأفعالها معاً، وعياً وسعيّاً، تحريكاً وتشغيلاً، تفاعلاً معها وفعلاً بها.

وهذا التفعيل هو ما عبر عنه ابن خلدون بـ«التكليف» عند بيانه لحقيقة «التوحيد» في قوله: «إن المعتبر في هذا التوحيد، ليس هو الإيمان فقط الذي هو

(١) وهذا من «الأفكار القلقة» على حد تعبير المفكر الكبير مالك بن نبي، والتي تدمر الوجود الحضاري للأمة في مسيرتها وصوريتها. وفي إطار التقسيم لعالم الأفكار: «القلقة» و«الميتة» و«المخنولة» ينظر: مالك بن نبي، في مهب المعركة، ط٣ (دمشق: دار الفكر، ١٩٨١م) ص ١٢٤ وما بعدها.

تصديق حكمي؛ فإن ذلك من حديث النفس، وإنما الكمال فيه حصول صفة منه تنكيف بها النفس»^(١) فـ«تنكيف» النفس بالتوحيد، معناه: تفعيلها لقيمته، وانطلاقها في «تحريك الحياة» من خلال مقتضياته، استخلاقاً في الأرض، وتركبة للنفس، وتعميراً للأرض، وشهادة على الخلق.

القيم وآليات التفعيل:

لا شك أن هذا الواقع الذي نلاحظه في حياة الأمة الإسلامية، في تعاملها مع القيم التي تحرك الحياة، هو واقع، يتسم بـ«التهافت» من ناحية قراءة هذه القيم -في كثير من جوانبها- بـ«أبجدية» غريبة عن الإسلام ومنهج في تأطير سعي المسلم وتعامله مع الحياة والأحياء، كما أنه واقع يتسم بـ«الانفصال» من ناحية تمهيش العلاقة بين قيم الوحي المعصومة التي يؤمن بها المسلم، وسعيه في «تحريك الحياة». وقد أدى هذا «التهافت» وذاك «الانفصال» إلى أن ترسبت في ثقافة الأمة المسلمة كثير من الآفات، التي اعتنى بفحصها وتحليلها الأستاذ مالك بن نبي، في سياق أبحاثه عن (مشكلات الحضارة)، وعدها من المعوقات الخطيرة الكامنة في المجتمع الإسلامي، والتي لا تزال تعترض بشدة سبيل استعادة المسلمين لعافيتهم، وفوضهم لأداء دورهم وشهودهم الحضاري. لقد عمل مالك بن نبي، رحمه الله، على تحليل كثير من آثار هذا «التهافت» وذاك «الانفصال»، وأطلق عليها «الأفكار الميتة» و«الميتة» في ثقافة المجتمعات الإسلامية، انطلاقاً من نظريته الكبرى «Grand Theory» عن «القبالية للاستعمار» نظراً لبعدها عن قيم دينها، والتي من خلالها يمكنها «تحريك الحياة» واستعادة «شهودها الحضاري» كما بين، رحمه الله، أنه إذا كان تطبيق قيم الإسلام في «تحريك الحياة» واجباً حتمياً الأداء، فإن أداء ذلك

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٤٦٠.

الواجب لا يمكن أن يتحقق ضربة لازب، بل لا بد من التمهيد له بخطوات وفعاليات كثيرة، ولا يكفي الحديث عن هذه القيم وفوائدها، ووجوب تطبيقها، فهذا لا يكفي لإنجاح تجربة الإسلام في «تحريك الحياة» في هذا العصر الذي تطورت مؤسساته ودقت تخصصاتها، وتعددت وظائفها، وتشابكت علاقاتها مع بعضها بعضاً.

ومن ثم فنحن في حاجة إلى بذل جهد فكري اجتهادي ضخم يحرك الأمة لإعادة الاعتبار للقيم الإسلامية، ولتجاوز ذلك الواقع في «ثفاته» و«انفصاله»، واسترجاع «هوية الأمة الحضارية»، وذلك يجعل قيم الإسلام في «الاستخلاف» و«التزكية» و«الاستقامة في العمران» روحاً سارية في كل سعي للأمة نحو تحريك الحياة، بكل امتداداتها التي تشكل كل عناصر الفاعليات والتفاعل الحضاري بين المسلم والكون، وذلك من خلال محاولة ذات أبعاد ثلاثة تتكامل؛ لإقامة قيم الإسلام في الحياة، وتفعيلها في الواقع، تنزيلاً، وحراسة، وتنمية، على النحو التالي: أولاً: تنزيل القيم في حياة المسلم^(١):

بمعنى: ربط القيم بالواقع، من أجل تحقيق مناطاتها في واقعاته، وهذا يقتضي: «التأسيس القيمي» لكل جانب من جوانب حياة المسلم، والعمل على أن يخرج المسلم من النظر المجرد في القيم، ويدخل مباشرة في العمل بها، وتحقيقها في سلوكه، انتظاماً ومواظبة، حالاً ومالاً^(٢)، بحيث تسري قيم الإسلام سرياناً في كل حركة من حركات حياته، وبحيث يصير تنزيل القيم في حياته، وتقوم حركته في البناء والعمران من خلالها، وصفاً راسخاً، لا ينفك عن سعيه في «تحريك

(١) وهو ما عبر عنه الإمام الشاطبي، بـ«إنزال العلم على مجاري العادات»، الموافقات، ٩٩/١، و«ظهور الفعل على مصداق القول» الموافقات، ٢٥٤/٤.

(٢) إذ من المقرر في أصولنا الفقهية: أنه لا يمكن الصيرورة إلى تنزيل راشد للأشياء، دون تدبير مألٍ، ودون النظر في العواقب والمآلات، الموافقات، ١٩٥/٤.

الحياة» قولاً أو عملاً، إشارة أو حالاً، فلا يبقى جانب من جوانب حياة الإنسان المسلم خارجاً عن مراعاة قيم الإسلام فيه.

وهذا يقتضي الاستعانة بذوي العلم، وأهل الفكر، على وضع برامج «توضيحية» و«توجيهية» و«إعلامية» محكمة، في إبداع: «وسائل» و«أدوات» و«أوعية» عملية؛ لإذكاء «الشعور القيمي» عند المسلمين، أفراداً وجماعات، والاعتماد في ذلك على مراكز الدراسات والبحوث لتنفيذ هذه البرامج بالمعلومات والتحليلات اللازمة، ووضع الخطط التي تعين على تربية الأمة كلها، حكماً ومحكومين، على معاني هذه القيم، وبعث روحها في وعيها، بحيث تُترجم إلى حركة دائمة، ومتراكمة، وفاعلة، ومؤثرة، فتخرج هذه القيم من حيز «المبدأ» إلى حيز «الممارسة» على أن يُراعى في بناء هذه البرامج:

١- الحاجة إلى تجديد^(١) «الخطاب العقدي»:

فـ«العقيدة» في الحقيقة، هي المحرك الحضاري الأهم، بما تؤدبه من وظيفة محورية في تشكيل «الأمة»؛ ولكي يتأتى للمسلمين الخروج من وضع «الانغماسية الحضارية»، و«تغيب قيم الإسلام» عن سعيهم في «تحريك الحياة» لابد من تجديد

(١) لا يفهم من مصطلح «التجديد» هنا ما شاع في الآونة الأخيرة، وخاصة بعد أحداث سبتمبر، من ضرورة: «تجديد الخطاب الديني» للمسلمين، ويُعنى به غالباً: عرض الإسلام وقيمه وفق منطق (الأخر)، ومقتضيات خطابه هو، لا وفق منطق الإسلام، وحقيقته!! بل نستخدم مصطلح «التجديد» هنا بالمفهوم الإسلامي له، والذي يعنى به: فاعلية الأمة، ورجوعها إلى أصل دينها، وتحريك الحياة وفق قيمه ومقتضياتها، بعيداً عن دغوى الانفصال بين علوم الدين والنصن المؤسس كتاباً وسنة من جهة، وبينها وبين حركة المجتمع في البناء والعمران، من جهة ثانية. والتجديد بهذا المفهوم جزء لا يتجزأ من البنية المعرفية في الإسلام؛ إذ هو السبيل لامتداد مظلة الإسلام، وثولبته إلى الميادين الجديدة، والضمان لبقاء أصوله وقيمه صالحة دائماً لكل زمان ومكان، وذلك كله ضمن قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْفِثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ يُجَنِّدُ لَهَا دِينَهَا»، أخرجه أبو دلود في سننه، ١٠٩/٤، حديث رقم: ٤٢٩١، والحاكم في المستدرک، ٥٦٨/٤، حديث رقم: ٨٥٩٣.

مفهوم «العقيدة» بإخراجه مما علق في أذهان المسلمين، في عصور الجُمود والانفصال، باعتبارها حديثاً عن الله، وصفاته، والنبوة، والوحي، وأصول الإيمان، وانحسار مفهومها في «الغيبات» فقط، إلى مفهوم أرحب وأوسع يعتبر العقيدة هي: الرؤية التأسيسية الإسلامية، للإيمان بالله بكل مقتضياته، ولحركة الحياة بكل تفاعلاتها ومحركاتها، ولحركة الإنسان في الواقع، ولطبيعة الكون وأصول التعامل الحضاري فيه ومعه، ولغايات الخالق والمخلوقين في كافة نواحي الحياة (المبدأ والغاية).

وبذلك تصبح «العقيدة» مرجعية كل سلوك في الحياة، وفاعلية التحرك في شتى مجالات النشاط البشري، ولها تأثيراتها في مجرى الأحداث في حياة الأمة، فيكون سعي المسلم، وكذلك الأمة المسلمة، في «تحريك الحياة» في إطارها، وبترشيد منها، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك لك ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣)، أي: يكون البعد العقدي للمسلم حركة فاعلة في حياته بكل أبعادها، وليس مجرد اعتقاد إيماني بارد، أو شقشقة كلامية، أو تصديقات ذهنية مجردة، منفصلة عن حركة الإنسان في الحياة، وحدود حركته، وعناصر وظيفته واستخلافه..

وفي هذا الإطار من «مرجعية» العقيدة لكل حركة المسلم في الحياة، يُعتبر الحديث عن القيم المحركة للحياة: «الاستخلاف»، و«التزكية» و«الاستعمار الإيماني للأرض»، و«فقه السنن»، و«الشهود الحضاري للأمة».... إلخ يُعتبر كل ذلك من صميم العقيدة الإسلامية، ومن المفردات التي ينبغي إدخالها في «الخطاب العقدي»^(١)؛ حتى يشعر المسلم أنه إذا أُخل بتفعيل تلك القيم في حياته، جهلاً

(١) وكتابنا هذا بفصوله الثلاثة، قائم على بيان «التأصيل الشرعي» لذلك.

أو تقصيراً، فقد أخل بواجب من واجبات عقيدته، ومتطلب من متطلباتها، وأهمل مفردة من مفرداتها! وليس ثمة شك في أن اعتبار القيم المحركة للحياة، من صميم عقيدة المسلم، ومفردة من مفردات «الخطاب العقدي»، وتعميق وعي المسلم بذلك، له أثره الكبير في تحقيق عناصر الوصل بين «الواقع الكوني» و«الواقع الإنساني» مما يدفع المسلم للبحث عن «آليات» لتنزيل قيم الإسلام- والتي هي وفق هذا المفهوم جزء من عقيدته- على واقعه، والدفاع عن وجودها، والعمل وفق مقتضياتها في «تحريك الحياة»، كما أن له أثره الكبير في «تحرر» المسلم من كل القيم والمفاهيم المتوارثة من عصور «الجمود الحضاري» والتي تدعو إلى «كلالة النفس» و«الزهد» في تعمير الحياة، و«الانسحاب» من تحقيق معنى الخلافة في الأرض، والشهادة على الخلق، و«الاستكانة» إلى الكسل، و«التعايش» مع الذل، و«الخضوع» للهوى والشهوات. كما «تحرره» من كل القيم التي يُراد فرضها عليه، وتعمل على: «استلابه» وذوبانه في حضارة (الآخر) التي تمثل قيم الحضارة الغالبة، في إطار الحديث عن «عولمة القيم» و«القيم الكونية»، وفي سياق الحديث عن تركية النسق القيمي الغربي، وتركية سياقاته الفلسفية -بماديتها المحضة، ورؤيتها العلمانية، التي تتجه صوب «موت الإله» و«موت الإنسان» بل «موت الطبيعة» أيضاً- وتهميش الأنساق القيمية الأخرى، استبعاداً وتنميطاً، أو تخريباً وتدنيساً.

٢- الحاجة إلى تجديد «الخطاب الفقهي»:

فلابد من إنتاج «خطاب فقهي» يكون من مفرداته التأصيل لفقهِ يُبنى بقضايا الأمة كياناً وبناءً واستمراراً، والنظر في واقعها حالاً ومآلاً، وتحقيق جوهرها ومناطق خيريتها وفعاليتها، والتفكير بإيجاد الأوعية الشرعية لحركة الأمة ومعالجة مشكلاتها، ووضع الضوابط لبناء مؤسساتها، فقه يرتبط بالحياة في وجودها، وبالإنسان في فاعليته، وبالعمران في هيكله، فقه يُعنى بـ«عوامل البناء» و«عوامل

قيام الحضارات وانهارها»، «وسنن التداول» و«الإبدال» الحضاري، وكذلك بـ«سنن التدافع» و«التوازن» و«العدل» الكوني، فقه يوجه «السلوك الحضاري» للمسلم في عمارة الأرض، والسير في مناكبها، ومراعاة سنن الله في بنائها، والتعامل مع المستقبل استشرافاً واتماناً، فقه يكون من مفرداته العناية بالدخول الواعي والذكي، في هموم الإنسان ومشاكله، محلياً (من قبيل ما يعانيه المسلم اليوم من «وهن» و«بور» و«استلاب» في مسعاه الحضاري... إلخ) وكونياً (من قبيل الأطروحات التي تدور حول: العولمة، والحداثة، وحقوق الإنسان، ومشكلات البيئة، والأمن الدولي، والنظام العالمي، ومركزية الإنسان الغربي وعالمية قيمه، ونهاية التاريخ، وصدام الحضارات، وحروب الثقافات... إلخ) فينبغي أن يكون كل ذلك من مفردات خطابنا الفقهي؛ لمعرفتها أولاً، ثم الاجتهاد ثانياً، لوجدان حلول وظيفية وعملية لها، انطلاقاً من قيم الإسلام في: الخلافة في الأرض، والتعمير فيها، وقيم التعامل مع مفردات الكون وعطاءاتها، حفظاً وانتفاعاً واستثماراً، ووفق رؤية الإسلام ومقاصد شرعته في «تحريك الحياة» و«حفظ: الدين والنفس والنسل والعقل والمال»، وإصلاح الأرض وعمارتها، وترجية معاش الناس فيها، وتحقيق التمكين عليها، وتعبيد الفعل البشري لله سبحانه، بحيث تكون جميع فعاليات الكون متجهة إلى الله، صحة في المقاصد، وسلامة في الوسائل، وبصراً بالآلات.

كما لا بد من إنتاج «خطاب فقهي» يُكَيِّف هذه القيم التي تمثل روح حضارتنا الإسلامية، على أنها دين، وأن التمثل بها، وترجمتها إلى سلوك، والحركة بمقتضاها هو «مناط الشرعية»، وأن حملها في حركة الحياة، والالتزام بها، والسعي إلى ترجمتها إلى برامج، وإيجاد «الآليات» لتنزيلها على الواقع، والتبصر الواعي بمآلات تنزيلها، واتخاذها منهجاً في «تحريك الحياة» من الفروض الواجبة على الأمة، وأن التفريط في تمثيلها في حركة الحياة حرام، والدفاع عنها جهاد،

وحراستها مسؤولية، يقول الإمام القرافي: «أحوال الأمة، والنظر في مصالح الملة، فإنه من أعم فروض الكفايات»^(١) وكون تشغيل «القيم المحركة للحياة» وتفعيلها من «الفروض الكفائية» مما يعطي قيمة أكثر فاعلية لتلك «القيم» في الممارسة والصيانة والحماية؛ إذ إن مصطلح «فروض الكفاية» في بنائه الفقهي، يعني: التضامن والتكافل بين جميع أبناء الأمة؛ ليعين غير القادر، القادرين على تحقيق مراد الشارع ومقاصده في ذلك الفرض، وإلا أثلت الأمة جميعها؛ لأنه في الحقيقة «واجب على الكل سقط بفعل البعض»!! ولذلك كان القيام به له من الأجر والثواب عند الله أكثر من غيره من «الفروض»، يقول الإمام الجويني: «القيام بما هو من فروض الكفايات أخرى يحرراز الدرجات، وأعلى من فنون القربات من فرائض الأعيان؛ فإن ما تعين على المتعبد المكلف لو تركه، ولم يقابل أمر الشارع فيه بالارتسام والقيام، اختص المأثم به، ولو أقامه فهو الماثب، ولو فرض تعطيل فرض من فروض الكفايات لعلم المأثم على الكافة، على اختلاف الرتب والدرجات، والقائم به كافٍ نفسه، وكافة المخاطبين الحرج والعقاب، وآمل أفضل الثواب، ولا يهون قدر من يحل محل المسلمين أجمعين في القيام بمهم من مهمات الدين»^(٢). إن الشعور بهذه «الفرضية» هو الذي يجدد للإنسان، في كل يوم، حياته، من خلال تجديد طاقاته، وتحويلها إلى قوة فاعلة متجددة، تلاحق كل خطوات «الواقع» من أجل تركيزها على «قيم الإسلام»، وبذلك يتم تحويل «الفروض الكفائية» إلى محركات اجتماعية، ومحرضات نفسية؛ لأداء الرسالة و«تحريك الحياة» استخلاقاً وتزكية واستعماراً للأرض، وفق قيم الإسلام.

(١) للفروق مع هوامشه، ٢٧٦/٢. وينظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ٤٣/١.

(٢) الإمام الجويني، غياث الأمم والليثاء الظلم، تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم، ود. مصطفى حلمي، ط ١ (الإسكندرية: دار الدعوة، ١٩٧٩م) ص ٢٦١.

٣- الحاجة إلى تجديد «الخطاب القيمي»:

فالتأمل في «خطابنا القيمي» يدرك أن هناك قصوراً واضحاً في مفرداته ووظيفته؛ لأنه خطاب يُعنى، في جزء كبير منه، بالمفردات التي توجه سلوك الإنسان نحو «الآخرة» مع إغفال تام للمفردات التي توجه سلوك الإنسان في «تحريك الحياة الدنيا» مع انسحاب تام عن تقويم ما يجري في العالم الآن من سعي «في تحريك الحياة» ومحاكمته إلى «منظومة القيم» الإسلامية، التي تعبر عن رؤية الإسلام للإنسان والكون والحياة. ومن ثم فنحن في حاجة، من أجل تنزيل قيم الإسلام الحضارية وتفعيلها في حياة المسلم، إلى تجديد «خطابنا القيمي» وذلك وفق «آليات» ثلاث:

أولها: «إعادة الاعتبار» في «خطابنا القيمي» للمفردات التي تعبر عن القيم المحركة للحياة: «الاستخلاف»، و«التركية»، و«الاستعمار الإيماني للأرض»، و«الاستقامة في التعامل مع مفردات الكون، حفظاً و انتفاعاً واستثماراً»، وبيان أن هذه القيم تقدم «للمسلم رؤية» لـ «تحريك الحياة» وفق مراد الله في أمره ونهيه، ولا بد من مراعاتها؛ وصلاً لحركة الدنيا بالآخرة؛ حيث يجعل المسلم من الكون ساحته الحضارية، يحقق فيها قيم «الاستخلاف»، و«إعمار الأرض»، و«بناء الدنيا للآخرة» وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلْيَنْفِقْ﴾ (الانشقاق: ٦)، فهذا «الكدح الحضاري» الموصول بالله، ينبغي أن يكون من مرتكزات «خطابنا القيمي».

ثانيها: «تفكيك» «منظومة قيم الحداثة الغربية، ونقدها بجُلِّها ودِقِّها، وتمييز ما فيها من «وجوه الحق» و«وجوه الضلال»، ومحاكمتها من خلال: «قيم الوحي المعصومة»، والنظر في عواقبها ومآلاتها في «تحريك الحياة»، وبيان آفاتنا الفلسفية التي تنمو فيها وتستند إليها، وخاصة آفتي: «الانقطاع عن الغيب»، و«البعد عن قيم

الوحي المعصومة»، باعتبار أن الإنسان هو «مرجعية» ذاته، ومعيار قيمه. والاستفادة في هذا النقد، والتفكيك، بالدراسات التي قامت في الغرب نفسه، وهي كثيرة، والتي نتحدث عن «انتهاء الحداثة»، و«فشل قيمها»، و«عدميتها»، و«لا إنسانيتها»، وضرورة «تجاوز منظومتها القيمية»، كما نتحدث عن أزماتها المعرفية في العلوم الطبيعية، وخلل تعاملها مع مفردات الكون وعطاءاتها، إضافة إلى أن «المراجعات» الجديدة في «علم النفس» و«علم اللغة» تبين الخلل المعرفي في كثير من «النظريات المعرفية» التي أقامتها «الحداثة الغربية»^(١).

فهذا التفكيك والنقد لابد من أن يكون من مفردات «خطابنا القيمي» ثم الانطلاق في هذا الخطاب إلى بيان الفروق بين قيم الحداثة الغربية، القائمة على: «المادية المنفصلة عن كل قيمة» و«الاستثثار» و«افتراس الحياة» وقيم الإسلام، التي تحكم في سعي الإنسان في «التعامل مع الحياة والأحياء» من خلال مفاهيم: «الاستخلاف»، و«التزكية»، و«الاستعمار الإيماني للأرض»، و«الاستقامة في التعامل مع مفردات الكون وعطاءاتها».

إذ لا شك أن في هذا النقد لقيم الحداثة الغربية، وبيان أزماتها في «تحريك الحياة» حالاً ومآلاً، ومعاييرها بقيم الإسلام، سبيلاً من أهم السبل لـ«التحرر القيمي» أي: وقاية المسلم من «الارتداء» في أحضان الحداثة الغربية، والوقوع في «تحيّزاتها»، والتخلص من الإحساس بـ«مركزية» الغرب وقيمه، بحيث تستلبه استلاباً، بل يكون حراً في تعامله مع قيم هذه الحضارة، سواء أكان ذلك التعامل في جانب «الإفادة والاستصحاب» لما فيها من خير نافع، أم كان في جانب

(١) وفي هذا السياق، اقترح المفكر عبد الوهاب المسيري، تأسيس علم يسميه: «علم الأزمة» يدرس أزمة الحضارة الغربية، من جميع جوانبها، وخاصة «الجانب القيمي» فيها؛ للوقوف على «اتحرافات الحضارة الغربية في قيمها»، وفشل «ألسافها المعرفية» في «تحريك الحياة»، ينظر: حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري، الثقافة والمنهج، ص ٣٣١.

«الاعتبار والتثاني» لما فيها من ضر وفساد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن في هذه «المعايرة» بئاً لروح العزة والاستعلاء والقوة في نفس المسلم؛ وتحريكاً لعناصر الوعي بما يمتلكه من القيم العليا المزركية للإنسان، والبانينة للعممران، والمفاهيم الراشدة في «تحريك الحياة» كما أقرها الوحي المعصوم، في أبعادها الإنسانية، والكونية، والترحامية، فيستشعر في نفسه القدرة على «البعث الحضاري»، والقدرة على «استئناف العطاء»، ويتمكن المسلم من أداء دوره في تزكية الحياة، وترقية أحوال الأمة، و«الإسهام في تقويم المسار» الذي أخذ يسلكه «النظام العالمي» الجديد، بدلاً من «عقلية الوهن»، و«الانفزام النفسي» الذي تعيشه أمتنا اليوم.

ثالثها: «تقويم المشكلات والمتغيرات العالمية» ومساءلتها ومحاکمتها بقيم الإسلام، ومقاصده، في «تحريك الحياة»، وخاصة «مشكلة البيئة»، و«علاقة الإنسان بالأرض» وما تعانيه الأرض اليوم من: «التلويث»، و«التخريب»، و«العبث»، وفقدان «الرشد والتوازن»، وسيادة «منطق القوة»، و«الجبشع» في التعامل مع معطيات الكون (من خلال عملية غزو إمبريالية للكون تتم لحساب الإنسان الغربي وحده، وإن كان يتأثر بنتائجها كل سكان الأرض!!) ذلك المنطق الذي يسحق «الآن الغابات، والمحيطات، والغلاف الجوي، والمياه العذبة المتجددة، والرياح والمطر، والتنوع الثري للحياة ذاتها» حتى أصبحت البشرية اليوم، أكثر فاعلية وقدرة في مجالات التدمير منها مجتمعة في كل العصور التي مضت، وكانت النتيجة أن بدأت الأرض تموت!! بالإضافة إلى ما يسود العالم الآن من علاقات، تحكمها مقولات من نحو: «لهاية التاريخ» و«صراع الحضارات» و«النظام العالمي الجديد»... إلخ وهي مقولات تحمل في طياتها ما يمكن أن نسميه بـ«صناعة العدو» و«البغي الحضاري» الذي يعمل على «استلاب الآخر» من قيمه وذاته، استباعاً وتنميظاً، أو تحريظاً وتديلاً.

وفي هذا الإطار يبرز أن «منظومة القيم» في الإسلام، تمتلك برنامجاً كاملاً، وقادراً على أن يسهم بقوة في علاج كثير من مشكلات الحضارة الإنسانية المعاصرة، التي تنكبت طريق الوحي، وتمركزت حول ذاتها، تدمرها ومن حولها، إنساناً وطبيعة، فالإسلام قادر على إحلال عامل «الرشد» في مسير الحضارة الإنسانية، بدل عامل «البغي»، وما أحوجها إلى ذلك!! من خلال قيمه التي تقوم على: «التوازن والتجرد»، و«أداء الحقوق»، و«مراعاة الحرمات ورفع الأذواق»، و«أخلاق البذل والإيثار»، و«اصطناع المعروف»، و«ابتغاء الفضل وبذله»، و«التعارف»، و«الترحم»، و«محاربة الطغيان الحضاري» و«الاستئثار العمراني»، وكذلك قيم الائتمان الكوني وما تحمله من معان ودلالات مستبطنة في تعاليم الوحي قرآناً وسنة، من حيث وجوب التزام الإنسان، مادياً وأخلاقياً، نحو كل الموجودات والأشياء في الكون، فيما له هو منها، وما لها هي منه، وما يضيفه هذا المفهوم من وعي حضاري في «تحريك الحياة» تحريكاً يقوم على: «الزهد والإيثار الكوني» «تقللاً» و«اعتدالاً» في التعامل مع مقدرات الكون، وموارده، تعامل القيم الراعي المحكوم بمقاصد الشرع، لا تعامل الشهواني المستهتر، المحكوم بمقتضيات الشهوة.

ثمة إذن يقين في أن تضمين هذه القيم في خطابنا، وتشغيلها في الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها واقع العالم الآن، وتفعيلها في مواجهة المشكلات التي يعاني منها إنسان «منظومة الحدائث الغربية» لا يمثل إمكاناً لنقد قيم (الآخر) في «تحريك الحياة» بعد أن أدخلت «منظومة الحدائث» الغربية الإنسان في أزمة مع الكون ومستقبله، فحسب، بل يقدم أيضاً نقداً لواقع المسلمين، ومدى تفریطهم حينما غيّبوا في خطابهم، بوحي أو من دون وعي، هذه القيم التي تقدم رؤية معرفية «شاملة» و«راشدة» لـ«تحريك الحياة».

وهكذا، فإن هذه «الآليات» الثلاث: «إعادة الاعتبار لقيم تحريك الحياة في الإسلام»، و«نقد قيم الحدائث الغربية»، و«تقويم الأحداث العالمية بقيم

الإسلام، ومحاکمتها إليها» مما يجب العناية به، وإدخاله، في مفردات «خطابنا القيمي»؛ إذ إنها «آليات» تمكنا من «الوعي بالذات» وما نملكه من قيم قادرة على «تحريك الحياة». منهجية «راشدة»، كما تمكنا من «رؤية الآخر»، و«ترتيب علاقتنا به»، و«وعينا». مما يملكه من قيم تحمل «انحرافات كثيرة» في منهجها نحو «تحريك الحياة»، مما يدفع المسلم إلى العمل جاهداً على تنزيل هذه القيم في واقعه، بل والعمل على «تكوين رأي عام كوني» لصالح قيم الإسلام؛ حتى نبقي على قيمنا، وعسى أن نصصح، يوماً، ما فسد من قيمهم. ثانياً: حراسة القيم:

وهي «آلية» ذات أهمية كبيرة، في عملية «تفعيل» القيم الإسلامية؛ إذ لا يكفي في تفعيل القيم في حياة المسلم «تنزيلها» على واقعه، فحسب، بل لابد من «حراسة» هذا التنزيل، والدفاع عنه، وحمايته مما يطرأ عليه من «آفات» وخاصة آفتي:

- «الجمود»، إذ قد تكفي الأمة بالقيم التي بذلت جهداً في تنزيلها، فلا تتطلع إلى تجديد «آليات» هذا التنزيل، ولا تقويمه بالنظر في واقعه، والتدبر في عواقبه ومآلاته، فتبقى عاجزة عن إيجاد «البرامج» الجديدة، والاجتهاد في «تطبيقها»، مما قد يصيب هذه القيم بـ«الجمود»، و«انطفاء الفاعلية»، و«العجز عن النمو والاستمرار».

- «الانفصال»، إذ متى ما طال جمود الأمة على قيمها، أدى ذلك إلى انفصال واقعها المتجدد، وحاضرها المعيش عن تلك القيم «الانفصام النكد» كما حدث للأمة من قبل، حينما جمدت على قيمها، ولم تجتهد في تجديد «آليات» تنزيلها، ولم تعمل على تنميتها، حتى آل أمر الأمة إلى ما نحن عليه اليوم من «غياب للقيم» أو «انحراف في الممارسة»!!

و«الجمود» و«الانفصال» آفتان، توقفان حركية القيم، وتفقدانها فعاليتها في الفكر والروح والحركة، وتعطلان «آليات» وتجنب ذلك اقتضى حركة واعية، وتتطلب فقهاً ومراقبة، في «منهاجية» تقوم على أمرين، هما:

١- «فقه الواقع الحضاري» الذي يحتوي الوجود الدنيوي للأمة، بكل أسئلته، وسماته، وبكل امتداداته التاريخية والمستقبلية، وبكل تنوعاته، بالغة التعقيد والتركيب والتشابه، والاجتهاد في تطوير «آليات» يتم من خلالها تفعيل قيم الإسلام في تقويم ذلك الواقع، وتركيبته، والارتقاء به إلى «الحياة الطيبة» والاجتهاد في تنزيل هذه القيم تنزيلاً صحيحاً، بـ«نفسٍ مقاصدي» يروم الموازنة بين الأفعال، والترجيح بين المصالح والمفاسد، وفي ضوء وعي شديد بوجوب «اعتبار الواقع لا تحكيمه، ورده الرد الجميل إلى قيم الإسلام»^(١)، ووجوب «اعتبار الأولويات واستصحابها في عملية تنزيل القيم»، ووجوب «اعتبار مآلات تنزيل هذه القيم وعواقبها» حتى لا تُجلب مفسدة عوض المصلحة المقصودة، أو تُفوت مصلحة أكبر من أجل مصلحة أدنى!! إننا نستطيع أن نقرر في يقين: إن واقعاً لا يتم تفعيل القيم فيه، أو الارتقاء به إليها، يفرض جملة من الممارسات، إما تفرض الأمر الواقع، وتوحي بالاستسلام له مهما كان ظالماً، وإما تفرض الادعاء بعدم صلاحية هذه القيم لاحتكام الواقع إليها، وتوحي بضرورة جلب قيم غيرها، وهذا يعني: أن «حراسة القيم» في حياة المسلم، تقتضي اجتهاداً مفتوحاً على «الواقع» حالاً واستقبالاً؛ إذ هو اجتهاد

(١) بعيداً عما اشتهر في الأونة الأخيرة، في «خطابنا الثقافي» من مفهوم: «الواقعية» وهو مفهوم ليس في المفاهيم أشد مخالفة لمقتضى التغيير والنهوض، ولا أقوى على جلب الضرر لأهله منه؛ إذ يرد به: بسط هيمنة الواقع بكل تحريفات، والإكراه على قبوله. أما المقصود بـ«فقه الواقع» في «خطابنا الشرعي»، فهو: الاشتغال بوصف الواقع، ونقده، والتعامل معه، والعمل الذؤوب على تغييره، إن عاجلاً وإن أجلاً، والاجتهاد في رده إلى قيم الإسلام، وتحكيمها فيه، إذا ما لحرف عن المعيار، من خلال حركة واعية متبصرة، بالحال والمآل، دائمة الارتباط بالواقع، غير غارقة عنه، ولا عن ضروراته وإكراهاته. ينظر: إعلام الموقعين، ١/٨٨-٨٩، و٢٢٠/٤.

لا يمكن أن ينقطع، بل يظل مستمراً إلى يوم الدين، كما تقتضي اجتهاداً مستمراً في إبداع «الآليات» التي يتم من خلالها تفعيل القيم في هذا الواقع، ثم تبقى، بعد ذلك، قضية معالجة الواقع وتركيبته، وتنزيل القيم بكل ما تحتاج إليه، مجال سجال وحوار وتشاور وتعاون بين طبقات الأمة وقادة الرأي والخبرة فيها، في كل مجالات: النظر والعمل والمهن والحرف والخدمات، وجميع وجوه الارتفاق والمصالح.

٢- «فقه التوجه إلى السلوك الحضاري» للأمة، ومراقبته، وتوجيه انحرافاته، ورده إلى المعيار، والمثابرة على هذا التوجه، وهذه المراقبة، فمما لا شك فيه أن «معاودة إخراج الأمة» و«استرداد فاعليتها» و«شهودها الحضاري» منوط بالتوجه نحو سلوكها ومراقبته، ومعايرته بقيم دينها، وهذا يقتضي أن تكون الأمة المسلمة، في حالة مراقبة دائمة لذاتها، ولأعمالها، في حركة ذات اتجاهين متوازيين متكاملين، حركة في داخل الأمة نفسها من أجل تنميتها وتطهيرها والصعود بها في مراتب الكمال ومدارج الخير، وحركة في الكون، من أجل النظر في مفرداته وعطاءاتها؛ لاستثمارها والتفاعل معها، وهذا يعني:

- «تعميق الإحساس بالمسؤولية»، مسؤولية المسلم عن الأمة بل عن الإنسانية كلها، وكذلك مسؤولية الأمة عن الفرد، بل عن الإنسانية كلها، وعن وجوب «تنزيل هذه القيم» في الحياة، وذلك من خلال: الاجتهاد في إيجاد «الآليات» و«البرامج» الفردية والمؤسسية، والتي من خلالها يتم تنزيل هذه القيم في حياة الفرد والأمة. والاجتهاد في إيجاد «الآليات»، و«وسائل الرقابة العامة»، و«تطوير الأساليب والأوعية الشرعية» التي «تصوب المسيرة» وتمنع من الاختلال في «تنزيل هذه القيم». وهذا ما يجعل النفس أبداً قلقة متحفزة لبذل جهد مع الباذلين، وفي حالة الاستنفار والاستعداد للدفاع عن هذه القيم،

وحراستها، والوعي المستمر بتحديد «برامج» و«آليات» تنزيلها، بما يحفظ
كيانها، ويعمل على استمرارها.

- «ضرورة الناصحة والمراجعة»، أمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، وتحديداً
لمواطن الخلل والتقصير، ووقوفاً على الانحرافات التي تقع فيها الأمة في أثناء سعيها
لـ«تحريك الحياة» وما يقتضيه ذلك من «التفاعل» و«الحوار المفتوح» و«التحديد
المستمر» الذي ينفي «نوابت السوء» ويعيد للقيم عطاءها، وتفعيلها؛ وغياب هذه
الناصرحة من أهم عوامل «عطالتنا الحضارية» ويقول رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي
بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ
عِقَاباً مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»^(١). ومعلوم أن «التوجه إلى السلوك»
و«مراقبته» على هذا النحو، يجعل الأمة دائمة الاندفاع في «تحريك الحياة» وفق قيم:
«الاستخلاف» و«التركية» و«الاستعمار الإيماني للأرض» اندفاعاً فاعلاً لا يدخله
«الوهن» و«الفقر»، أو «الجمود» و«الانفصال».

ثالثاً: تنمية القيم:

فليس أقدر على «تنزيل القيم»، و«حراستها» في حياة المسلم، من «تنمية
هذه القيم» إنتاجاً وإبداعاً، من خلال ربط قيمنا بواقعنا الحي، والتعرف على
مدى قدرتنا على إبداع جديد القيم التي يتطلبها رهن هذا الواقع، وعلى استنباط
القيم التي نواجه بها مصاعب مستقبلنا، وبذل الجهد في تحقيقها والتحقق بها، وهذا
يحتاج إلى أمرين:

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، ٤/٤٦٨، حديث رقم: ٢١٦٩، وقال: «هذا حديث
حسن»؛ وروى نحوه الإمام أحمد في مسنده، ٥/٣٨٨، حديث رقم: ٢٣٣٧٥، وفي روايته:
«أَوْ لَيُبْعَثَنَّ عَلَيْكُمْ قَوْمًا، ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ».

- الكف عن الاستمرار في الحديث عن استيراد «قيم النموذج الغربي»، وتكرار ما قال به بعض علمائنا ومفكرينا من أن «مشروع الحضارة الإسلامي» هو بعينه مشروع «الحضارة الغربية» بعد إضافة بعض القيم إليه، عد أن توهم هؤلاء أن «الحضارة الغربية» واقع لا يزول، وأنها نافعة لا ضرر منها، وكاملة لا نقص فيها!! وكذلك الكف عن البحث عن (الأخر) بقيمه وقولاته، في قيمنا ومقولاتنا؛ لتأكيد أنها موجودة في الإسلام، بل وسبق الإسلام إليها، وكأنه «المعيار» لكل حركات الحياة، وكأننا لا نجد صورتنا إلا فيه!! بل أصبح من المتعين على مفكرينا وعلمائنا، بعد أزمة «الحضارة الغربية»، أن يأتوا بمشروعهم «الحداثي» وفق رؤية الإسلام الشاملة، ومقاصده التي تربط الإنسان بخالقه، من جهة، وتربط الإنسان بالكون ومفرداته من جهة ثانية، وبأخيه الإنسان من جهة ثالثة، ومن هنا يأتي الحديث عن الإنتاج والإبداع، بدلاً من التقليد والتقليد؛ إذ لا تنمية بغير تميز، ولا إبداع بغير خصوصية.

- الانخراط الواعي في قضايا الأمة، بل في قضايا الإنسانية كلها، والعمل على إبداع قيم جديدة، تعالج هذه القضايا وفق رؤية الإسلام، ومقاصده في «تحريك الحياة» حالاً ومآلاً، بل أن نعيد إبداع قيم نافعة ثم تناسيها (مثل قيم: الزهد والإيثار الكوني، والتعارف والتراحم، والائتمان على المستقبل... إلخ) وتأكيد على ضرورة بناء مفاهيم قيمة مستقاة من الوحي، قرآناً وسنة، واعتبار «منظومة المفاهيم الإسلامية»- بعد أن حاول الكثيرون تنحية الإسلام عن كونه مصدراً تأسيسياً في بناء المفاهيم- تشكل «القبلة الفكرية»، إن صح التعبير، التي يجب التوجه إليها، فالوحي يعد مصدراً هائلاً لمفاهيم تشكل نماذج معيارية

وقياسية، تتميز بكونها «منظومة» متكاملة للحكم على الأشياء والوقائع والمستقبل، فعلى سبيل المثال، نجد من القيم التي يتعين إبداءها اليوم في «تحريك الحياة»، ونشر الوعي بمفاهيمها، على مستوى البشرية كلها، قيم: «التسخير الكوني»، و«التكريم الإنساني»، و«السعي الحي»، و«الحركة المسؤولة»، و«التزكية»، و«مراعاة حق النفس، بتمام التخلق وتمام التعقل وتمام التعبد» و«مراعاة حق الغير، عدلاً وإحساناً وتراحماً ومجاهدة»، و«العلم النافع»، و«العمل الصالح»، و«ابتغاء الفضل»، و«الاستقامة في التعامل مع مفردات الكون، حفظاً وانتفاعاً واستثماراً»، و«القوامة الكونية»، و«الإيثار الكوني»، و«الائتمان على المستقبل»، و«الرُّشد»، و«البغي»، و«الوَهْن»، و«التدبير والاعتبار»، و«الابتلاء الحضاري»، و«التدافع»، و«التذكير بأيام الله»... إلخ .

فمثل هذه القيم -والتي لا نجد لها مثيلاً في القيم الكونية المزعومة- يمكن أن تكون بمنزلة «المقاصد الإنسانية» الكبرى، التي ينبغي أن يسترشد بها العالم في سعيه نحو «تحريك الحياة»، والتي إن فعلها لأدى ذلك إلى دفع «الآفات» التي دخلت على اختياراته الحضارية، من جهة، ولأدى إلى تغيير حركة الحياة على وجه الأرض، صلاحاً في الحال، وفلاحاً في المال، من جهة ثانية. وهذا يدفعنا إلى أن ننشئ من المفاهيم الحضارية ما لم تنشئه الحضارة الغربية، ونوفر لها «المشروعية» عن طريق إسنادها إلى أدلة صحيحة من ثقافتنا الإسلامية، وإشاعتها في مجالنا التداولي، وأن نوفر لها «الإنتاجية» عن طريق تفعيلها، ومحاكمة حركة الحياة والأحياء من منظورها، واستخراج نتائج مثمرة منها، وبيان نفعها في تحريك الحياة.

وبعد،

فقد آن الأوان لكي نعيد الاعتبار إلى قيم الإسلام، وتفعيلها في حياتنا، تنزيلاً، وحراسة، وتنمية، وأن نصوغ، في ضوء هذه القيم، خطاباً إسلامياً يكون على مستوى سؤالات الإنسان المعاصر، وأن نخوض معركة في بناء مفاهيم حضارية وفق رؤية ديننا في «تحريك الحياة» من خلال قيم: «الاستخلاف»، و«التزكية»، و«الاستقامة في التعامل مع مفردات الكون وعطاءاتها»، وتحويل هذه القيم إلى «مفردات شرعية» تحكم الواقع الإنساني، أفراداً وجماعات. وهذه هي «الحدائث» الجديدة التي يمكن أن يقدمها الإسلام للبشرية كلها، حدائث تهدف إلى «ترقية الوجود»؛ إذ إنما تبلغ النهاية في وصل الإنسان بربه، تبعداً وتعللاً وتخلقاً، كما تبلغ الكمال في وصل الإنسان بأخيه الإنسان، تعارفاً وتراحماً وإحساناً. كما تبلغ المنتهى في التعامل مع مفردات الكون، انتفاعاً واستثماراً وائتماناً، فلا تتصارع مع الكون، ولا تتسلط عليه، وإنما تخاطبه، بل تتوadd معه وتراحمه، حتى ييوح لها بأخباره وأسراره!! وبذلك، وحده، تحقق الأمة «شهودها الحضاري» لا أن ترك قيمنا تعاني غربة الزمان والمكان، ثم نجعل الإشكال فيها، والحقيقة أن هذا إشكال المسلم، لا إشكال قيمه، وقديماً قالت العرب في كلامها: «مَنْ رَامَ التَّفَلُّتَ، طَالَ مِنْهُ التَّلَفُتُ، وَيُوشِكُ أَنْ تُرْهَقَهُ الْمَنَاهَاتُ، وَتَلْفَهُ الْعَوَاقِقُ»!! وصدق الله إذ يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٤).

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	* تقديم: الأستاذ عمر عبيد حسنه
١٣	* مقدمة:
١٩	* تمهيد: القيم الحضارية في الإسلام... الدلالة وبناء المفهوم
٣٣	* الفصل الأول: الاستخلاف وتحصيل المعية الإلهية
٥٣	* الفصل الثاني: التزكية وترسيخ الذات الإنسانية
٩٩	* الفصل الثالث: الاستقامة والاستعمار الإيماني للأرض
١١٣	- أبعاد الاستعمار بمفهومه الإسلامي
١١٣	- أولاً: البعد الإيماني والإنجاز الحضاري في الكون
١١٧	- ثانياً: البعد الغائي
١٢٣	- ثالثاً: البعد الأخلاقي
١٧٦	- رابعاً: البعد السُّنِّي
٢٠٢	* الخاتمة
٢٢٢	* الفهرس

وكلاء التوزيع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطر	دار الثقافة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٦٢٢١٨٢ ٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ - الدوحة فاكس: ٤٤٣٦٨٠٠ - بخوار سولي الجير
البحرين	مكتبة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨ (المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ - البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويت	مكتبة دار المنار الإسلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع النقي رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبة علوم القرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب: ١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب: ٣٣٧١ - عمان ١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
اليمن	مجموعة الجيل الجديد	٧٨٠٤٠ - ٧١٣٦٣ ٢٧٠٣٨ - ٧٥٨١١	ص.ب: ٥٤٤ - صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦ - الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مصر	دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر - القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	فج موناستير رقم ١٦ - الرباط
الجزائر	دار الوعي للنشر والتوزيع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية - الروبة - الجزائر
إنكلترا	دار الرعاية الإسلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠) فلس
الإمارات	(٥) دراهم
البحرين	(٥٠٠) فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	(٥) ريال
السودان	(٥٠) قرشاً
عمان	(٥٠٠) بيسة
قطر	(٥) ريال
الكويت	(٥٠٠) فلس
مصر	(٦) جنيهاً
المغرب	(١٠) دراهم
الجزائر	(١٢٠) ديناراً
اليمن	(٤٠) ريالاً
* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقى دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.	

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة - الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر

موقعنا على الإنترنت:

www.sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E.Mail

M_Dirasat@Islam.gov.qa